طه حسين

الأيام

١

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع ماسبيرو — القاهرة

١

لا يذكُر لهذا اليوم اسماً ، ولا يستطيع أَن يَضعَه حيثُ وضعه الله من الشهر والسنة ، بل لا يستطيع أن يذكر من هذا اليوم وقتاً بعينه ، وإنما يُقرِّب ذلك تقريباً .

وأكبرُ ظنِّه أنّ هذا الوقتَ كان يقعُ من ذلك اليوم فى فَجْره أو فى عِشائه . يُرَجِّح ذلك لأنه يذكرُ أنّ وجهه تلقَّى فى ذلك الوقت هواءً فيه شيءٌ من البَرْد الخفيف الذى لم تَذْهَبْ به حرارةُ الشمس . ويُرَجِّح ذلك لأنه على جهله حقيقةَ النور والظُّلْمة ، يكاد يذكُر أنه تلقَّى حين خرج من البيت نُوراً هادئاً خفيفاً لطيفاً كأنّ الظلمة تَغْشَى[1] بعض حَواشيه . ثم يُرَجِّح ذلك لأنه يكاد يذكر أنه حين تَلَقَّى هذا الهواءَ وهذا الضياءَ لم يُؤْنِسْ[2] من حولِه حركةَ يَقَظةٍ قوية ، وإنما آنسَ

(١) تغشى : تغطى .
(٢) آنس : أبصر .

حركةً مستيقظةً من نومٍ أو مقبلةً عليه . وإذا كان قد بَقِى ، له من هذا الوقت ذِكْرَى واضحةٌ بينةٌ لا سبيلَ إلى الشك فيها ، فإنما هى ذكرى هذا السِّياج(١) الذى كان يقوم أمامه من القَصَب(٢) ، والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خُطُواتٌ قِصارٌ . هو يذكر هذا السِّياج كأنه رآه أمسِ . يذكر أنّ قَصَبَ هذا السياج كان أطولَ من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطّاه إلى ما وراءه . ويذكر أنّ قصب هذا السياج كان مقترباً كأنما كان متلاصقاً ، فلم يكن يستطيع أن ينسلّ(٣) فى ثناياه . ويذكر أنَّ قصبَ هذا السِّياج كان يمتدّ من شِماله إلى حيثُ لا يعلم له نهايةً ، وكان يمتدّ عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية . وكان آخرُ الدنيا من هذه الناحية قريباً ؛ فقد كانت تنتهى إلى قَناةٍ عَرَفها حين تَقَدَّمتْ به السِّنُّ ، وكان لها فى حياته — أو قُلْ فى خياله — تأثيرٌ عظيم .

---

(١) السياج : ما يحيط بالشيء من خشب أو حديد أو شجر أو بناء .

(٢) القصب هنا : ضرب من النبت ذو كعوب جوفاء ، كانت تتخذ منه الأقلام ، ينبت على شواطىء الأنهر والترع .

(٣) ينسل هنا : ينفذ . وأثناء الشيء : تضاعيفه ، الواحد ثنى ، بالكسر .

يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسُد الأرانبَ التى كانت تخرج من الدار كما يخرُج منها ، وتتخطّى السياج وَثْباً من فوقه ، أو انسياباً[1] بين قَصَبه ، إلى حيثُ تَقْرِضُ[2] ما كان وراءه من نَبْتٍ أخضرَ ، يَذْكُر منه الكُرُنْبَ خاصَّةً .

ثم يذكر أنه كان يحبّ الخروجَ من الدار إذا غَرَبَتِ الشمسُ وتعشّى الناسُ ، فيعتمدُ على قَصَب هذا السِّياج مفكِّراً مُغرقاً فى التفكير ، حتى يَرُدَّه إلى ما حوله صوتُ الشاعر قد جلَس على مسافةٍ من شِماله ، والتفَّ حولَه الناس وأخذ يُنشدهم فى نَغْمةٍ عَذْبةٍ غريبةٍ أخبارَ أبى زيد وخليفةَ وديابٍ ، وهم سكوتٌ إلا حين يَسْتخفّهم[3] الطَرَبُ أو تَسْتفزُّهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارَوْن[4] ويختصمون ، ويَسكُتُ الشاعرُ حتى يفرُغوا من لَغَطهم[5] بعد وقتٍ قَصيرٍ أو طويل ، ثم يستأنف إنشادَه العَذْبَ بنَغْمته التى لا تكاد تتغيَّر .

ثم يذكر أنه لا يخرج ليلةً إلى موقفِه من السِّياج إلا

---

(١) الوثب : القفز . والانسياب هنا : الدخول . (٢) تقرض : تقطع .
(٣) استخفه الأمر : أطربه وحمله على الخفة والجهل . واستفزه : استخفه .
(٤) يتمارون : يتجادلون . (٥) اللغط : الصوت والجلبة.

وفى نفسه حَسْرةٌ لاذعةٌ[١] ؛ لأنه كان يُقدِّر أنْ سيُقطعُ عليه استماعُه لنشيد الشاعر حين تدعوه أُختهُ إلى الدخول فيأبَى ، فتخرج فتَشُدُّه من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمِله بين ذِراعيها كأنه الثُّمامة[٢] ، وتَعدو[٣] به إلى حيث تُنيمه على الأرض وتضع رأسه على فَخِذِ أُمِّه ، ثم تعمِد[٤] هذه إلى عينيه المظلمتين فتفتحهما واحدةً بعد الأخرى ، وتقطُر فيهما سائلًا يُؤْذيهِ ولا يُجدِى عليه خيراً[٥] ، وهو يألمُ ولكنه لا يشكو ولا يبكى ؛ لأنه كان يكرَه أن يكون كأخته الصغيرة بكّاءً شكّاءً[٦] .

ثم يُنقَل إلى زاوية فى حُجرةٍ صغيرةٍ فتُنيمه أُخته على حصيرة قد بُسِط عليها لِحافٌ ، وتُلقِى عليه لِحافاً آخَرَ ، وتَذَرُه وإنَّ فى نفسه لَحسراتٍ ، وإنه لَيمُدُّ سمعه مدًّا يكاد يخترق به الحائط لعلّه يستطيع أن يَصِلَه بهذه النَّغمات الحُلْوة التى يُردِّدها الشاعر فى الهواء الطّلق تحت السماء . ثم يأخذه النوم ، فما

---

(١) حسرة : تلهف . ولاذعة : شديدة مؤلمة . (٢) الثمام : نبت ضعيف شبيه بالخوص ، يضرب به المثل لما هو هين المتناول .

(٣) تعدو : تجرى .

(٤) تعمد : تقصد . (٥) لا يجدى عليه خيراً : لا يحدث له خيراً ولا ينيله.

(٦) بكاء شكاء : كثير البكاء والشكوى .

يُحِسُّ إلا وقد استيقظ والناسُ نيامٌ ، ومن حولِه إخوته وأخواته يَغُطُّون(١) فيُسرفون فى الغطيط ، فيُلْقى اللحافَ عن وجهه فى خفيةٍ وتَرَدُّد ؛ لأنه كان يكره أن ينام مكشوفَ الوجه . وكان واثقاً أنه إن كشَف وجهه أثناءَ الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللِّحاف ، فلا بدَّ من أن يعبَث به عِفْريتٌ من العَفاريت الكثيرة التى كانت تعمرُ أقطارَ البيت(٢) وتملأُ أرجاءه ونواحيه ، والتى كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمسُ واضطرب الناس . فإذا أَوَتِ الشمس إلى كهفها ، والناسُ إلى مضاجعهم ، وأُطفئت السُّرُج ، وهدأت الأصواتُ ، صَعِدتْ هذه العفاريتُ من تحت الأرض وملأَتِ الفضاء حركةً واضطراباً وتهامساً وصياحاً .

وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمَع تجاوُبَ الدِّيَكةِ وتصايحَ الدَّجاج ، ويجتهد فى أن يميِّز بين هذه الأصوات المختلفة . فأمَّا بعضُها فكانت أصواتُ دِيَكةٍ حقًّا ، وأمّا بعضُها الآخر

---

(١) غط النائم : نخر وتردد نفسه صاعداً إلى حلقه حتى يسمعه من حوله .
(٢) أقطار البيت : نواحيه .

فكانت أصواتَ عفاريتَ تَتَشَكَّل بأشكال الدِّيكة وتُقلِّدها عَبَثاً وكيداً. ولم يكن يحفِل بهذه الأصوات ولا يهابُها، لأَنها كانت تصل إليه من بعيد، إنما كان يخافُ الخوفَ كلَّه أصواتاً أخرى لم يكن يتبيَّنها إلا بمشقّةٍ وجهْدٍ. كانت تنبعث من زوايا الْحُجرة نحيفةً ضئيلةً، يمثِّل بعضُها أزيز المِرْجَل[1] يغلِي على النار، ويمثِّل بعضُها الآخر حركةَ متاعٍ خفيفٍ يُنقَلُ من مكان إلى مكان، ويمثِّل بعضُها خَشَباً ينقصم أو عُوداً ينحطم[2].

وكان يخاف أشدّ الخوف أشخاصاً يتمثَّلها قد وقفتْ على باب الحجرة فَسَدَّته سدًّا وأخذتْ تأتى بحركاتٍ مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوِّفة فى حلَقات الذِّكْر. وكان يعتقد أنْ ليس له حِصْنٌ من كلِّ هذه الأشباح الْمَخُوفة والأَصوات الْمُنْكَرة؛ إلا أَن يلتَفَّ فى لِحافه من الرأْس إلى القدم، دون أن يَدَعَ بينه وبين الهواء منفذاً أو ثَغْرةً. وكان واثقاً أَنه إن

(١) المرجل: القدر. وأزيزه: صوته.   (٢) ينقصم وينحطم: ينكسر

ترك ثغرةً فى لحافه فلا بدَّ من أن تمتدَّ منها يدُ عِفْريتٍ إلى جسمه فتناله بالغَمْز والعَبث .

لذلك كان يقضى ليلَه خائفاً مضطرباً إلا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه النوم إلا قليلًا . كان يستيقظ مُبَكِّراً ، أو قُلْ كان يستيقظ فى السَّحَر ، ويقضى شَطْراً طويلًا من اللّيل فى هذه الأهوال والأوجال[1] والخوف من العفاريت ؛ حتى إذا وصلتْ إلى سمعه أصوات النساء يَعُدْنَ إلى بيوتهنَّ وقد ملأن جِرارَهنّ من القَناة وهنَّ يتغنَّيْنَ « الله يا ليل الله . . » عرَف أنْ قد بَزَغ الفجر ، وأنْ قد هَبَطَتِ العفاريت إلى مستقرِّها من الأرض السُّفلى ، فاستحال هو عفريتاً ، وأخذ يتحدَّث إلى نفسه بصوت عال ، ويتغنَّى بما حفِظ من نشيد الشاعر ، ويَغْمِز مَنْ حولَه من إخوته وأخَوَاته ، حتى يُوقظهم واحداً واحداً . فإذا تَمَّ له ذلك ، فهناك الصِّياح والغناء ، وهناك الضَّجيج

---

(١) الأوجال : المخاوف ، الواحد وجل ، بالتحريك .

والعَجيج[١] ، وهناك الضوضاء التى لم يكن يَضع لها حدًّا إلا نُهوضُ الشيخ من سريره ، ودعاؤه بالإبريق ليتوضَّأ .

حينئذ تخفُت[٢] الأصوات وتَهْدَأ الحركة ، حتى يتوضَّأ الشيخ ويُصَلِّى ويقرأ وِرْدَه ويشرَب قهوته ويمضى إلى عمله . فإذا أَغلق البابَ من دونه نهضتِ الجماعةُ كلّها من الفِرَاش ، وانسابت[٣] فى البيت صائحةً لاعبةً ، حتى تختلِط بما فى البيت من طير وماشية .

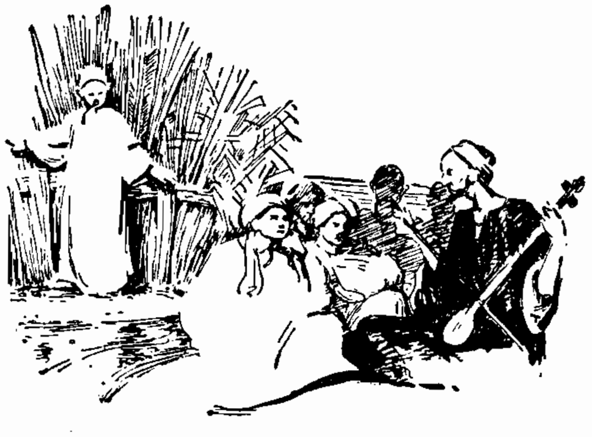

(١) الضجيج والعجيج : الصياح ورفع الصوت .
(٢) تخفت الأصوات : تسكن أو تضعف .
(٣) انسابت : جرت وجالت .

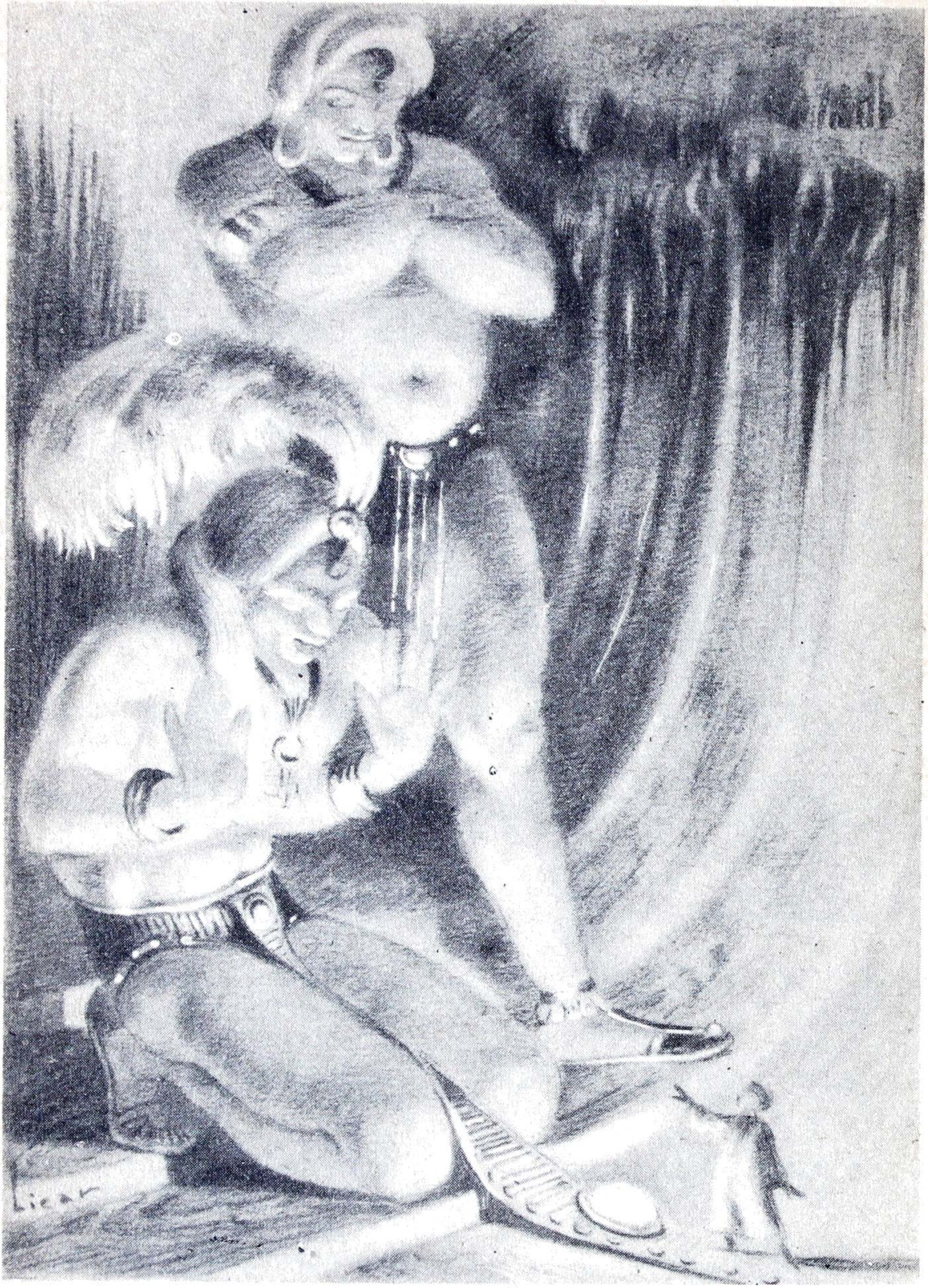
Licar

٢

كان مطمئناً إلى أن الدنيا تنتهى عن يمينه بهذه القناة التى لم يكن بينه وبينها إلا خُطوات معدودة . . . ولِمَ لا وهو لم يكن يرى عَرْضَ هذه القناة ، ولم يكن يُقَدِّر أنّ هذا العَرْض ضئيلٌ بحيث يستطيع الشابُّ النشيط أن يَثِبَ من إحدى الحافتَيْن فيَبْلُغَ الأخرى . ولم يكن يقدِّر أنّ حياةَ الناس والحَيَوان والنَّبات تتَّصل من وراء هذه القناة على نحو ما هى من دونها . ولم يكن يقدِّر أنَّ الرجل يستطيع أن يعبُر هذه القناة ممتلئةً دون أن يبلغَ الماءُ إبطَيْهِ . ولم يكن يقدِّر أنّ الماء ينقطع من حينٍ إلى حينٍ عن هذه القناة ، فإذا هى حفرةٌ مستطيلة يعبَث فيها الصِّبيان ، ويبحثون فى أرضها الرِّخوة عما تَخَلَّف من صِغار السَّمك فمات لانقطاع الماء عنه .

لم يكن يقدِّر هذا كلَّه ، وإنما كان يعلَم يقيناً لا يُخالطه الظنّ ، أنّ هذه القناة عالَمٌ آخرُ مستقلٌّ عن العالم الذى كان

يعيش فيه ، تعمُره كائناتٌ غريبةٌ مختلفة لا تكاد تُحْصَى : منها التماسيح التى تَزْدَرِدُ(١) الناسَ ازدراداً ، ومنها المسحورون الذين يعيشون تحت الماء بَياضَ النهار وسوادَ الليل ، حتى إذا أشرقتِ الشمس أو غَرَبَتْ طَفَوْا يتنسَّمون الهواء(٢) ، وهم حين يَطْفُون خطرٌ على الأطفال وفتنةٌ للرجال والنساء . ومنها هذه الأسماك الطِّوال العِراض التى لا تكاد تَظْفَر بِطِفْل حتَّى تزدرده ازدراداً ، والتى قد يُتاحُ(٣) لبعض الأطفال أن يظفَروا فى بطونها بخاتَم المُلْك ، ذلك الخاتم الذى لا يكاد الإنسان يُديرُه فى أصبعه حتى يَسْعَى إليه دون لَمْح البَصَر خادمان من الجِنِّ يَقْضِيان له ما يشاء ، ذلك الخاتم الذى كان يَتَخَتَّمه سُلَيمان فيُسَخِّر له الجِنَّ والريحَ وما شاء من قُوَى الطبيعة . وما كان أحَبَّ إليه أن يَهبِط فى هذه القناة لعلَّ سمكةً من هذه الأسماك تزدرده فيَظْفَرَ فى بطنها بهذا الخاتم ؛ فقد كانت حاجته إليه شديدةً . . . . ألم يكن يطمَع على أقلِّ

---

(١) تزدرد : تبتلع . (٢) طفوا : علوا . وتنسم الهواء : تشممه ووجد نسيمه . (٣) يتاح : يهيأ .

تقدير فى أنْ يحمِله أحدُ هذين الخادمين إلى ما وراء هذه القناة ليرى بعضَ ما هناك من الأعاجيبِ ! ولكنه كان يخشَى كثيراً من الأهوال قبل أن يَصِل إلى هذه السمكة المباركة .

على أنه لم يكن يستطيع أن يَبْلُوَ(١) من شاطئ هذه القناة مسافةً بعيدة ؛ فقد كان هذا الشاطئُ محفوفاً عن يمينه وعن شِماله بالخطر . فأمّا عن يمينه فقد كان هناك العَدَوِيُّون ، وهم قومٌ من الصعيد يُقيمون فى دارٍ لهم كبيرةٍ يقوم على بابها دائماً كلْبان عظيمان لا ينقطعُ نباحُهما ، ولا تنقطع أحاديث الناس عنهما ، ولا ينجو المارُّ منهما إلا بعد عناءٍ ومَشَقَّةٍ . وأمَّا عن شِماله فقد كانت هناك خِيامٌ يقيم فيها « سعيد الأعرابىّ » الذى كان الناسُ يتحدثون بشَرِّه ومَكْره وحِرْصه على سَفْك الدِّماء ، وامرأتُه « كوابس » التى كانت قد اتخذتْ فى أنفها حَلْقةً من الذهب كبيرة ، والتى كانت تختلف(٢) إلى الدار وتُقبِّل صاحبَنا من حينٍ إلى حينٍ ، فيؤْذِيه خِزَامها ويَرُوعه(٣) .

وكان أَخْوَفُ الأشياء إليه أن يتقدّم عن يمينه فيتعرَّض لكلبى

---

(١) يبلو : يختبر .
(٢) تختلف إلى الدار : تتردد عليها .
(٣) يروعه هنا : يخيفه .

العَدَويِّيِن ، أو يتقدم عن شماله فيتعرَّض لشرِّ « سعيد » وامرأته « كوابس » .

على أنه كان يجد فى هذه الدنيا الضيِّقة القصيرة المحدودة من كلّ ناحية ضروباً من اللّهو والعَبَث تملأ نهارَه كلَّه .

ولكنّ ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قُلْ إنّ ذاكرة الإنسان غريبة حين تُحاول استعراض حوادث الطُّفولة ؛ فهى تتمثَّل بعضَ هذه الحوادث واضحاً جلياً كأنْ لم يمض بينها وبينه من الوقت شىء ، ثم يَمَّحِى منها بعضُها الآخر كأنْ لم يكن بينها وبينه عهد .

يذكر صاحبنا السِّياج ، والمزرعةَ التى كانت تنبسط من ورائه ، والقناةَ التى كانت تنتهى إليها الدنيا ، و « سعيداً » و « كوابس » وكلابَ العَدَويِّين ، ولكنه يُحاول أن يتذكَّر مَصِيرَ هذا كلِّه فلا يظفر من ذلك بشىء . وكأنّه قد نام ذاتَ ليلةٍ ثم أفاق من نومه فلم يرَ سِياجاً ولا مزرعة ولا سعيداً ولا كوابس ، وإنما رأى مكانَ السياج والمزرعة بيوتاً قائمة وشوارع مُنَظّمة ، تنحدر كلها من جِسْر القناة ممتدّةً امتداداً

قصيراً من الشّمال إلى الجنوب . وهو يذكر كثيراً من الذين كانوا يسكُنون هذه البيوتَ رجالاً ونساءً ، ومن الأطفال الذين كانوا يعبَثون فى هذه الشوارع .

وهو يذكر أنه كان يستطيع أن يتقدَّم يمينًا وشِمالاً على شاطئ القناة دون أن يَخشَى كلابَ العَدَويِّين أو مَكْرَ سعيدٍ وامرأته . وهو يذكر أنه كان يقضى ساعاتٍ من نهاره على شاطئ القناة سعيداً مبتهجاً بمَا سمع من نَغَمات « حسن » الشاعر يتغنّى بشعره فى أبى زيد وخليفة ودياب ، حين يرفَع الماءَ بشادوفه لِيَسْقِيَ به زَرْعَه على الشاطئ الآخر للقناة . وهو يذكر أنه استطاع غيرَ مرّةٍ أن يعبُر هذه القناة على كتف أحد إخْوته دون أن يحتاج إلى خاتَم الملك ، وأنّه ذهب غيرَ مرّة إلى حيثُ كانت تقوم وراءَ القناة شَجَراتٌ من التُّوت فأكل من تُوتها ثمراتٍ لذيذةً . وهو يذكر أنه تقدَّم غير مرة عن يمينه على شاطئ القناة حتى وصل إلى حديقة المعلّم وأكل فيها غيرَ مرَّة تُفَّاحًا ، وقُطِف له فيها غيرَ مرّة نَعْناعٌ ورَيْحان . ولكنه عاجزٌ كلَّ العجز أن يتذكَّر كيف استحالت الحالُ وتغيّر وجهُ الأرض من طَوْره الأول إلى هذا الطور الجديد .

٣

كان سابعَ ثلاثةَ عشَرَ من أبناء أبيه ، وخامسَ أحَدَ عَشَرَ من أشِقّته . وكان يشعُر بأنَّ له بين هذا العدد الضخم من الشباب والأطفال مكاناً خاصًّا يمتاز من مكان إخْوته وأخَواته . أكان هذا المكان يُرْضِيه ؟ أكان يُؤْذيه ؟ الحقّ أنه لا يتبيَّن ذلك إلا فى غموض وإبهام . والحقُّ أنه لا يستطيع الآن أن يحكم فى ذلك حُكماً صادقاً . كان يُحِسُّ من أُمِّه رحمةً ورأفةً ، وكان يجد من أبيه لِيناً ورِفْقاً ، وكان يشعُر من إخْوته بشىءٍ مِنَ الِاحْتياط فى تحدُّثهم إليه ومعاملتهم له . ولكنّه كان يجد إلى جانب هذه الرحمة والرأفة من جانب أُمِّه شيئاً من الإهمال أحياناً ، ومن الغِلْظة أحياناً أُخرى . وكان يجد إلى جانب هذا اللين والرفق من أبيه شيئاً من الإهمال أيضاً ، والازْوِرار(١) من وقت إلى وقت . وكان احتياط إخوته

(١) الازورار : الإعراض والانحراف .

وأخواته يؤذيه ؛ لأنه كان يجد فيه شيئاً من الإشفاق مشوباً بشيءٍ مِنَ الازْدراء .

على أنه لم يلبَث أن تبيَّن سبب هذا كلِّه ؛ فقد أحسَّ أنّ لغيره من الناس عليه فضلاً ، وأنَّ إخوته وأخَواتِه يستطيعون ما لا يستطيع ، وينهَضون من الأمر لِما لا ينهض له . وأحسَّ أنّ أمَّه تأذَنُ لإخوته وأخَواتِه فى أشياء تحظُرها عليه[1] ، وكان ذلك يُحْفِظه . ولكن لم تَلبَث هذه الحفيظة أنِ استحالت إلى حزنٍ صامت عميق ؛ ذلك أنه سمع إخْوته يَصِفون ما لا عِلْمَ له به ، فعلِم أنَّهم يَرَوْنَ ما لا يرى .

---

(١) تحظرها عليه : تحرمها عليه وتمنعه منها . ويحفظه : يغضبه . وما يبقى فى نفس المرء من الغيظ والغضب يقال له الحفيظة .

٤

كان من أوّل أمره طُلَعَةً(١) لا يحفِل بما يَلْقَى من الأمر فى سبيل أن يستكشف ما لا يعلَم . وكان ذلك يُكلِّفه كثيراً من الألم والعَناء . ولكنّ حادثةً واحدةً حدّت مَيْلَه إلى الاستطلاع ، وملأت قلبَه حياءً لم يُفارقه إلى الآن . كان جالساً إلى العَشَاء بين إخْوته وأبيه ، وكانت أُمُّه كعادتها تُشْرِف عَلَى حَفْلَة الطعام . تُرشد الخادمَ وتُرشد أخَواتِه اللّائى كُنَّ يُشارِكن الخادمَ فى القيام بما يحتاج إليه الطاعمون . وكان يأكل كما يأكل الناس . ولكن لأمرٍ ما خطَر له خاطرٌ غريب ! ما الذى يقع لو أنّه أخذ اللُّقمة بكلتا يديه بدَلَ أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شىء . وإذن فقد أخذ اللُّقمة بكلتا يديه وغمَسها من الطَّبَق المشترَك ثم رفعها إلى فمه . فأَمَّا إخوته فأغرقوا فى الضَّحِك(٢) . وأمّا أُمّه

---

(١) طلعة : كثير التطلع . ولا يحفل بالشيء : لا يبالى به .

(٢) أغرقوا فى الضحك : بالغوا فيه .

فأجهشتْ[1] بالبكاء . وأمَّا أبوه فقال فى صوت هادئ حزين : ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بُنَىّ . . وأمَّا هو فلم يعرِف كيف قضى ليلته .

من ذلك الوقتِ تقيَّدت حركاته بشىءٍ من الرَّزانة والإشفاق والحياء لا حَدَّ له . ومن ذلك الوقت عَرَف لنفسه إرادةً قويّة . ومن ذلك الوقت حَرَّم على نفسه ألوانًا من الطعام لم تُبَحْ له إلّا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين . حَرَّم على نفسه الْحساءَ والأُرْز وكلَّ الألوان التى تُؤْكَل بالملاعق ؛ لأنه كان يعرِف أنَّه لا يُحْسِنُ اصطناعَ الْمِلْعقة ، وكان يَكْرَه أن يضحَك إِخْوته ، أو تبكى أُمُّه ، أو يُعَلِّمه أبوه فى هدوء حزين .

هذه الحادثة أعانته على أن يَفْهَمْ حقًّا ما يتحدّث به الرُّواة عن أبى العَلاء من أنه أكل ذاتَ يومٍ دِبْسًا[2] ، فسقَط بعضُه على صدره وهو لا يدرى . فلما خرج إلى الدَّرْس قال له بعض تلاميذه : يا سيِّدى أكلتَ دبسًا ؟ فأسرع بيده إلى صدره

---

(١) أجهشت بالبكاء : همت به وتهيأت له .

(٢) الدبس : عسل التمر وعسل النحل .

وقال : نَعَمْ قاتل الله الشَّرَهَ ! ثم حَرَّم الدبس على نفسه طَوَالَ الحياة .

وأعانته هذه الحادثة على أن يَفهمَ طَوْراً من أطوار أبي العلاء حقَّ الفهم . ذلك أنّ أبا العلاء كان يتستَّر في أكله حتى على خادمه ؛ فقد كان يأكل في نَفَقٍ[1] تحت الأرض ، وكان يأمر خادمَه أن يُعِدَّ له طعامَه في هذا النفق ثم يخرج ، ويخلو هو إلى طعامه فيأخذ منه ما يشتهي . وقد زعموا أنَّ تلاميذه تذاكروا مَرَّةً بِطِّيخَ حَلَبَ وجَوْدته ، فتكلّف أبو العلاء وأرسل إلى حَلَبَ مَنِ اشْترَى لهم منه شيئاً فأكلوا . واحتفظ الخادم لسيِّده بشيءٍ من البطيخ وضعه في النَفَق ، وكأنه لم يَضَعْه في المكان الذى تعوّد أن يضع فيه طعامَ الشيخ ، وكَره الشيخ أَن يسأل عن حَظِّه من البِطِّيخ ، فلبِث البِطِّيخ في مكانه حتى فَسَد ولم يَذُقْه الشيخ .

فَهِمَ صاحبنا هذه الأطوارَ من حياة أبي العلاء حقَّ الفهم ؛ لأنه رأَى نفسه فيها . فكَمْ كان يتمنَّى طِفْلاً لَوِ اسْتطاع أَن

---

(١) النفق : الحفير تحت الأرض .

يخلو إلى طعامه ، ولكنَّه لم يكن يَجْرُؤ على أن يُعْلِنَ إلى أهله هذه الرغبة . على أنَّه خلا إلى بعض الطعام أحيانا كثيرة ، ذلك في شهر رمضان وفي أيَّام المواسم الحافلة ، حين كان أهلُه يَتَّخِذون ألوانا من الطعام حلوة ، ولكنها تُؤْكَل بالملاعق ؛ فكان يأبَى أن يُصِيبَ منها على المائدة . وكانت أُمُّه تكرَه له هذا الحِرمانَ ، فكانت تُفرِد له طَبَقا خاصًّا وتُخْلِي بينه وبينه في حُجْرة خاصَّة ، يُغْلِقُها هو من دونه حتى لا يستطيع أحدٌ أن يُشْرِفَ عليه وهو يأكل .

على أنه عند ما استطاع أن يملِك أمرَ نفسه اتَّخذ هذه الخُطّة له نِظاما . بدأ بذلك حين سافر إلى أوربا لأوَّل مرّة ، فتكلَّف التعب وأبَى أن يذهب إلى مائدة السفينة ، فكان يُحْمَلُ إليه الطعامُ في غُرْفته . ثم وصل إلى فرنسا فكانت قاعدتُه إذا نزل في فُنْدُقٍ أو في أُسْرة أن يُحْمَلَ إليه الطعامُ في غرفته دون أن يتكلف الذهابَ إلى المائدة العامة . ولم يترك هذه العادة إلا حين خطَب قرينته ، فأخرجته من عادات كثيرة كان قد ألِفها .

هذه الحادثة أخذته بألوانٍ من الشِّدَّة فى حياته ، جعلته مضربَ المثل فى الأُسرة وبين الذين عَرَفوه حين تجاوز حياة الأسرة إلى الحياة الاجتماعية . كان قليلَ الأكل لا لأنه كان قليلَ الميل إلى الطعام ، بل لأنه كان يخشى أن يوصف بالشَّرَه أو أن يتغامز عليه إخوته . وقد آلمه ذلك أوَّلَ الأمر ، ولكنه لم يلبث أن تعوّده حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس . كان يُسرف فى تصغير اللقمة ، وكان له عَمٌّ يَغيظه منه كلما رآه فيغضَب وينْهَرُه(١) ويُلِحُّ عليه فى تكبير اللقمة ، فيضحك إخوته . وكان ذلك سبباً فى أن كره عمّه كُرْهاً شديداً . كان يستحى أن يشرَبَ على المائدة مخافةَ أن يضطرب القدحُ من يده ، أو أَلَّا يُحْسِنَ تناولَه حين يقدَّم إليه ، فكان طعامه جافًّا ما جلس على المائدة ، حتى إذا نَهَض عنها ليغسل يديه من حنفيَّة كانت هناك شرِب من مائها ما شاء الله أن يشرَب . ولم يكن هذا الماء نقيًّا دائماً ، ولم يكن هذا النوع من رِيِّ الظمأ ملائماً

(١) ينهره : يزجره .

للصحة ، فانتهى به الأمرُ إلى أن أصبح ممعوداً[١] ، وما استطاع أحد أن يعرف لذلك سبباً .

ثم حرَّم على نفسه من ألوان اللَّعِب والْعبث كلَّ شيء ، إلا مالا يكلِّفه عناءً ولا يُعَرِّضه للضحك أو الإشفاق . فكان أحبُّ اللعب إليه أن يجمع طائفة من الحديد وينتحى[٢] بها زاوية من البيت ، فيجمعها ويفرّقها ويقرَع بعضَها ببعض ، يُنفِق فى ذلك ساعاتٍ ، حتى إذا سئمه وقف على إخوته أو أترابه وهم يلعبون ، فشاركهم فى اللعب بعقله لا بيده . وكذلك عرَف أكثر ألوان اللعب دون أن يأخذ منها بحظّ ٍ . وانصرافُه هذا عن العبث حبَّب إليه لوناً من ألوان اللهو ، هو الاِستماع إلى القَصَص والأحاديث ؛ فكان أحبُّ شيء إليه أن يسمع إنشادَ الشاعر ، أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أمه ، ومن هنا تعلّم حسنَ الاستماع . وكان أبوه وطائفةٌ من أصحابه يُحِبُّون القصص حبًّا جمًّا ، فإذا

(١) ممعود : بمعدته داء .
(٢) ينتحى : يقصد .

صَلَّوُا العصرَ اجتمعوا إلى واحد منهم يتلو عليهم قصص الغزوات والفتوح ، وأخبار عنترة والظاهر بيبَرْس ، وأخبار الأنبياء والنسَّاك والصالحين ، وكتباً فى الوعظ والسُّنن . وكان صاحبنا يقعُد منهم مَزْجَرَ[1] الكلب وهم عنه غافلون ، ولكنه لم يكن غافلاً عمَّا يسمع ، بل لم يكن غافلاً عما يتركه هذا القصص فى نفوس السامعين من الأثر . فإذا غَرَبَتِ الشمس تفرَّق القوم إلى طعامهم ، حتى إذا صَلَّوُا العِشاء اجتمعوا فتحدَّثوا طَرَفاً من الليل ، وأقبل الشاعر فأخذ يُنشدهم أخبار الهلاليّين والزناتيّين ، وصاحبُنا جالس يسمع فى أوَّل الليل كما كان يسمع فى آخر النهار .

والنساء فى قُرَى مصر لا يُحْبِبْنَ الصمت ولا يَمِلْنَ إليه ؛ فإذا خلتْ إحداهن إلى نفسها ولم تجد مَنْ تتحدَّث إليه ، تحدَّثت إلى نفسها ألواناً من الحديث ، فغنَّت إن كانت فَرِحةً ، وعدَّدت[2] إن كانت محزونة . وكلُّ امرأة فى

---

(١) أى قريباً منهم . ومزجر الكلب : المكان الذى يزجر فيه . وذلك أن الكلب يكون حول القوم عند الطعام فينهونه بالصوت ليبعد عنهم .

(٢) التعديد : ذكر محاسن الميت . والمراد هنا : ما تلهج به المرأة من بكاء موتاها أو ذكر أشجانها .

مصر محزونة حين تُريد . وأحَبُّ شيء إلى نساء القرى إذا خلون إلى أنفسهن أن يَذكُرْنَ آلامهن وموتاهن فيعدّدن ، وكثيراً ما ينتهى هذا التعديد إلى البكاء حقًّا . وكان صاحبُنا أسعدَ الناس بالِاستماع إلى أخَواته وهنَّ يتغنَّين . وأُمِّه وهى تُعَدِّد . وكان غناء أخَواته يَغيظه ولا يترك فى نفسه أثراً ؛ لأنه كان يجده سخيفاً لا يدلُّ على شىء . فى حين كان تعديدُ أُمِّه يهزُّه هزًّا عنيفاً، وكثيراً ما كان يُبكيه . وعلى هذا النحو حفِظ صاحبنا كثيراً من الأغانى ، وكثيراً من التعديد ، وكثيراً من جِدِّ القصص وهَزْله ، وحفِظ شيئًا آخر لم تكن بينه وبين هذا كلِّه صلة ، وهى الأوراد التى كان يتلوها جَدّه الشيخ الضرير إذا أصبح أو أمسى .

كان جَدُّه هذا ثقيلَ الظِّل بغيضاً إليــه ، وكان يقضى فى البيت فَصْلَ الشتاء من كلِّ سنة ، وكان قـد صَلُحَ ونَسُك حين اضطرته الحياة إلى الصَّلاح والنُّسُك ، فكان يُصَلِّى الخمس لأَوقاتهــا ، ولم يكن لسانُه يَفْتُر عن ذكر الله . وكان يستيقظ آخرَ الليل ليقرأ « وِرْد السَّحَر » . وكان

ينام فى ساعة متأخِّرة بعد أن يصلِّى العشاء ويقرأ ألوانًا من الأوراد والأدعية . وكان صاحبنا ينام فى حُجْرةٍ مجاورةٍ لحجرة هذا الشيخ ، فكان يسمعه وهو يتلو ، حتى حفِظ من هذه الأوراد والأدعية شيئًا كثيراً . وكان أهلُ القرية يحبُّون التصوُّف ويُقيمون الأذكار ، وكان صاحبنا يحبّ منهم ذلك ؛ لأنه كان يلهو بهذا الذكر ، وبما يُنْشِده المنشدون أثناءه . ولم يَبْلُغِ التاسعة من عمره حتى كان قد وَعَى من الأغانى والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والأدعية وأناشيد الصوفية جملةً صالحة ، وحفظ إلى ذلك كلِّه القرآن .

٥

ولكنه لا يعرف كيف حفِظ القرآن ، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده ، وإن كان يذكر من حياته في الكُتَّاب مواقفَ كثيرةً ، منها ما يُضْحِكه الآن ، ومنها ما يحزِنه : يذكر أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكُتَّاب محمولاً على كتِف أحد إخوته ؛ لأن الكُتَّاب كان بعيداً ، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشياً تلك المسافة . ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكُتَّاب . ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين يدى « سيِّدنا » ومِنْ حولِه طائفة من النِّعال كان يعبَث ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد أُلْصِق بها من الرُّقَع . وكان « سيِّدنا » جالساً على دَكَّةٍ[1] من الخَشَب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة ؛

---

(١) تطلق الدكة فى مصر على سرير من الخشب يجلس عليه ، له فى جوانبه العليا ما عدا مقدمه سياج . وأصل الدكة (بفتح الدال) : بناء يسطح أعلاه ويجلس عليه . فأطلقها المصريون على هذا السرير ، ولكنهم يكسرون الدال .

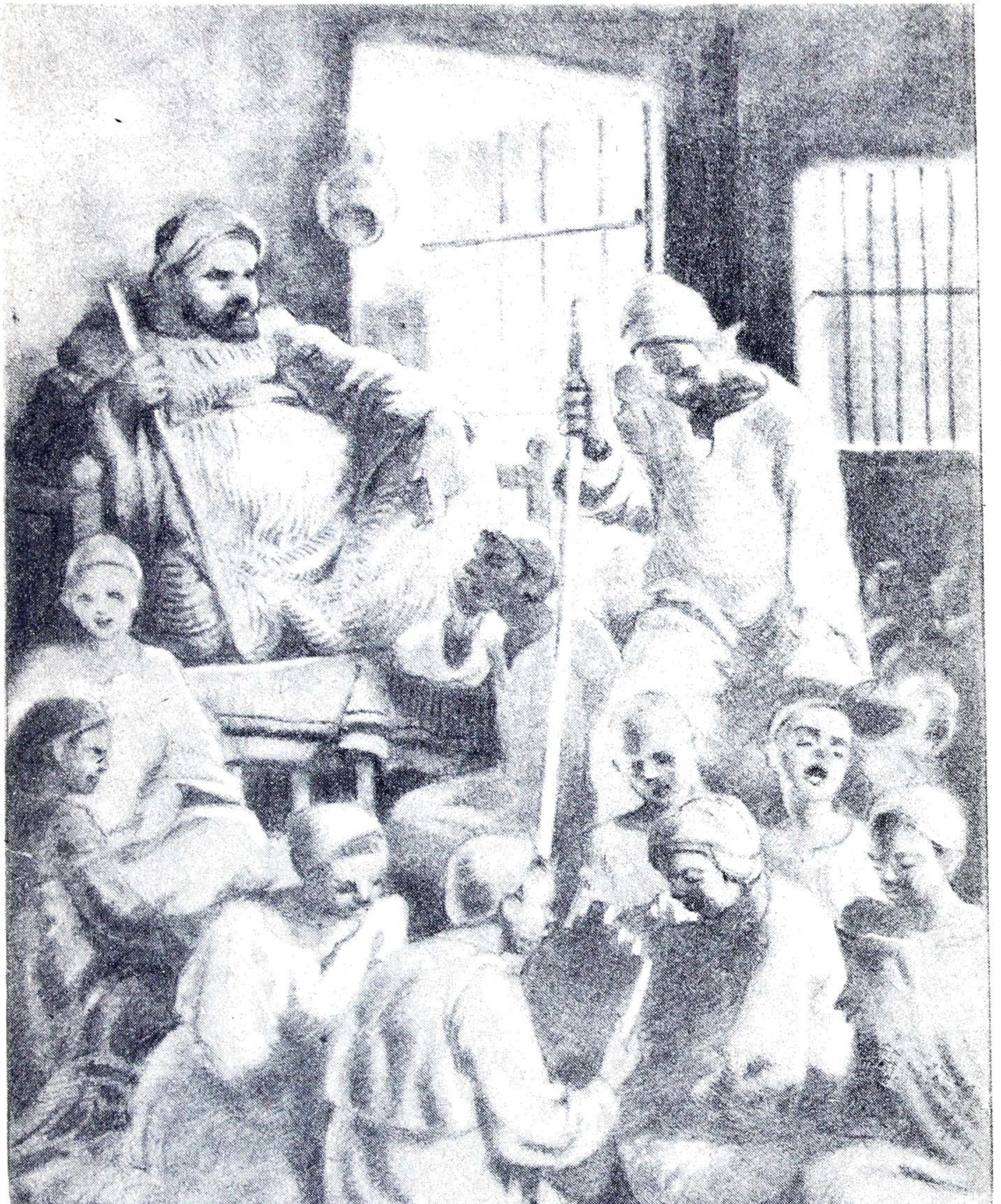

قد وُضِعَتْ على يمين الداخل من باب الـكُتّاب بحيث يمرّ كلُّ داخل « بسيدنا » . وكان « سيدنا » قد تعوّد متى دخل الـكتّاب أن يخلَع عَباءته ، أو بعبارة أدقّ « دِفِيّتَهُ » ويَلفُّها لَفًّا يجعلها فى شـكل المِخَدَّة ، ويضعها عن يمينه ، ثم يخلَع نعله ويتربَّع على دكته ، ويُشْعل سيجارته ، ويبدأ فى نداء الأسماء . وكان « سيِّدنا » لا يُعْفى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بُدًّا ، كان يَرْقعُهما من اليمين ومن الشِّمال ومن فوقُ ومن تحتُ . وكان إذا أخَلّتْ به إحدى نعليـه دعا أحد صِبْيان الـكتّاب وأخذ النعل بيده وقال له : تذهبُ إلى « الحزيّن » وهو هنا قريب ، فتقول له : « يقول لك سيِّدنا إنّ هذه النعل فى حاجة إلى لَوْزة من الناحية اليمنى » . انظر أترى ! هنا حيث أضع أصبعى . فيقول لك « الحزيّن » : « نعم ! سأضع هذه اللوزة » . فتقول له : « يقول لك سيِّدنا يجب أن تتخيَّر الجلد متيناً غليظاً جديداً ، وأن تُحْسِن الرَّقْعَ بحيث لا يظهر ، أو بحيث لا يكاد يظهر » . فيقول لك : « نعم سأفعل هذا» . فتقول له:« ويقول لك سيِّدنا : إنه عَميلك

منذ زمن طويل ، فاستوصِ بالأجر خيراً » . ومهما يقل لك فلا تَقْبَلْ منه أكثرَ من قرش ، ثم عُدْ إليَّ مسافةَ ما أُغمض عيني ثم أفتحها . وينطلق الصبيّ ويلهو عنه سيِّدنا ، ثم يعود وقد أغمض سيِّدنا عينه وفتحها مرَّةً ومرَّةً ومرَّات .

على أنّ الرجل كان يستطيع أن يُغْمِض عينه ويفتَحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً ، فقدكان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جدًّا من النور فى إحدى عينيه ، يُمثِّل له الأشباح دون أن يُمكِّنه أن يتميزها . وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل . . . وكان يخدَع نفسه ويظنّ أنه من المبصرين . . . ولكنّ ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد فى طريقه إلى الكتَّاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه ، يبسُط ذراعيه على كَتِفَىْ كلٍّ واحد منهما ، ويمشى الثلاثةُ فى الطريق هكذا ! قد أخذوها على المارَّة ، حتى إنهم ليتنحَّون لهم عنها .

وكان منظر سيدنا عجباً فى طريقه إلى الكتَّاب وإلى البيت صباحًا ومساءً . كان ضخماً بادناً ، وكانت دِفِّيَّته تزيد فى ضخامته . وكان كما قدَّمنا يبسط ذراعيه على كتفى رفيقيه .

وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً . وكان سيِّدنا يتخيَّر من تلاميذه لهذه المهمَّة أنجبهم وأحسنَهم صوتاً ؛ ذلك أنه كان يحبّ الغِناء ، وكان يحبّ أن يعلِّم تلاميذه الغناء ، وكان يتخيَّر الطريق لهـذا الدرس . فكان يُغَنِّى ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حيناً ، والاستماع له حيناً آخر ، أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر . وكان سيِّدنا لا يُغنِّى بصَوته ولسانه وحدهما ، وإنما يُغنِّى برأسه وبدَنه أيضاً ؛ فكان رأسُه يهبط ويصعَد ، وكان رأسه يلتفت يميناً وشِمالاً . وكان سيِّدنا يُغنِّى بيديه أيضاً . فكان يُوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه . وكان سيِّدنا يُعجبه « الدَّوْر » أحياناً ، ويرى أنّ المشى لا يلائمه فيقف حتى يُتِمَّه . وأبدعُ من هـذا كله أنّ سيِّدنا كان يرى صوته جميلًا ، وما يَظنّ صاحبنا أنّ الله خلق صوتاً أقبح من صوته . وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل : « إنّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوتُ الْحَمِيرِ » إلَّا ذكر سيِّدنا وهو يُوقع أبياتاً من « البُرْدة » فى طريقه إلى الجامع منطلقاً

لصلاة الظهر أو فى طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتَّاب .

يرى صاحبنا نفسَه ، كما قدَّمنا ، جالساً على الأرض يعبَث بالنعال من حوله ، وسيِّدنا يُقْرِئه سورةَ الرحمن ، ولكنه لا يذكر أكان يقرؤها بادئًا أم معيداً .

وكأنه يرى نفسه مرَّةً أُخرى جالساً لا على الأرض ولا بين النعال ، بل عن يمين سيِّدنا على دَكّة أُخرى طويلة ، وسيِّدنا يُقرئه : « أَتَأْمُرُونَ النّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنفسَكم وأنْتُمْ تَتلُونَ الكِتابَ أفَلاَ تَعْقِلُون » . وأكبرُ ظنِّه أنه كان قد أتمَّ القرآن بَدْءًا وأخذ يُعيده . وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفِظ القرآن ؛ فقد أتمَّ حِفظَه ولمَّا يُتِمّ التاسعة من عمره . وهو يذكر فى وضوح وجلاءٍ ذلك اليومَ الذى خَتَم فيه القرآن . ذلك أنَّ سيِّدنا كان يتحدَّث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن خَتْم القرآن ، وعن أن أباه سيبتهج به . وكان يضع لذلك شروطاً ويُطالب بحقوقه . ألم يكن قد علّم قبلَ صاحبنا أربعةً من إخوته ذهب واحدٌ منهم إلى

الأزهر ، والآخرون إلى المدارس ، وصاحبنا هو الخامس ! . .
فكم لسيِّدنا على الأسرة من حقوق ! وحقوقُ سيِّدنا على الأسرة كانت تتمثّل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً . فأمّا الحقوق التى كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعَشْوَةٌ دَسِمةٌ قبل كلِّ شىء ، ثم جُبَّة وقُفْطان ، وزوجٌ من الأحذية ، وطربوش مغربىٌّ ، وطاقيّة من هذا القماش الذى تُتَّخَذُ منه العمائم ، وجنيه أحمر ، لا يرضى بشىء دون ذلك . . . فإذا لم يُؤَدَّ إليه هذا كلُّه فهو لا يعرِف الأسرةَ ولا يَقْبَل منها شيئاً ، ولا صلةَ بينه وبينها ، وهو يُقْسم على ذلك بمُحْرِجات الأيمان(١) . وكان هذا اليوم يوم أربعاء ، وكان سيِّدنا قد أنبأ فى الصباح بأنَّ صاحبنا سيَختِم القرآن فى هذا اليوم . وأقبلوا فى العصر ، يمشى سيدنا متعمداً على رفيقيه ، ويمشى صاحبنا من ورائه يقوده يتيمٌ من أيتام القرية . حتى إذا بلغوا البيت دَفَع سيِّدُنا الباب دفعاً وصاح صيحته المعتادة : « يا ستَّار » ، واتَّجه إلى المَنظَرة ، فإذا فيها الشيخ قد انفتل(٢) من صلاة العصر

(١) محرجات الأيمان : الأيمان المغلظة التى توقع فى الحرج ، وهو الإثم .
(٢) انفتل : انصرف .

وهو يقرأ شيئًا من الأدعية كعادته ، فاستقبلهم مبتسماً مطمئنًّا ، وكان صوته هادئًا ، وكان صوت سيِّدنا عاليًا ، وكان صاحبنا لا يقول شيئًا ، وكان اليتيم مبتهجًا . أجلس الشيخ سيِّدنا ورفيقيه ، ووضع فى يد اليتيم قطعةً من فِضَّة ، ودعا الخادمَ وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يُصيب شيئًا من الطعام ، ومَسح على رأس ابنه وقال : « فَتَح الله عليك ! اُنْصَرِفْ إلى أُمِّك ، وقُلْ لها إنّ سيِّدنا هنا » .

وكانت أُمُّه قد سمعت صوت سيِّدنا ، وكانت قد أعدَّت له ما لا بدَّ منه فى مثل هذا الوقت ، وهو كُوزٌ ضخم طويل من السُّكّر المذاب لا شىء عليه . أُخرِج إلى سيِّدنا هذا الكُوز فعَبَّه عبًّا ، وشرب رفيقاه كوبين من السُّكَّر المذاب أيضاً ثم أُخرجت القهوةُ فشربها سيِّدنا مع الشيخ . وكان سيِّدنا يُلِحُّ على الشيخ فى أن يمتحن الصبىّ فيما حفِظ من القرآن ، وكان الشيخ يُجيب : « دَعْهُ يلعب إنه صغير » . ثم نهض سيِّدنا لينصرف ، فقال له الشيخ : « نصلِّى المغرب معاً إن شاء الله » .

وكانت هذه هى الدعوة إلى العَشاء . وما أحْسِبُ أنّ سيِّدنا نال شيئاً آخر أجراً على خَتْم صاحبنا للقرآن ؛ فقد كان يعرف الأُسرة منذ عشرين سنة ، وكان له فيها عادات غيرُ مقطوعة ، وكانت الكُلْفة بينه وبينها مرفوعة ، وكان واثقاً أن الحظَّ إن يُخْطئه معها هذه المرّةَ فلن يُخطئه مرةً أُخرى .

٦

منذ هذا اليوم أصبح صبيُّنا شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة ؛ لأنّه حفِظ القرآن ، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سِنُّه . دعاه أبوه شيخاً ، ودعته أُمّه شيخاً ، وتعوّد سيِّدنا أن يدعوه شيخاً أمام أبويه ، أو حين يرضَى عنه ، أو حين يريد أن يترضَّاه لأمر من الأمور . فأمَّا فيما عدا ذلك فقد كان يدعوه باسمه ، وربما دعاه «بالواد» . وكان شيخنا الصبيُّ قصيراً نحيفاً شاحباً زَرِيَّ الهيئة(١) على نحو مَّا ، ليس له من وَقار الشيوخ ولا من حسن طَلْعتهم حظٌّ قليلٌ أو كثير . وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذى أضافاه إلى اسمه كِبْرًا منهما وعُجباً لا تَلطُّفًا به ولا تحبُّبًا إليه . أمَّا هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أوّل الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع : كان ينتظر أن يكون شيخاً حقًّا ، فيتَّخِذَ العِمَّة ويلبَس الجُبّة والقُفْطان ، وكان من العسير إقناعُه

---

(١) زرى الهيئة : حقيرها .

بأنه أصغر من أن يحمِل العِمَّة، ومن أن يدخُل فى القُفْطان ... وكيف السبيلُ إلى إقناعه بذلك وهو شيخٌ قد حفِظ القرآن! وكيف يكون الصغير شيخاً! وكيف يكون مَنْ حفظ القرآن صغيراً! هو إذنْ مظلوم ... وأىُّ ظلمٍ أشدّ من أن يُحال بينه وبين حقّه فى العِمَّة والْجُبَّة والقفطان!..

وماهى إلا أيَّامٌ حتى سئم لقب الشيخ، وكرِه أن يُدْعَى به، وأحسَّ أنّ الحياة مملوءة بالظلم والكذب، وأنَّ الإنسان يظلمه حتى أبوه، وأنّ الأُبوّة والأُمومة لا تعصِم الأب والأُمَّ من الكذب والعبث والخداع.

ثم لم يلبَثْ شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء[1] لِلَقَب الشيخ، وإحساسٍ بما كان يملأ نفس أَبيه وأُمِّه من الغرور والعُجْب. ثم لم يلبث أن نَسِى هذا كلّه فيما نَسِى من الأشياء.

على أنه فى حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يُدْعَى شيخاً، وإنما كان خليقاً رغم حِفْظه للقرآن أن يذهب إلى الكُتَّاب كما كان يذهب، مُهْمَلَ الهيئة، على رأسه طاقيّته التى تُنَظَّف

(١) استحال إلى كذا: تحول وصار. وازدراء: احتقار.

يوماً فى الأُسبوع ، وفى رجليه حِذاء يُجَدُّ مَرَّةً فى السنة ، ولا يَدَعُه حتى لا يحتملَ شيئاً ، فإذا تركه فليمش حافياً أُسبوعاً أو أسابيع حتى يأذَنَ الله له بحذاء جديد . كان خليقاً بهذا كله؛ لأنّ حفظه للقرآن لم يدُم طويلا ... أكان وحده ملوماً فى ذلك ؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيِّدنا ؟ الحقُّ أنّ سيِّدنا أهمله حيناً وعُنِى بغيره من الذين لم يختموا القرآن . أهمله ليستريح ، وأهمله لأنه لم يتقاضَ أجراً على خَتْمه للقرآن . واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال ، وأخذ يذهب إلى الكُتَّاب يقضى فيه طَوالَ النهار فى راحة مطلقة ولعب متصل ، ينتظر أن تنتهى السَّنَةُ ويأتى أخوه الأزهرىّ من القاهرة ، حتى إذا انتهت الإجازةُ وعاد إلى القاهرة ، استصحبه لِيُصْبِحَ شيخاً حقًّا ، وليجاورَ فى الأزهر .

ومضى على هذا شهرٌ وشهر وشهر ، يذهب صاحبنا إلى الكتَّاب ويعود منه فى غير عمل ، وهو واثقٌ بأنه قد حفِظ القرآن ، وسيِّدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن ، إلى أن كان اليوم المشئوم ... كان هذا اليوم مشئوماً حقًّا ؛ ذاق فيه

صاحبنا لأوّل مرَّة مرارةَ الخِزْى والذِّلَّةِ والضَّعَة وكرهِ الحياة .
عاد من الكتّاب عصر ذلك اليوم مطمئنًّا راضياً ، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ ، فأقبل عليه ومعه صديقانِ له . فتلقّاه أبوه مبتهجًا ، وأجلسه فى رِفْق ، وسأله أسئلةً عادية ، ثم طلب إليه أن يقرأ « سورة الشعراء » .
وما هى إلا أن وقَع عليه هذا السؤالُ وَقْعَ الصاعقة ، ففكَّر وقدَّر ، وتحفَّز(١) واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وسمَّى اللهَ الرحمن الرحيم ، ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلّا أنها إحدى سُوَرٍ ثلاثٍ ، أوَّلها (طسٓم) ، فأخذ يُرَدِّد (طسٓم) مَرَّةً ومرّةً ومرّةً ، دون أن يستطيع الِانتقال إلى ما بعدها .
وفتح عليه أبوه بما يلى هذه الكلمة من سورة الشعراء ، فلم يستطيع أن يتقدَّم خطوةً . قال أبوه : فاقْرَأْ سورة النَّمْل .
فذكر أنّ أوّل سورة النَّمل كأوّل سورة الشعراء (طسٓ) ، وأخذ يردِّد هذا اللفظ . وفتح عليهِ أبوه ، فلم يستطع أن يتقدَّم خطوة أخرى . . . قال أبوه : فاقْرأْ سورة القَصَص ،

---

(١) تحفز : انتصب فى قعدته غير مطمئن ، أو استوى جالساً على وركيه .

فذكر أنها الثالثة ، وأخذ يُرَدِّد « طسم » ، ولم يفتح عليه أبوه هذه المرّة ، ولكنه قال له في هدوء : قُم ؛ فقد كنتُ أحسَبُ أنّك حَفِظتَ القرآن ، فقام خَجِلًا يَتَصَبَّبُ عَرَقاً . وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجَلِ وصِغَرِ السنِّ ، ولكنه مضى لا يدرى أيلوم نفسه لأنه نَسِىَ القرآن ، أم يلوم سيِّدنا لأنه أهمله ، أم يلوم أباه لأنه امتحنه !

ومهما يكن من شيء ، فقد أمسى هذا اليومَ شرَّ مساء ، ولم يظهَر على مائدة العَشاء ، ولم يسأل عنهُ أبوه ، ودَعَتْه أُمُّه في إعْراضٍ إلى أَن يتعشَّى معها فأبى ، فانصرفت عنه ونام .

ولكنَّ هذا المساءَ المُنْكَرَ كان في جُملته خيراً من الغد . ذهب إلى الكُتَّاب ، فإذا سيِّدُنا يدعوه في جَفْوة : ماذا حصل بالأمس ؟ وكيف عَجَزْتَ عن أَن تقرأ سورة الشعراء ؟ وهل نَسِيتها حقًّا ؟ أُتْلُها علىّ ! فأخذ صاحبنا يردِّد (طسم) . وكانت له مع سيِّدنا قِصَّةٌ كقِصّته مع أبيه . قال سيِّدنا : عَوَّضَنِى الله خيراً فيما أَنفقتُ معك من وقتٍ ، وما بذلتُ في تعليمك من جَهْدٍ ؛ فقد نَسِيتَ القرآن ، ويجب أَن تعِيدَه .

ولكنَّ الذنبَ ليس عليك ولا عَلَيّ ، وإنما هو على أبيك ؛ فلو أنه أعطانى أجرى يوم ختمتَ القرآن ، لباركَ الله له فى حِفْظك ، ولكنّه منعنى حقِّى ، فمحا الله القرآن من صَدْرك .

ثم بدأ يُقْرِئه القرآنَ من أوَّله ، شأنه مع من لم يكن شيخاً ولا حافظاً .

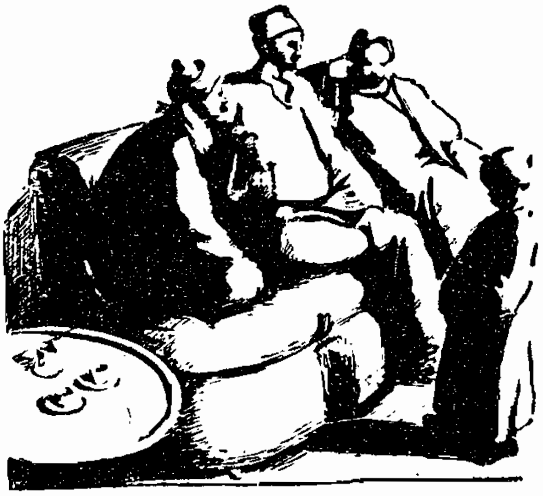

٧

وليس من شكٍّ فى أنه حفِظ القرآن بعد ذلك حفظاً جَيِّداً فى مُدَّةٍ قصيرةٍ جدًّا . فهو يذكر أنه عاد من الكتّاب ذاتَ يوم مع سيِّدنا ، وكان سيِّدنا فى هذا اليوم حريصاً على أن يعود معه ، حتى إذا وصلوا إلى الدار عَطَف عليها سيِّدنا فدفع البابَ فاندفع له ، وصاح صيحتَه المألوفة : « يا ستّار ! » وكان الشيخُ كعادته فى المَنْظرةِ قد فرَغ من صلاة العصر . فلمَّا استقرَّ سيِّدنا فى مجلسه ، قال للشيخ : « زعمت أنَّ ابنك قد نَسِيَ القرآن ، ولُمْتَنِى فى ذلك لَوْمًا شديداً ، وأقسمتُ لك أنه لم يَنْسَ وإنما خَجِل ، فكذّبتنى وعَبِثْتَ بِلِحْيَتِى هذه . وقد جئتُ اليوم لتمتحنَ ابنك أمامى ، وأنا أُقسم : لئن ظَهر أنه لايحفَظ القرآن لأحْلِقَنَّ لِحيتى هذه ، ولأُصْبِحَنَّ مَعَرَّةَ الفقهاء فى هذا البلد » . قال الشيخ : « هَوِّنْ عليك ! ومالَكَ لا تقول : إنه نَسِيَ القرآن ثم أقرأته إيّاه مَرَّةً أُخرى ! » . قال : « أُقْسِمُ

بالله ثلاثاً ما نَسِيه ولا أقرأته ، وإنما استمعتُ له القرآن ، فتلاه عليَّ كالماء الجارى ، لم يَقِفْ ولم يتردَّد » .

وكان صاحبنا يسمع هذا الحِوارَ(١) ، وكان مقتنعاً أنَّ أباه مُحِقٌّ وأنّ سيِّدنا كاذبٌ ولكنه لم يَقُلْ شيئاً ، ولَبِث منتظرًا الامتحانَ .

وكان الامتحانُ عسيراً شاقًّا ، ولكنَّ صاحبنا كان فى هذا اليوم نجيباً بارعًا ، لم يُسْأَلْ عن شىء إلا أجابَ فى غير تَرَدُّدٍ وقرأَ فى إسراع ، حتى كان الشيخ يقول له : « على مَهْلِك فإن الكَرَّ فى القرآن خطيئة » حتى إذا أَتَمَّ الامتحانَ قال له أبوه : « فَتَحَ اللهُ عليك ! اِذهَبْ إلى أمِّك فقُلْ لها إنَّكَ حَفِظتَ القرآن حقًّا » . ذهب إلى أمه ، ولكنه لم يَقُلْ لها شيئًا ، ولم تسأله هى عن شىء . وخرج سيِّدنا فى ذلك اليوم ، ومعه جُبَّةٌ من الْجُوخ خَلَعها عليه الشيخ .

---

(١) الحوار : المراجعة فى الحديث .

٨

وأقبل سيدنا إلى الكتاب من الغد مسروراً مبتهجا، فدعا الشيخ الصبي بلقب الشيخ هذه المرة قائلاً : أما اليوم فأنت تستحق أن تدعى شيخاً ؛ فقد رفعت رأسى وبيضت وجهى وشرفت لحيتى أمس ، واضطر أبوك إلى أن يعطينى الجبة . ولقد كنت تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب ، وكنت على النار مخافة أن تزل[1] أو تنحرف . وكنت أحصنك بالحى القيوم الذى لا ينام ، حتى انتهى هذا الامتحان . وأنا أعفيك اليوم من القراءة ، ولكن أريد أن آخذ عليك عهداً ، فعدنى بأن تكون وفيا . قال الصبي فى استحياء[2] : « لك على الوفاء » . قال سيدنا : فأعطنى يدك . وأخذ يد الصبى ، فما راع[3] الصبى إلا شىء فى يده غريب ، ما أحس مثله

---

(١) يزل هنا : يغلط . ويقال : زل عن الصخرة ونحوها ، إذ زلق عنها وسقط ، وعن الصواب فى منطق ، إذا انحرف .

(٢) فى استحياء : فى خجل . (٣) ما راعنى إلا كذا : أى ما شعرت إلا به .

قَطُّ ، عريضٌ يَترَجْرَجُ(١) ، مِلْؤه شَعَرٌ تغور فيه الأصابع . ذلك أنّ سيِّدنا قد وَضَع يد الصبيِّ على لِحْيته ، وقال : هذه لِحْيتى أُسَلِّمك إيّاها ، وأريد ألَّا تُهينَها ، فقُلْ : « واللهِ العظيم ثلاثًا ، وحقِّ القرآنِ المَجِيد لا أُهِينُها » . وأقسمَ الصبىُّ كما أراد سيِّدنا . حتى إذا فَرَغ من قسَمِه ، قال له سيِّدنا : كَمْ فى القُرآن من جُزْء ؟ قال : ثلاثون . قال سيِّدنا : وكَمْ نشتغلُ فى الكُتَّاب من يوم ؟ قال الصبىُّ : خمسةَ أيام . قال سيِّدنا : فإذا أردتَ أن تقرأ القرآن مَرَّةً فى كلِّ أسبوع ، فكَمْ تقرأ من جُزْءٍ كلّ يومٍ ؟ فكَّر الصبىُّ قليلاً ثم قال : سِتَّةَ أجزاء . قال سيِّدنا : فتُقْسِمُ لتَتْلُوَنَّ على العَريف سِتَّةَ أجزاءٍ من القرآن فى كلِّ يومٍ من أيَّام العمل ، ولتَكُونَنَّ هذه التلاوةُ أوّلَ ما تأتى به حين تَصِل إلى الكُتَّاب . فإذا فرغتَ منها فلا جُنَاحَ(٢) عليك أن تلهو وتلعَب ، على ألّا تَصْرِفَ الصِّبيان عن أعمالهم . أعطى الصبىُّ على نفسه هذا العَهْدَ . ودعا

---

(١) يترجرج : يضطرب .

(٢) الجناح (بضم الجيم) : الإثم .

سيِّدنا العريفَ فأخذ عليه عهداً مثله ، لَيَسْمَعَنَّ للصبيِّ في كلِّ يوم سِتَّةَ أجزاءٍ من القرآن ، وأودعه شرَفَه ، وكرامةَ لِحْيته ، ومكانةَ الكتَّاب في البلد ؛ وقبل العريف الوديعة . وانتهى هذا المَنْظَرُ وصِبْيانُ الكتَّاب ينظرُون ويَعْجَبُونَ .

من ذلك اليوم انقطعت صلة الصبيّ التعليمية « بسيِّدنا » ، واتَّصلت بالعريف . ولم يكن العريف أقلَّ غرابةً من سيِّدنا : كان شابًّا طويلًا نحيفاً أسود فاحماً ، أبوه سودانيٌّ ، وأُمُّه مولَّدة ، وكان سيّئ الحظّ ، لم يُوَفَّق فى حياته لخير ، جرَّب الأعمالَ كلّها فلم يُفْلِح فى شىء منها . أرسله أبوه عند كثير من الصُّنَّاع ليتعلَّم صنعةً فلم يُفلِح ، وحاول أن يجد له فى معمل السكَّر شُغلَ العاملِ أو الخفيرِ أو البوَّاب أو الخادم ، فلم يفلح فى شىء من هذا . وكان أبوه ضيِّق الصدر به ، يَمْقُته ويزدريه ، ويُؤْثِر[1] عليه إخوته الذين يعملون جميعاً ويكسبون . وكان قد ذهب إلى الكُتَّاب فى صِباه فتعلَّم القراءة والكتابة ، وحفِظ سُوَراً من القرآن لم يلبَثْ أن نَسِيها . فلما ضاقت به الحياة وضاق بها أقبل إلى سيِّدنا فشكا إليْه أمرَه . قال له سيِّدنا : فتعالَ هنا فكُنْ عريفًا ، عليك أن تعلم الصِّبْيانَ

---

(١) يؤثر عليه إخوته : يفضلهم عليه .

بالقراءة والكتابة ، وتلاحظهم وتمنعهم من العبث ، وتقوم مقامى متى غِبْتُ ، وعلىّ أن أقرئهم القرآن وأحفظهم إيّاه . وعليك أن تفتح الكتّاب قبل أن تطلُعَ الشمس ، وتُشرِفَ على تنظيفه قبل أن يحضُر الصبيان ، وعليك أن تُغلِقَ الكتّاب متى صُلِّيَتِ العصرُ ، وتأخذ مفتاحه . وعليك مع هذا كلّه أن تكون يدى اليمنى ، ولك رُبْعُ ما يأتى به الكتّاب من نقد ، تقتضى ذلك فى كل أُسبوع أو فى كلِّ شهر . وتمّ هذا العَقْدُ بين الرجلين وقرآ عليه الفاتحة ، وبدأ العريف عمله .

وكان العريف يُبْغِضُ سيِّدنا بُغْضًا شديداً ويزدريه ، ولكنه يُصانعه(1) . وكان سيدنا يكره العريف كرهاً عنيفاً ويحتقره ، ولكنه يتملّقه .

فأمّا العريف فكان يكرَه سيِّدنا ؛ لأنه أثِرٌ(2) غشّاشٌ كَذَّاب ، يخفِى عليه بعضَ موارد الكتّاب ، ويستأثر(3) بخير ما يحمِل الصبيان معهم من طعام . ويزدريه ؛ لأنه كان ضريراً يتكلّف الإبصار ، وكان قبيح الصوت يتكلّف حُسْنَ الصوت .

---

(1) يصانعه : يلاينه ويداريه . (2) أثر : يؤثر نفسه بالخير .
(3) استأثر بالشيء : استبد به وخص به نفسه .

وأمَّا سيدنا فكان يَكره العريف؛ لأنه مَكّارٌ داهية، ولأنه يُخْفِي عليه كثيراً مما ينبغى أن يعلمه، ولأنه سارقٌ، يسرِق ما يوضع بين يديهما من الطعام وقتَ الغداءِ ويختلس أطايبه، ولأنه يأتمر[1] مع كبار الصبيان فى الكتّاب، ويَعْبَث معهم على غفلةٍ منه، فإذا صُلِّيتِ العصرُ وأُغلق الكتّابُ كان بينه وبينهم مواعيدُ هناك عند شجر التوت أو عند «القنطرة» أو فى «معمل السكّر».

ومن غريب الأمر أنّ الرجلين كانا صادقين مُصيبين، وأنهما كانا مُضْطَرَّيْنِ إلى أن يتعاونا على كُرْهٍ ومَضَض[2]: أحدُهما محتاج إلى أن يعيش، والآخر محتاج إلى من يدبِّر له أُمور الكتّاب.

اتَّصل صبينا بالعريف، وأخذ يتلو القرآن بين يديه، سِتَّةَ أجزاءٍ فى كلِّ يوم. ولكنَّ ذلك لم يستمرَّ ثلاثة أيام. ضاق الصبىُّ بهذه التلاوة منذ اليوم الأول، وضاق العريف بها منذ اليوم الثانى، وتكاشفا[3] بهذا الضيق فى اليوم

---

(١) يأتمر معهم هنا: يتشاور معهم على عمل شىء.
(٢) المضض: الألم. (٣) تكاشفا: كشف كل منهما للآخر ما فى نفسه.

الثالث ، واتَّفقا منذ اليوم الرابع على أن يتلو الصبيّ فى سِرِّه سِتَّةَ أجزاءٍ بين يَدَيِ العريف ، حتى إذا أحسَّ اضطراباً أو غاب عنه لفظ ، سأل عنه العريف . وأخذ الصبيّ يأتى فى كلِّ يوم فيسلِّم على العريف . ويجلس على الأرض بين يديه ، ويحرِّك شفتيه مُهَمْهِماً[1] كأنه يقرأ القرآن ، ويسأل العريف من حين إلى حين عن كلمة ، فيُجيبه مَرَّةً ويتثاقل عنه مرّة أخرى . ويأتى سيِّدنا فى كلّ يوم قبيل الظهر ؛ فإذا سلّم وجلس، كان أوَّلُ عمل يأتيه أن يدعو الصبيَّ فيسأله : أقرأت ؟

— نعم .

— من أين إلى أين ؟

وكان الصبيُّ يجيب : من البقرة إلى « لَتَجِدَنَّ » فى يوم السبت ، ومن « لتجدنَّ » إلى « وما أُبَرِّئُ » فى يوم الأحد . وكذلك قسم القرآن ستة أقسام اصطلح عليها الفقهاء ، وخصَّ لكل يوم من الأيام الخمسة ، قسماً من هذه الأقسام يُخبر به سيدنا متى سأله .

---

(١) الهمهمة : الكلام الخفى .

ولـكن العريف لم يكن ليكتفى بهذا الاتّفاق الذى يريحه ويُريح الصبىَّ ، وإنما كان يطمَع فى أن يستفيد من موقف الصبىِّ بين يديه ، وكان يُنْذِر الصبىَّ من حين إلى حين ، بأنه سَيُخْبِر سيدنا ، أَنه قد وجد بعض السُّوَر « متعتعة » ، سيِّئة الحفظ عند الصبىّ ، « سورة هود » ، أو « سورة الأنبياء » ، أو « سورة الأحزاب » . وإذ كان القرآن كلُّه «متعتعاً» عند الصبى ، لأنه أهمل قراءته منذ أشهر ، فقد كان يكرَه أن يمتحنه سيِّدنا ، ويشترى صمت العريف بكلِّ شىء . وكَمْ دفع إلى العريف ما كان يملأ جيبه من خبز أو فطير أو تمر ! وكم دفع إليه هذا القرش الذى كان يُعطيه إياه أبوه من حين إلى حين ، والذى كان يُريد أن يشترى به أقراص النَّعْناع ! وكم احتال على أُمِّه ، ليأخذ منها قطعةً ضخمة من السُّكَّر ، حتى إذا وصل إلى الكتَّاب دفعها إلى العريف ، وإنه لَيشتهيها كلَّها أو بعضَها ، فيأخذها العريف ويدعو بالماء يغمِس فيه السكَّر ، ثم يَمُصُّه مَصًّا شديداً ، ثم يزدرد السكَّر وقد ذاب أو كاد ! . . وكم نزل عن طعامه الذى كان يُحْمَل إليه من البيت

ظُهْرَ كلِّ يوم، وإنه لشديد الجوع ، ليأكل العريف مكانه ؛ لئَلَّا يخبر سيدنا بأنّ القرآن عنده « متعتع » . . .

على أنَّ هذه الصِّلات المستمرَّة لم تلبث أن ضَمِنَتْ له مودَّة العريف ؛ فقد اتَّخذه العريف صديقاً ، وأخذ يستصحبه إلى الجامع بعد الغداء ليصلِّي معه الظهر ، ثم أخذ يعتمد عليه ، ويَثِقُ به ، ويطلب إليه أن يُقْرِئ القرآن بعضَ الصبيان ، أو يَسْمَعَه من بعض الذين أخذوا يُعيدون ويحفظون . وهنا كان صاحبنا يسلُك مع تلاميذه مَسْلَكَ العريف معه بالدِّقَّة : كان يُجْلِس الصبيان بين يديه ، ويأخذهم بالتلاوة ، ثم يتشاغل عنهم بالحديث مع أترابه ، حتى إذا فرَغ من حديثه ، التفت إليهم ، فإذا آنس منهم عبثاً أو إبطاءً أو اضطراباً ، فالنَّذير ، ثم الشتم ، ثم الضرب ، ثم إخبار العريف . والحقُّ أنه لم يكن أحسنَ حفظاً للقرآن من تلاميذه ولكنَّ العريف قد اتَّخذ معه هذه الخطّة ، فيجب أن يكون هو عريفاً حقًّا . وإذا كان العريف لا يَشْتِمُهُ ولا يضرِبه ولا يرفَع أمرَه إلى سيِّدنا ، فذلك لأنه يدفع ثمن ذلك كلِّه غالياً . وقد فهم الصِّبيانُ هذا

فأخذوا يدفعون له الثمن غالياً أيضاً ، وأخذ هو يستردّ بالرشوة ما كان يدفع إلى العريف . على أن رِشْوَته كانت متنوِّعة ؛ فلم يكن محروماً فى بيته ، ولم يكن فى حاجة إلى الخبز ولا إلى التمر ولا إلى السكَّر ، ولم يكن يستطيع أن يَقْبَل «الفلوس» . وماذا يصنع بالفلوس وهو لا يستطيع أن يُنفقها وحده ! فهو إن قَبِلها دلّ على نفسه وافتضح أمرُه . وإذن فقد كان عسيراً ، وكان إرضاؤه شاقًّا . وكان الصبيان يتفنَّنون فى إرضائه ، فيشترون له أقراص النعناع و « السكَّر النَّبات » و « اللُّبّ » و « الفول السودانى » ، وكان يتفضَّل بكثير من ذلك على العريف .

ولكنَّ لوناً من الرشوة خاصًّا كان يُعجبه ويَفْتِنه ، ويُشَجِّعه على أن يُهمل واجبه أشنع إهمال ، وهذا اللون هو القصص والحكايات والكتب . فإذا استطاع الصبي أن يقصّ عليه أُحدوثةً ، أو يشترى كتاباً من هذا الرجل الذى يتنقَّل بالكُتُب فى قُرَى الريف ، أو يتلو عليه فصلاً من قصة « الزير سالم » أو « أبى زيد » ، فهو واثقٌ بما شاء من رضاه ورِفْقِه ومُحاباته . وكان أمهرُ تلاميذه فى هذه ، صَبِيَّةً مكْفوفَةَ

البصر ، يقال لها نفيسة . أرسلها أهلُها إلى الكتّاب لتحفَظ القرآن ، فحفظته وأتقنتْ حفظه ، ووَكَلها[1] سيّدنا إلى العريف ، ووَكَلها العريف إلى صاحبنا ، وأخذ صاحبنا يسلُك معها مسلك العريف معه . وكان أهلُ هذه الفتاة أغنياء ، ولكنهم من المُحْدَثين . كان أبوها حمّاراً ، ثم أصبح تاجراً مُثْرِياً ، وكان يُنفق على أهله من غير حساب ، ويُسْبِغ[2] عليهم سَعَةً غريبة من العيش . فلم تكن تنقطع الفلوس من يد نفيسة . وكانت أقدرَ الصبيان على تخيُّرِ الرِّشَا ، ثم كانت أحفظَهم للقصص ، وأقدرَهم على الاختراع ، وأحفظَهم لألوان الغِناء المُفْرِح و « التعديد » المبكي ، وكانت تُحسن الغناء والتعديد معاً . وكانت غريبةَ الأطوار ، في عقلها شيءٌ مِنَ الاضطراب ؛ فكانت تُلهي صاحبنا أكثرَ وقته بحديثها وتعديدها وأقاصيصها وألوان رشوتها . وبينما كان صاحبنا يرشو ويرتشي ، ويَخْدَعُ ويُخْدَعُ ، كان القرآن يَمَّحِي من صدره آيةً آيةً ، وسورةً سورةً ، حتى اليوم المحتوم . . . ويا لَه من يوم ! . . .

---

(١) وكلها إليه : تركها له وجعل أمرها إليه . (٢) أي يضفيها عليهم ويوسعها .

١٠

كان يومَ الأربعاء ، وكان صاحبُنا قد قضاه فَرِحًا مسروراً . زعم لسيِّدنا أوَّل النهار أنه قد أتمَّ الختمة ، ثم فَرَغ بعد ذلك لِاستماع القصص والأحاديث ، وعَبَثِ آخر النهار .

فلما انصرف من الكتَّاب لم يذهب إلى البيت ، وإنما ذهب مع جماعةٍ من أصحابه إلى الجامع ليصلِّي العصر . وكان يحبُّ الذَّهاب إلى الجامع ، والصعود فى المنارة ، والِاشتراكَ مع المؤذِّن فى التسليم (وهو النداء الذى يلى الأذان الشرعى) .

ذهب فى ذلك اليوم وصَعِد فى المنارة ، واشترك فى الأذان وصلَّى . وأَراد أن يعود إلى البيت ، ولكنه افتقد نَعْله فلم يجدها كان قد وضعها إلى جانب المنارة ، فلما فرغ من الصلاة ذهب يلتمسها فإذا هى قد سُرِقتْ . أَحزنه ذلك بعضَ الشىء ، ولكنه كان فَرِحًا مبتهجاً هذا اليوم ، فلم يجزَع ولم يُقَدِّر للأمر عاقبة ، وعاد إلى البيت حافياً . وما كان أبعدَ المسافةَ بين البيت

والجامع ! ولكن ذلك لم يَرُعْه[1] ، فكثيراً ما مشى حافياً .

دخل البيت ، وإذا الشيخُ فى المنْظَرةِ كعادته يدعوه : وأين نعلاك ؟ فيجيب : نَسِيتُهما فى الكتَّاب . فلا يحفِل الشيخ بهذا الجواب ، ثم يُهمل الصبىّ حيناً ريثما يدخل فيتحدَّث إلى أُمّه وإخوته قليلًا ، ويأكل كِسرةً من الخبز ، كان من عادته أن يأكلها متى عاد من الكُتَّاب ، ثم يدعوه الشيخ ، فيُسرع إلى إجابته . فإذا استقرَّ به مكانه ، قال له أبوه : ماذا تلوتَ اليوم من القرآن ؟ فيُجيب : ختَمْتُه وتلوتُ الأجزاءَ الستّةَ الأخيرة . قال الشيخ : وما زِلتَ تحْفَظُهُ حفظاً جيداً ؟ قال نعم . قال الشيخ : فاقْرَأْ لى سورة سَبأ . وكان صاحبنا قد نَسِي سورة سبأ ، كما نسى غيرها من السُّوَر ، فلم يفتحِ الله عليه بحرف . قال الشيخ : فاقْرَأْ سورة فاطر ، فلم يفتح الله عليه بحرف . قال الشيخ فى هدوء وسخرية : وقد زعمتَ أنك ما زلتَ تحفظ القرآن ! فاقرأ سورة يس . ففتح الله عليه بالآيات الأولى من هذه السورة ، ولكنّ لسانه لم يلبث أن

---

(١) لم يرعه : لم يفزعه ولم يخفه .

انعقد ، وريقه لم يلبث أن جَفَّ ، وأخذته رِعْدةٌ مُنْكَرَةٌ تصبَّب عَلَى أثرها فى وجهه عَرَقٌ بارد . قال الشيخ فى هدوء : قُمْ واجتهد فى أن تنسَى نعليك كلَّ يوم ، فما أرى إلا أنك أضعتهما كما أضعتَ القرآن ، ولكنَّ لى مع سيِّدك شأناً آخر .

خرج صاحبنا من المنظرة مُنَكَّسَ الرأس مضطرباً يتعثَّر ، ومضى فى طريقه حتى وصل إلى الكَرَار (والكَرَار : حجرة فى البيت كانت تُدَّخَرُ فيها ألوان الطعام ، وكان يُرَبَّى فيها الحمام) ، وكانت فى زاوية من زواياها القُرْمة (وهى قطعة ضخمة عريضة من الخَشَب كأنَّها جِذْعُ شجرة) كانت أُمُّه تقطع عليها اللحم . وكانَتْ تَدَعُ عَلَى هذه القرمة طائفة من السكاكين ، منها الطويل ، ومنها القصير ، ومنها الثقيل ، ومنها الخفيف .

مضى صاحبنا حتى وصل إلى الكرار ، وانعطف إلى الزاوية التى فيها القُرْمة ، وأهوى إلى الساطور ، وهو أغلظُ ما كان عليها من سِكِّينٍ وأَحدُّه وأثقلُه ، فأخذه بيمناه وأهوى به إلى قفاه ضرباً ! ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه .

وأسرعت أُمُّه إليه، وكانت قريبة منه لم تَحْفِل به حينما مرَّ بها، فإذا هو واقفٌ يضطرب والدم يسيل من قفاه، والساطور مُلْقًى إلى جانبه ... وما أَسْرَعَ ما أَلْقَتْ أُمُّه نظرةً إلى الْجُرْح! وما أسرع ما عرفتْ أنه ليس شيئًا! وما هى إلَّا أنِ انهالت عليه شتمًا وتأنيبًا، ثم جذبته من إحدى يديه حتى انتهت به إلى زاوية من زوايا المطبخ فألقته فيها إلقاءً، وانصرفت إلى عملها. ولبث صاحبنا فى مكانه لا يتحرَّك ولا يتكلَّم ولا يبكى ولا يفكر كأنه لاشىء، وإخوته وأخواته من حوله يضطربون ويلعبون، لا يحفِلون به ولا يلتفت هو إليهم.

وقَرُبتِ المغرب، وإذا هو يُدْعَى ليجيب أباه، فخرج خزْيانَ متعثِّرًا حتى انتهى إلى المنظرة. فلم يسأله أبوه عن شىءٍ، وإنما ابتدره سيِّدنا بهذا السؤال: ألم تقرأْ علىّ اليومَ الأجزاء الستَّة من القرآن؟ قال بلى. قال: ألم تقرأْ علىَّ أمس سورةَ سبأ؟ قال بلى. قال: فما بالُك لم تستطع أن تقرأها اليوم؟ فلم يجِبْ. قال سيِّدنا: فاقْرَأْ سورة سبأ، فلم يَفْتَحِ الله عليه منها بحرف. قال أبوه: فاقرأ السَّجْدة، فلم يحْسِنْ شيئًا. هنا اشتدَّ

غضب الشيخ ، ولكن على سيِّدنا لا على الصبيِّ قال : وإذن فهو يذهب إلى الكتَّاب لا ليقرأ ولا ليحفظ ، ولا لتُعْنَى به أو تلتفت إليه ، وإنما هو لَعِبٌ وعَبَثٌ ! ولقد عاد اليوم حافياً، وزعم أنه نَسِي نعليه فى الكتَّاب . . وما أظنّ عنايتك بحفظه للقرآن ، إلا كعنايتك بمشيه حافياً أو ناعلًا . . . .

قال سيِّدنا : أُقْسِمُ بالله العظيم ثلاثاً ما أهملته يوماً . ولولا أنِّى خرجتُ اليوم من الكتَّاب قبل انصراف الصبيان لَما رجع حافياً . وإنه ليقرأ علىّ القرآن مرّةً فى كلِّ أُسبوع : ستّة أجزاء فى كلِّ يوم ، أسمعها منهُ متى وصلتُ فى الصباح . قال الشيخ : لا أُصدِّقُ من هذا شيئاً . قال سيِّدنا : امرأتى طالقٌ ثلاثاً ما كَذَبْتُكَ قطُّ ، وما أنا بكاذبٍ الآن ، وإنى لأسمع له القرآن مرّةً فى كل أُسبوع . قال الشيخ : لا أُصدِّق . قال سيِّدنا : أفتظنُّ أنَّ ما تدفَع إلىّ فى كل شَهر أحَبُّ إلىَّ من امرأتى ؟ أم تظنّ أنِّى فى سبيل ما تدفَع إلىّ أستحلُّ الحرام وأعيش مع امرأةٍ طلَّقتها ثلاثاً بين يديك ؟ قال الشيخ : ذلك شىءٌ لا شأن لى به ، ولكنَّ هذا الصبىّ لن يذهب إلى

الكتّاب منذ غد . ثم نَهَض فانصرَف ، ونهض سيِّدنا فانصرَف كئيباً محزوناً . وظلّ صاحبنا فى مكانه لا يفكِّر فى القرآن ولا فيما كان ، وإنما يفكِّر فى مَقْدِرة سيِّدنا على الكذب ، وفى هذا الطلاق المثلَّث الذى ألقاه كما يُلْقِى سيجارتَه متى فرغ من تدخينها !

ولم يَظْهَرِ الصبىُّ فى هذه الليلة على المائدة ، ومكث ثلاثة أيام يتجنَّب مجلس أبيه ويتجنّب المائدة . حتى إذا كان اليومُ الرابع دخل أبوه عليه فى المطبخ حيث كان يحبّ أن ينزوى إلى جانب الفُرْن ؛ فما زال يكلِّمه فى دُعابة وعَطْف ورِفْق حتى أنِسَ الصبىُّ إليه ، وانطلق وجهه بعد عُبوسه . وأخذه أبوه بيده فأجلسه مكانَه من المائدة ، وعُنِى به أثناء الغَداء عناية خاصَّة . حتى إذا فرغ الصبىُّ من طعامه ونَهَض لينصرف ، قال أبوه هذه الجملة فى مُزاحٍ قاسٍ لم يَنْسَه قَطُّ ، لأنه أَضحك منه إخوته جميعاً ، ولأنهم حفِظوها له ، وأَخذوا يَغيظونَه بها من حين إلى حين — قال له : « أَحَفِظْتَ القرآن ؟ »

١١

وانقطع الصبيّ عَنِ الكُتَّاب ، وانقطع سيِّدنا عنِ البيت والتمس الشيخُ فقيهاً آخر يختلف إلى[1] البيت فى كلِّ يوم ، فيتلو فيه سورة من القرآن مكانَ سيِّدنا ، ويُقرِئ الصبيَّ ساعةً أو ساعتين . وظَلَّ الصبيُّ حُرًّا يعبَث ويلعَب فى البيت متى انصرف عنه الفقيه الجديد . حتى إذا كان العصر أَقبل عليه أصحابه ورِفاقه مُنْصَرَفَهم[2] من الكُتَّاب . فيَقُصُّون عليه ما كان فى الكتّاب ، وهو يلهو بذلك ويعبَث بهم وبكُتّابهم وبسيِّدنا وبالعريف . وكان قد خُيِّل إليه أنَّ الأمر قَدِ انبتَّ[3] بينه وبين الكتّاب ومَنْ فيه ، فلن يعودَ إليه ، ولن يرى الفقيه ولا العريف . فأطلق لسانَه فى الرجلين إطلاقاً شنيعاً ، وأخذ يُظْهِرُ من عيوبهما وسيئاتهما ما كان يُخفيه ، وأخذ

---

(١) يختلف إلى البيت : يتردد عليه . (٢) منصرفهم : وقت انصرافهم .
(٣) انبت : انقطع .

يَلْعَنهما أمام الصبيان ويَصِفُهما بالكذِب والسَّرِقة والطمَع ، ويتحدَّث عنهما بأشياءَ مُنْكَرَةٍ ، كان يجد فى التحدُّث بها شفاءً لنفسه ، ولذَّةً لهؤلاء الصبيان . وما له لا يُطلِقُ لسانه فى الرجلين ، وليس بينه وبين السَّفَر إلى القاهرة إلَّا شهرٌ واحد ؟ فسيعود أخوه الأزهرىُّ من القاهرة بعد أيام ؛ حتى إذا قضى إجازتَه استصحبه إلى الأزهر ، حيث يُصْبِحُ مجاوراً ، وحيث تنقطع عنه أخبار الفقيه والعريف .

الحقُّ أَنه كانَ سعيداً فى هذه الأيام ، كان يشعُر بشىءٍ من التفوُّق على رفاقه وأترابه ؛ فهو لا يذهب إلى الكُتّاب كما يذهبون ، وإنما يسعى إليه الفقيه سعياً ، وسيسافر إلى القاهرة حيث الأزهر ، وحيث « سيِّدنا الحسين » ، وحيث « السيِّدة زينب » وغيرهما من الأولياءِ . وما كانتِ القاهرة عنده شيئًا آخر ، إنّما كانت مُسْتَقَرَّ الأزهر ومَشَاهِدَ الأولياءِ والصالحين .

ولكنَّ هذه السعادة لم تَدُمْ إلَّا ريثما يَعْقُبُها شقاءٌ شنيع ؛ ذلك أنّ سيِّدنا لم يُطِقْ صبراً على هذه القطيعة ، ولم يستطع

أن يحتمل انتصار الشيخ عبد الجوّاد عليه ، فأخذ يتوسَّل بفلان وفلان إلى الشيخ . وما هى إلا أن لانتْ قناةُ[1] الشيخ ، وأمر الصبيَّ بالعودة إلى الكتّاب متى أصبح . عاد كارهًا مقدِّراً ما سيلقاه من سيِّدنا وهو يُقرئه القرآن للمرة الثالثة . ولكنَّ الأمر لم يَقِفْ عند هذا الحدِّ ؛ فقد كان الصبيان يَنْقُلون إلى الفقيه والعريف كلَّ ما يسمعون من صاحبهم . ولله أوقاتُ الغَداء طَوَالَ هذا الأسبوع ، وما كان سيِّدنا ينال به الصبيَّ من لوم ، وما كان العريف يُعيد عليه من ألفاظه ، تلك التى كان يُطْلِقُ بها لسانَهُ مقدِّراً أنه لن يرى الرجلين !

فى هذا الأُسبوع تعلَّم الصَّبىُّ الِاحتياطَ فى اللَّفْظ ، وتعلم أنَّ من الخَطَل والحُمق[2] الِاطمئنانَ إلى وعيد الرجال، وما يأخذون أنفسَهم به من عَهدٍ . ألم يَكُنِ الشيخُ قد أَقسم لا يعود الصبىُّ إلى الكُتَّاب أبداً وها هو ذا قد عاد ! وأىُّ فَرْق بين الشيخ يُقْسم ويحْنَثُ ، وبين سَيِّدنا يُرْسِلُ الطلَاقَ والأَيمانَ إرسالًا وهو يعلم أنه كاذب ؟ وهؤلاء الصِّبْيانُ يتحدَّثون إليه، فيَشْتُمون

---

(١) لين القناة هنا : كناية عن الرضا .

(٢) الخطل والحمق : قلة العقل وفساده .

له الفقيه والعَريف ، ويُغْرُونه[1] بشَتْمهما ، حتَّى إذا ظَفِروا منه بذلك ، تقرَّبوا به إلى الرَّجُلَيْنِ ، وابْتَغَوا[2] به إليهما الوسيلةَ . وهذه أُمّه تَضْحَك منه ، وتُغْرِى به سَيِّدَنا حين أقبل يَتَحَدَّثُ إليها بما نَقَل إليه الصِّبْيان . وهؤلاء إخْوَتُه يَشْمَتون به ، ويُعيدون عليه مقالةَ سَيِّدِنا من حينٍ إلى حينٍ ، يَغيظُونه ويُثيرون سَخَطَه . ولكنّه كان يحتمل هذا كلَّه فى صَبْرٍ وجَلَدٍ. وما له لا يَصْبرُ ولا يتجلّد وليس بينه وبين فِراق هذه البِيئة[3] كلِّها إلا شهرٌ أو بعضُ شهر !

---

(١) أغراه به : أولعه به وحضه عليه . (٢) ابتغوا : طلبوا . والوسيلة : ما يقرب به إلى الغير . (٣) البيئة : (بالكسر) : اسم من تبوأ المكان إذا حله . ويراد بها المكان الذى يأويه الإنسان وكل ما يحيط به فيه .

١٢

ولـكنَّ الشهرَ مَضَى ، ورَجَع الأزهرىّ إلى القاهرة ، وظلَّ صاحبنا حيث هو كما هو ، لم يُسافر إلى الأزهر ، ولم يتَّخِذِ العِمَّةَ ، ولم يَدْخُل فى جُبَّة أو قفطان .

كان لا يزال صغيراً ، ولم يكن من اليسير إرسالُه إلى القاهرة ، ولم يكن أخوه يحبُّ أن يحتمله ، فأشار بأنْ يبقَى حيث هو سنةً أُخرى ، فَبقِىَ ولم يَحْفِلْ أحدٌ برضاه أوغضبه .

على أنّ حياته تغيّرتْ بعضَ الشىء ؛ فقد أشار أَخوه الأزهرىّ بأَن يقضى هذه السنةَ فى الِاستعداد للأزهر ، ودفع إليه كتابين يحفَظ أحدَهما جملة ، وَيَسْتظْهِرُ منْ الآخر صُحفاً مختلفة .

فأمَّا الـكتاب الذى لم يكن بُدٌّ من حِفْظِه كلِّه فألْفِيَّةُ ابن مالك. وأمَّا الـكتاب الآخَر فمجموعُ المتُون . وأوصى الأزهرىُّ قبل سفره بأن يبدأ بحفظ الألْفِيّة ، حتى إذا فرَغ منها وأتقنها

إتقانًا ، حفِظ من الكتاب الآخر أشياءَ غريبةً ، بعضُها يسَمَّى الجَوْهَرةَ ، وبَعْضُها يسمَّى الخرِيدةَ ، وبعضُها يسمَّى السِّراجِيَة ، وبعضها يسمى الرَّحَبِيَّة . وبعضها يسمى لامِيَّةَ الأفعال . وكانت هذه الأسماء تقع من نفس الصبيِّ مواقعَ تِيهٍ وإعجاب ؛ لأنه لا يفهم لها معنًى ، ولأنه يُقَدِّر أنها تدلُّ على العلم ، ولأنه يعلم أنَّ أخاه الأزهريَّ قد حَفِظَها وفَهِمها ، فأصبح عالمًا ، وظفِر بهذه المكانة الممتازة فى نفس أبويه وإخوته وأهل القرية جميعاً . ألم يكونوا جميعًا يتحدَّثون بعَوْدته قبل أن يعود بشهر ، حتى إذا جاء أقبلوا إليه فرِحينَ مبتهجين متلطِّفين ! ألم يَكُنِ الشيخ يشرب كلامه شُرْبًا ، ويُعيده على الناس فى إعجاب وفخار ! ألم يكن أهلُ القرية يتوسّلون إليه أن يقرأ لهم درسًا فى التوحيد أو الفقه ! وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل إليه ، مُلِحًّا مستعطفاً مسرفًا فى الوعد ، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأمانىّ ، لِيُلْقِيَ على الناس خُطْبَةَ الجمعة ! ثم هذا اليوم المشهود يوم مولد النبىّ ، ماذا لَقِيَ الأزهرىُّ من إكرامٍ وحفاوةٍ ، ومن

تَجِلّةٍ وإكبارٍ! كانوا قد اشتَرَوْا له قفطانًا جديداً، وجُبَّة جديدة، وطربوشًا جديداً، و «مركوبًا» جديداً. وكانو يتحدَّثون بهذا اليوم وماسيكون فيه قبل أن يُظلّهم[1] بأيام. حتى إذا أقبل هذا اليومُ وانتصف، أسرعتِ الأُسرة إلى طَعامها فلم تُصِبْ منه إلا قليلا، ولبس الفتى الأزهريُّ ثيابَه الجديدة، واتّخذ فى هذا اليوم عِمامة خضراءَ، وألقى على كتفيه شالاً من الـكَشْمير، وأُمُّه تدعو وتتلو التعاويذ، وأبوه يخرج ويدخل جَذْلانَ مضطربا. حتى إذا تَمَّ للفتى من زِيِّه وهَيْئته ما كان يُريد، خرج فإذا فرسٌ ينتظره بالباب، وإذا رجالٌ يحملونه فيضعونه على السَّرْج، وإذاقومٌ يَكْتَنِفُونه[2] من يمينٍ ومن شمال، وآخرون يَسْعَوْنَ بين يديه، وآخرون يمشُون من خَلْفه، وإذا البنادق تُطْلَقُ فى الفضاء وإذا النساء يُزَغرِدْنَ من كلِّ ناحية، وإذا الجوُّ يتأرَّج[3] بعَرْف البخُور، وإذا الأصوات ترتفع متغنِّية بمدح النبيِّ، وإذا هذا الحَفْل كله يتحرّك فى بُطْء وكأنما تتحرك

(١) يظلهم : يأتيهم ويغشاهم .
(٢) يكتنفونه : يحيطون به من كل جانب .
(٣) تأرج الجو والمكان : فاحت فيه رائحة طيبة ذكية . والعرف : الرائحة .

معه الأرض وما عليها من دُور . كلُّ ذلك لأنَّ هذا الفتى الأزْهرىَّ قد اتُّخِذ فى اليوم خليفة ، فهو يُطاف به فى المدينة وما حولها من القُرَى فى هذا المهْرَجانِ الباهر . وما بالُه اتُّخذ خليفة دون غيره من الشُّبانِ ؟ لأنه أزهرى قد قرأ العلم وحفظ الألْفِيَّةَ والجوهرة والخريدة ! فلِمَ لا يبتهجُ الصبىُّ حين يرى أنْ سَيَقْرَأ من العلم ما قرأ أخوه ، وأن سيمتاز من رِفاقه وأترابه بحفظ الألفيَّة والجوهرة والخريدة ؟ !

وكم كان فَرِحاً مختالا حين غدا إلى الكُتَّاب يوم السبت وفى يده نسخةٌ من «الألفيَّة» ! لقد رفعته هذه النسخةُ درَجات ، وإن كانت هـذه النسخة ضئيلةً قَذِرةً سيئة الجِلْد ، ولكنَّها على ضآلتها وقَذارتها ، كانت تعدِل عنده خمسين مُصْحَفاً من هذه المصاحف التى كان يحملها أترابه .

المصحف ! لقد حفِظ ما فيه فما أفاد من حفظه شيئًا . وكثير من الشبَّان يحفَظونه فلا يحفِل بهم أحدٌ ، ولا يُنْتَخبُون خلفاءَ يوم المولد النبوىّ . . .

ولكن الألفيَّة ! .. وما أدراك ما الألفيَّة ! وحَسْبُكَ أنَّ

سيِّدنا لا يحفَظ منها حرفاً ، وحَسْبُكَ أَنَّ العريف لا يُحْسِنُ أن يقرأ الأبيات الأولى منها . والألفيَّة شِعْرٌ ، وليس فى المصحف شعر.

الحقّ أنه ابتهج بهذا البيت :

قال محمدٌ هو ابنُ مالكِ   أَحْمَدُ رَبِّى اللهَ خَيْرَ مالكِ

ابتهاجًا لم يشعُر بشىء مثله أمام أيِّ سورة من سور القرآن .

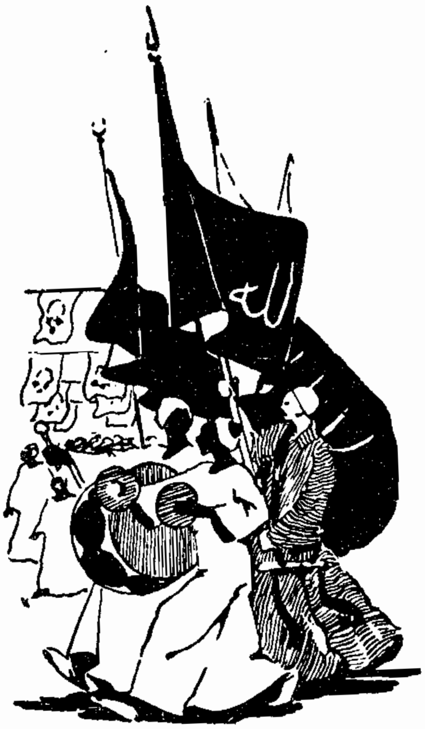

١٣

وكيف لا يبتهج وقد أحسَّ منذ اليوم الأوَّل أنه ارتفع درجات ؛ أصبح « سيِّدنا » لا يستطيع أن يُشْرِفَ على حفظه للألفيَّة ولا أن يُقرِئه إيَّاها ، بل ضاق الكُتَّاب كله بالألفيَّة .

وكُلِّفَ الصبيُّ أن يذهب فى كلِّ يومٍ إلى المحكمة الشرعية ؛ ليقرأ على القاضى ما يريد أن يحفَظه من الألفيَّة . القاضى عالمٌ من علماء الأزهر ، أكبرُ من أخيه الأزهرىّ ، وإن كان أبوه لا يُؤْمِن بذلك ، ولا يرى أَنَّ القاضى يُكافِئ ابنه . وهو على كلِّ حال عالمٌ من علماء الأزهر ، وهو قاضى الشَّرْع (بقاف ضخمة وراء مفخَّمة) . وهو فى المحكمة لا فى الكُتَّاب . وهو يجلس على دَكة مرتفعة ، وقد وُضِعَتْ عليها الطَّنَافِس والوسائد ، لا تُقاسُ إليها دَكَّة سيدنا ، وليس حولها نِعالٌ مُرَقَّعة ، وعلى بابه رجلان يقومان مقامَ الحاجب ويسمِّيهما الناس هذا الِاسْمَ البديع ، الذى لم يكن يخلو من هيبة : « الرُّسُل » .

نعم ! كان يجب على الصبيِّ أن يذهب إلى المحكمة فى كل صباح ، فيقرأَ على القاضى باباً من أبواب الألفية . وكم كان القاضى يحْسِن القراءة ! وكم كان يملأ فَمَه بالقاف والراء ! وكم كان صوتهُ يتهدَّج(١) بقول ابن مالك :

كلامُنا لفظٌ مُفيدٌ كاستَقِمْ ✿ واسْمٌ وفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ
وَاحِدُه كلمةٌ والقوْلُ عَمّ ✿ وكِلْمةٌ بها كلامٌ قد يُؤَمّْ

ولقدِ استطاع القاضى أن يُؤَثِّر فى نفس الصبىِّ ، ويملأه تواضعاً حين قرأَ هذه الأبيات :

وتَقتَضِى رِضاً بغير سُخْطٍ ✿ فائقةً أَلفِيَّةَ ابنِ مُعْطِى
وهْوَ بِسَبْقٍ حائزٌ تَفضِيلاَ ✿ مُسْتَوجِبٌ ثَنائِىَ الجميلاَ
واللهُ يَقْضِى بِهِباتٍ وَافرهْ ✿ لِى ولَهُ فى دَرجاتِ الآخِرَهْ

قرأ القاضى هذه الأبيات بصوت يحطمه البكاء حطما ، ثم قال للصبىّ : مَنْ تواضع لله رفعه ، أتفهم هذه الأبيات ؟ قال الصبىُّ لا . قال القاضى : إنّ المؤلِّف رحمه الله تعالى ، عند ما بدأ فى نَظْم أَلفِيَّته اغترَّ وأخذه الكِبْر فقال : « فائقة ألفية ابن معطى » . فلمَّا كان الليلُ رأَى فيما يرى النائم . أنَّ

---

(١) تهدج صوته : تقطع فى ارتعاش .

ابن معظٍ قد أقبل يُعاتبه عتاباً شديداً . فلمَّا أفاق من نومه أصلَح من الغُرور وقال : « وهو بسبق حائز تفضيلا » .

وكم كان الشيخ مبتهجاً فَرِحًا حين عاد إليه الصبيُّ عصرَ ذلك اليوم ، فقصَّ عليه ما سمع من القاضى ، وقرأ عليه الأبياتَ الأولى من الألفيَّة ! فكان يقطع هذه الأبيات بهذه الكلمة التى يعبِّر بها الناس عن الاِسْتحسان : « الله ! الله ! » .

على أنّ لكلِّ شىء حدًّا ؛ فقد مضى صاحبنا فى حفظ الألفيَّة فَرِحاً مبتهجاً حتى انتهى إلى باب المبتدأ ، ثم فَتَرتْ هِمَّتُه . وكان أبوه يسأله عصرَ كلَّ يوم : هل ذهبتَ إلى المحكمة ؟ فيجيب : نعم . فكم حفظت ؟ فيقرأ له ما حفِظ .

ولكنَّ الأمر ثَقُل عليه منذ باب المبتدأ ، فأخذ يحفَظ ويذهب إلى المحكمة متثاقلاً متباطئاً ، حتى وصل إلى باب المفعول المُطْلَق ، ثم لم يستطع أن يتقدَّم خُطْوةً قصيرةً ولا طويلة . ولبث يذهب إلى المحكمة فى كلِّ يوم ، ويقرأ على القاضى فصلاً من فصول الألفيّة ، حتى إذا عاد إلى

الكتّاب ألقى الألفيَّة في ناحيــة ، وانصرف إلى عَبَثه ولَعِبه ، وإلى قراءة القصص والأحاديث .

فإذا كان العصرُ وسأله أبوه : هل ذهبتَ إلى المحكمة ؟ أَجاب : نعم .

— وكم حفِظتَ من بيت ؟

— أجاب : عشرين .

— من أيّ باب ؟

— من باب الإضافة ، أو من باب النَّعْت ، أو من باب جمع التكسير .

فإذا قال له : اقرأْ عليَّ ما حفظت ، قرأَ عليه عشرين بيتاً من المائتين الأولين ، مرَّةً من المُعْرَب والمَبْنِيِّ ، وأخرى من النّكِرَة والمَعْرِفة ، وثالثةً من المبتدأ والخبر ، والشيخ لا يفهم شيئاً ، ولا يُلاحظ أنَّ ابنه يخدَعه ؛ وإنما يكتفى بأن يسمع كلاماً منظوماً ، وهو مطمئن إلى القاضى . ومن غريب الأمر أنَّ الشيخ لم يفكِّر مرَّة واحدة فى أن يَفْتحَ الألفيَّة ، ويُقابلَ على الصبيِّ وهو يقرأ . ولو قد فعل يوماً من الأيَّام ، لكانت

للصبيِّ قصةٌ كقصته مع سورة الشعراء ، أو سبأ ، أو فاطر . .

على أنّ الصبيَّ تعرَّض لهذا الخطر مرَّةً . ولولا أنَّ أُمَّه شَفَعَتْ فيه لـكان له مع أبيه موقفٌ مشهود .

كان له أخ يختلف إلى المدارس المدنيَّة ، فعاد من القاهرة ليقضى فصلَ الصيف . واتَّفق أنه حضر هذا الامتحان اليومىَّ أياماً متَّصلة ؛ فسمِع الشيخَ يسأل الصبىَّ : أىَّ بابٍ قرأتَ ؟ فيُجيب الصبى : بابَ العَطْف مثلًا . فإذا طَلب إليه أن يُعيد ما قرأ ، أعاد عليه باب العَلَم أو باب الصِّلةِ والموصول .

سكت الشابُّ فى أوَّل يوم وفى اليوم الذى يليه . فلمَّا كثُر ذلك انتظر حتى انصرف الشيخ ، وقال للصبىِّ أمام أُمِّه : إنّك تخدع أباك وتكذِب عليه ، وتلعَب فى الكتَّاب ، ولا تحفَظ من الألفيَّة شيئاً . . . . قال الصبىُّ : إنَّك كاذب ! وما أنت وذاك ؟ وإنما الألفيَّة للأزهريين لا لأبناء المدارس ! وسَلِ القاضىَ يُنبئْك بأنِّى أذهب إلى المحكمة فى كلِّ يوم . قال الشابُّ : أىَّ باب حفظتَ اليوم ؟ قال الصبىُّ : بابَ كذا . قال الشابُّ : ولـكنك لم تقرأ هذا الباب على أبيك ،

وإنما قرأتَ عليه باب كذا ، وهاتِ نسخةَ الألفيَّة أَمْتَحِنْك فيها . بُهِتَ الصبىُّ وظهر عليه الوُجوم . وهمّ الشابُّ أن يَقُصَّ القصة على الشيخ ، ولكنَّ أُمّه توسَّلت إليه . وكان الشاب رفيقاً بأُمّه رءوفاً بأخيه ، فسكت . وظلّ الشيخ على جهله حتى عاد الأزهرىّ . فلمَّا عاد امتحنَ الصبىَّ وما هى إلَّا أن عرَف جليَّة الأمر ، فلم يَغْضَبْ ولم يُنْذِرْ ولم يُخْبِرِ الشيخَ ، وإنما أمر الصبىَّ أَن ينقطع عن الكتَّاب والمحكمة . وأحفظه الألفيَّة كلِّها فى عشرة أَيام .

للعلم فى القُرَى ومُدُنِ الأقاليم جلالٌ ليس مثلُه فى العاصمة ولا بِيئاتها العلمية المختلفة. وليس فى هذا شىء من العَجب ولا من الغرابة، وإنما هو قانون العَرْض والطّلَب، يجرى على العلم كما يجرى على غيره مما يُباع ويُشْتَرَى. فبينما يروح العلماء ويغدون فى القاهرة لا يحفِل بهم أحدٌ، أو لا يكاد يحفِل بهم أحد، وبينما يقول العلماء فيُكْثِرُون فى القول ويتصرَّفون فى فنونه، دون أن يلتفت إليهم أَحدٌ غير تلاميذهم فى القاهرة، ترى علماء الرِّيف، وأَشباح القرى ومدن الأقاليم، يغْدُون ويروحون فى جلال ومَهابةٍ، ويقولون فيستمع لهم الناس مع شىءٍ من الإكبار مُؤَثِّرٍ جَذّاب. وكان صاحبنا متأثراً بنفسيّة الريف، يُكبِرُ العلماء كما يُكبرهم الريفيُّون، ويكاد يؤمن بأنهم فُطِرُوا(١) من طِينةٍ نقيّة ممتازة غير الطينة التى فُطِر منها النَّاسُ جميعاً.

---

(١) فطروا: خلقوا.

وكان يسمع لهم وهم يتكلّمون ، فيأخذه شيء من الإعجاب والدَّهَش ، حاول أن يجد مثله في القاهرة أمامَ كبار العلماء وجِلّة الشيوخ ، فلم يُوفَّقْ .

كان علماء المدينة ثلاثةً أو أربعة ؛ قد تقسَّموا فيما بينهم إعجابَ الناس ومودَّتَهم . فأمّا أحدهم فكان كاتباً في المحكمة الشرعية ، قصيراً ضخماً ، غليظَ الصوت جَهْوَرِيَّه ، يمتلئ شِدْقُه بالألفاظ حين يتكلّم ، فتخرج إليك هذه الألفاظُ ضخمة كصاحبها ، غليظة كصاحبها ؛ وتصدِمُك معانيها كما تَصْدِمُك مَقاطِعها . وكان هذا الشيخ من الذين لم يُفلِحُوا في الأزهر ؛ قَضى فيه ما شاء الله أن يقضى من السنين ، فلم يُوَفَّقْ للعالميّة ولا للقضاء ، فقَنِع بمَنْصِبِ الكاتب في المحكمة ، على حين كان أخوه قاضياً ممتازاً ، قد جُعِل إليه قضاءُ أحد الأقاليم . ولم يكن هذا الشيخ يستطيع أن يجلس في مَجْلِسٍ إلا فَخَر بأخيه ، وذم القاضيَ الذى هو معه . كان حَنَفيَّ المذهب ، وكان أتباعُ أبي حنيفة في المدينة قليلين ، أوْ لم يكن لأبي حنيفة في المدينة أتباع ؛ فكان ذلك يَغيظه ويُحْنِقُه على خصومه العلماء الآخرين ،

الذين كانوا يتبعون الشافعىَّ أو مالكاً ، ويَجِدُون فى أهل المدينة صَدًى لعلمهم ، وطُلَّاباً للفَتْوَى عندهم . فكان لا يَدَعُ فُرْصَةً إلَّا مجَّد فيها فِقْهَ أبى حنيفة ، وغضَّ فيها من فقه مالك والشافعىّ . وأهلُ الريف مَكَرَةٌ أذكياء ؛ فلم يكن يخفى عليهم أنَّ الشيخ إنما يقول ما يقول ، ويأتى ما يأتى من الأمر ، متأثِّرًا بالحِقْد والمَوْجِدة(١) ، فكانوا يعطِفون عليه ، ويضحكون منه . وكانت المنافسة شديدةً عنيفةً بين هذا الشيخ وبين الفتى الأزهرىّ . كان الفتى الأزهرىّ يُنْتَخَبُ خليفةً فى كلّ سنة ، فغاظهُ أن يُنْتَخَبَ هذا الفتى خليفةً دونه . ولمَّا تحدَّث الناسُ أنَّ الفتى سيُلْقِى خُطبةَ الجمعة سمِع الشيخ هذا الحديث ولم يَقُلْ شيئاً . حتى إذا كان يومُ الجمعة وامتلأ المسجد بالناس ، وأقبل الفتى يُريد أن يصعَد المنبر ، نَهَض الشيخ حتى انتهى إلى الإمام ، وقال فى صوت سمِعه الناس : إن هذا الشابَّ حديث السِّنّ ، وما ينبغى له أَن يصعَد المنبر ، ولا أن يخطُب ، ولا أن يُصلِّى بالناس وفيهم الشيوخ وأصحاب الأسنان . ولئن خلّيت بينه وبين المنبر والصلاةِ لأَنصرِفَنَّ . ثم التفتَ إلى الناس وقال :

---

(١) الموجدة : الغضب .

ومَنْ كان منكم حريصاً على ألّا تبطُلَ صلاتُه فَلْيَتْبَعْنِى . سمِع الناس هذا فاضطربوا، وكادت تقع بينهم الفتنة ، لولا أنْ نهض الإمامُ فَخَطَبَهم وصلَّى بهم ، وحيل الفتى وبين المِنْبَر هذا العام . ومع ذلك فقد كان الفتى أجهد نفسه فى حِفْظِ الْخُطبة واستعدَّ لهذا الموقف أيَّاماً متصلة ، وتلا الخطبةَ على أبيه غير مَرَّة . وكان أبوه ينتظر هذه الساعةَ أَشدَّ ما يكون إليها شوقاً، وأعظمَ ما يكون بها ابتهاجاً ، وكانت أُمُّه مشفقة تخاف عليه العين . فما كاد الفتى يخرُج إلى المسجد ذلك اليوم، حتى نهضتْ إلى جَمْرٍ وضعته فى إناء وأخذتْ تُلْقى فيه ضُروباً من البَخُور ، وتطوفُ به البيت حُجرةً حُجرةً . تقِفُ فى كلِّ حجرة لَحَظاتٍ وتُهَمْهِمُ بكلمات . وظلَّتْ كذلك حتى عاد ابنها ، فإذا هى تلقاه من وراء الباب مُبخِّرةً مُهَمْهِمةً ، وإذا الشيخ مُغْضَبٌ يلعَن هذا الرجل الذى أَكل الحسدُ قلبه ، فحال بين ابنه وبين المنبر والصلاة .

وكان فى المدينة عالم آخر شافعىّ ، كان إمام المسجد وصاحبَ الْخُطبة والصلاةِ ، وكان معروفاً بالتُّقَى والوَرَع ، يذهب الناس فى إكباره وإجلاله إلى حدٍّ يُشْبِه التقديسِ :كانوا

يتبركون به ، ويلتمسون عنده شفاء مرْضاهم وقضاء حاجاتهم . وكأنه كان يرى فى نفسه شيئاً من الوِلاية . وظلَّ أهل المدينة بعد موته سنينَ يذكرونه بالخير ، ويتحدَّثون مقتنعين بأنه عند ما أُنزل فى قبره قال بصوتٍ سمعه المشيِّعون جميعاً : اللَّهمَّ اجْعَلْهُ مَنزِلًا مُبارَكاً . وكانوا يتحدَّثونَ بما رأوا فيما يرى النائم من حظّ هذا الرجل عند الله ، وما أُعِدَّ له فى الجنة من نعيم .

وشيخٌ ثالث كان فى المدينة ، وكان مالكىّ المذهب ، ولم يكن ينقطع للعلم ولا يتَّخِذه حِرْفةً ، وإنما كان يعمَل فى الأرض ويَتَّجِر ، ويختلف إلى المسجد فيؤدِّى الخمس ، ويجلِس إلى الناس من حينٍ إلى حينٍ ، فيقرأ لهم الحديثَ ويُفقِّهم فى الدِّين متواضعاً غيرَ تيَّاه ولا فخور ، ولم يكن يحفِل به إلا الأقلُّون عدداً .

هؤلاء هم العلماء . ولكنَّ علماء آخرين كانوا مُنْبَثِّين(1) فى هذه المدينة وقُراها وريفها ، ولم يكونوا أقلَّ من هؤلاء العلماء الرسميين تأثيراً فى دَهْماءِ الناس وتسلُّطاً على عقولهم :

(1) منبثين : منتشرين .

منهم هذا الحاجّ ... الخيّاط الذى كان دُكّانه يكاد يُقابِل الكُتّاب ، والذى كان الناس مجمعين على وصفه بالبُخْل والشحّ ، والذى كان مُتَّصِلا بشيْخ من كبار أهل الطرقُ ، والذى كان يزدرى(١) العلماء جميعاً ؛ لأنهم يأخذون عِلْمَهم من الكُتُب لا عن الشيوخ ، والذى كان يرى أن العلم الصحيح إنما هو العلم اللَّدُنِّى ، الذى يهبِط على قلبك من عند الله دون أن تحتاج إلى كتاب ، بل دون أن تقرأ أو تكتُب .

ومنهم هذا الشيخ . . الذى كان فى أوّل أمره حَمّاراً يَنْقُلُ للناس بضائعهم وأمتعتهم ، ثم أصبح تاجراً ، واقتصرتْ حُمُره على نقل تجارته ، والذى كان الناس مجمعين على أنه أكل أموال اليتامَى ، وأثرَى(٢) على حساب الضعفاء ، والذى كان يُكثِرُ من ترديد هذه الآية وتفسيرها : «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» ، والذى كان يكرَهُ الصلاةَ فى المسجد الجامع ؛ لأنه كان يكرَه الإمامَ ومَنْ إليه من العلماء ، ويُؤْثِر الصلاةَ فى مسجد صغير لا قيمةَ له ولا مكانة .

---

(١) ازدراه : احتقره واستخف به .
(٢) أثرى : كثر ماله .

ومنهم هذا الشيخ . . . الذى لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يُحْسِنُ قراءة الفاتحة ، ولكنَّه كان شاذِليًّا من أصحاب الطريق ، كان يجمَع الناسَ إلى الذِّكْر ، ويُفتيهم فى أُمور دينهم ودنياهم .

ثم منهم الفقهاء الذين كانوا يقرءون القرآن ويُقرِئونه للناس ، والذين كانوا يُمَيِّزون أنفسهم من العلماء ويتسمَّوْن « حَمَلةَ كِتابِ الله » . والذين كانوا يَتَّصِلون بدَهْماء الناس والنساء منهم خاصَّة . كانت جَمْهَرَتُهم من المكفوفين ، فكانوا يدخلون البيوت يَتْلُون فيها القرآن . وكان النساء يتحدَّثن إليهم ، ويَسْتَفْتينَهم فى أمور الصَّوْم والصلاة وما إلى ذلك من أُمورهن . وكان لهؤلاء الفقهاء علمٌ مخالف كلَّ المخالفة لعلم العلماء الذين يأخذون علمَهم من الكتب ، والذين بينهم وبين الأزهر سببٌ قوىٌّ أو ضعيف وكان عِلمهُم مُخَالِفاً أيضاً لعلم أصحاب الطُّرُق وأهل العلم اللدنِّى ، كانوا يأخذون علمهم من القرآن مباشرةً ، يَفهَمونه كما يستطيعون ، لا كما هو ولا كما ينبغى أن يُفهَمَ . يفهَمونه كما كان يفهمه سيِّدنا ، وكان من

أذكى الفقهاءِ وأشدِّهم علماً ، وأقدرهم على التأويل . سأله الصبيّ ذات يوم : ما معنى قول الله تعالى : « وخَلَقْنا كم أَطْوَاراً » ؟ فأجاب هادئًا مطمئنًّا : خلقنا كم كالثِّيران لا تعقلون شيئًا . أو يفهمونه كما يفهمه جَدُّ هذا الصبيِّ نفْسِه ، وكان من أحفظ الناس للقرآن وأبْرَعِهم فى فَهْمه وتفسيره وتأويله . سأله حفيده ذاتَ يوم عن قول الله تعالى : « ومِنَ النَّاس مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فإنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وإنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا والآخرةِ » فقال : « على حرْفٍ دَكه ، على حَرْفِ مَصْطَبَة . . . فإن أصابه خيرٌ فهو مطمئن فى مكانه ، وإن أصابه شرٌّ انكفأ على وجهه » .

وكان صبيّنا يختلف[1] بين هؤلاء العلماء جميعاً ، ويأخذ عنهم جميعاً ، حتى اجتمع له من ذلك مقدارٌ من العلم ضخمٌ مختلفٌ مضطربٌ متناقض ، ما أحسَبُ إلا أنه عَمِلَ عملاً غيرَ قليلٍ فى تكوين عَقْله الذى لم يَخْلُ من اضطراب واختلاف وتناقض .

---

(١) يختلف هنا : يتردد .

١٥

وشيوخُ الطريق ، وما شيوخُ الطريق ! ! كانوا كثيرين مُنْبَثِّين(١) فى أقطار الأرض، لا تكاد تخلو منهم المدينة أُسبوعاً وكانت مذاهبهم مختلفةً ، وكانوا قد تقسَّموا الناسَ فيما بينهم فجعلوهم شِيَعاً ، وفرَّقوا أهواءهم تفريقاً عظيماً . وكانتِ المنافسة حادَّةً فى الإقليم بين أُسرتين من أصحاب الطريق ، لإحداهما أعلاه ، وللأُخرى أَسْفَلُه .

وإذ كان أهلُ الإقليم ينتقلون ولا يأبَوْن على أنفسهم الهجرة من قريةٍ إلى قرية ومن مدينةٍ إلى مدينة داخلَ الإقليم ، فقد كان يتَّفق أَنْ ينزل أتباع إحدى الأُسرتين حيث تتسلَّط الأُسرة الأُخرى . وكان زعماء الأُسرتين يتنقَّلون فى الإقليم يزورون أتباعهم وأشياعهم . ولله ما كان يحدُث من الخصومات يوم يهبِط صاحب العالية إلى السافلة ، أو يصعَد

---

(١) أى منتشرين فى نواحى الأرض .

صاحب السافلة إلى العالية ! وكان أبو الصبيّ من أتباع صاحب العالية ، أخذ عنه العهد ، وأخذ عنه أبوه من قبلُ . وكانت أمُّ الصبيِّ من أتباع صاحب العالية أيضاً ، بل كان أبوها من أنصاره وحَوَاريِّيه (١) المُقرَّبين إليه . ومات صاحب العالية وخَلَفه على الطريق ابنه الحاجّ . . . وكان أنشطَ من أبيه ، وأقدَر على الكيد واللُّؤْم ، وأنهضَ للخصومة . كان أقربَ من أبيه إلى الدنيا ، وأبعدَ من أبيه عن الدين .

وكان أبو الصبيِّ قد هَبَط إلى السافلة واستقرَّ فيها ، فكانت لصاحب العالية عادةٌ أن يزوره مَرَّةً فى كل سنة . وكان إذا أقبل لَمْ يُقبلْ وحده ولَمْ يُقبلْ فى نَفَرٍ قليل ، وإنما أقبل فى جيش ضخم ، إن لَمْ يَبْلغِ المائة فليس ينحطّ عنها إلا قليلا . ولم يكن يَتَّخِذ قُطُرَ السكة الحديدية ولا سُفنَ النيل ، وإنما كان يتخذ الجيادَ والبِغال والحمير ، يسيرُ ومَنْ حولِه أصحابه ، فيمرُّون بالقُرَى والدساكر ، ينزلون ويرحَلون فى أبَّهة وضخامة ، منتصرين حيث لا سلطان إلا لهم ، مُتَحَدِّين (٢) حيث لخصومهم شيء من القوة . وكانوا إذا زاروا أُسرة

(١) الحوارى : الناصر .
(٢) التحدى : طلب المباراة للغلبة .

الصبيّ ، أقبلوا حتى ينزلوا ، فإذا الشارعُ ممتلئ بهم وبخيلهم وبغالِهم وحُمُرهم ، قد أخذوه من القناة إلى أقصاه الجنوبيّ ، وإذا الشّاءُ تُذبَح ، وإذا السُّمُط[1] ممدودةٌ فى الشارع ، وإذا هم إلى طعامهم فى شرهٍ لا يعدِله شرهٌ ، والشيخ جالس فى المنظرة ومن حوله أصفياؤه وأولياؤه ، وبين يديه صاحب البيت وأخِصّاؤه يأتمرون أمرَه[2] . فإذا فرغوا من الغداء انصرفوا عنه ، فنام حيث هو ، ثم نهض فتوضّأ . فانظرْ إلى الناس يَسْتَبِقون ويختصمون أيُّهم يصُبّ عليه الماء ! فإذا فرغ ، فانظرْ إليهم يستبقون ويختصمون أيُّهم يُصِيبُ من وَضُوء[3] الشيخ جَرْعةً ! والشيخ عنهم فى شغل ، يصلّى فيُطيل الصلاة ، ويدعو فيُطيل الدعاء . حتى إذا فرغ من هذا كلِّه جلس للناس وهم يتقاطرون عليه ، منهم من يُقبّل يده وينصرف خاشعاً ، ومنهم من يتحدّث إليه لحظةً أو لحظاتٍ ، ومنهم من يسأله حاجةً ، والشيخ يُجيب أولئك وهؤلاء بألفاظ غريبة غامضة ،

---

(١) السمط : جمع سماط (بالكسر) ، وهو ما يبسط ليوضع عليه الطعام .

(٢) ائتمر أمره : امتثله . (٣) الوضوء (بفتح الواو) : الماء الذى يتوضأ به .

يذهبون فى فهمها وتأويلها المذاهب .

أُدخل عليه الصبيُّ ، فمَسَح رأسه وتلا قولَ الله تعالى : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » . من ذلك اليوم اقتنع أبو الصبيِّ بأن سيكون لابنه شأن . فإذا صُلِّيتِ المغربُ مُدَّتِ الموائد وأكل الناس ثم تُصَلَّى العِشاء ثم يُنْصَبُ المجلس .

ونَصْبُ المجلس عبارةٌ عن اجتماع الناس إلى حَلْقة الذِّكر ، يذكرون الله قاعدين ساكنين ، ثم تتحرَّك رؤوسهم وترتفع أصواتهم قليلًا ، ثم تتحرَّك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلًا ، ثم تَنْبَثُّ فى أجسامهم رِعدة فإذا هم جميعاً وقوفٌ ، قد دُفِعوا فى الهواء كأنما حرَّكهم لولبٌ ، وقد انبثَّ فى الحَلْقة شيوخ يُنشِدون شعر ابن الفارض وما يُشبهه من الشعر . وكان لهذا الشيخ خاصَّةً كَلَفٌ بقصيدة معروفة ، فيها ذكر الإسراء والمِعراج ، أوَّلُها :

مِنْ مَكَّةَ والبيتِ الأمْجَدْ ☆ لِلْقُدْسِ سَرَى ليلًا أحْمَدْ

كان الشيوخ يرتِّلونها ترتيلًا ، وكان الذاكرون يحرِّكون

أجسامهم عَلَى هذا الترتيل ، ينحنون ويستقيمون كأنما يُرَقِّصهم هؤلاء الشيوخ ترقيصاً .

ومهما يَنْسَ الصبيُّ فلن ينسَى ليلةً غلِط فيها أحدُ المنشدين فوضع لفظاً مكان لفظٍ من القصيدة ، وإذا الشيخ قد ثار وفار ، وأرْغى وأزْبَدَ[1] ، وصاح بملء صوته : يا بنى الكلاب ! لَعَنَ الله آباءكم وآباء آبائكم وآباء آباء آبائكم إلى آدم ! أتريدون أن تُخربوا بيت الرجل !

ومهما ينسَ الصبيّ فلن ينسى تأثيرَ هذه الغَضْبَةِ فى نفوسِ الذاكرين وفى نفوس الناس مِنْ حولِهم ، وكان الناس قَدِ اقتنعوا بأن الغَلَطَ فى هذه القصيدة مصدرُ شُؤْم لا يُشْبِهه شؤم . وأظهر أبو الصبيِّ تأثُّراً وفزعًا ، ثم اطمئنانًا وهدوءا .

فلما انصرف الشيخ من الغد وتذاكرتِ الأسرة ما كان من أمره ، وما كان من قِصَّته مع الذاكرين والمُنْشدين ، ضَحِك صاحب البيت ضحكةً لم يَشُكَّ الصبيُّ بعدها فى أنَّ إيمان أبيه بهذا الشيخ لم يكن خالصاً من الشك والِازْدراء . . . نعمْ من الشك والِازدراء ! فقد كان طَمَعُ الشيخ وحِرْصُه أظهرَ من

(١) أرغى وأزبد : ضج غضباً ، وتهدد وتوعد .

أن ينخدع بهما من له حظٌّ من أناة وتفكير .

وكان من أشدِّ النّاس مَقْتاً للشيخ وسخطاً عليه أُمُّ الصبي . كانت تكرَه زيارته ، وتستثقل ظِلّه ، وتُؤَدِّي ما تُؤَدِّي وتُعِدُّ ما تُعِدّ وهي كارهة ساخطة . لا تكاد تُمْسِك لسانَها إلا في مَشَقَّةٍ وعناء . ذلك لأنَّ زيارة الشيخ كانت ثقيلةً على هذه الأسرة التي كانت تعيش من سَعة ، ولكنّها كانت فقيرة على كل حال .

كانت زيارة الشيخ تستهلك كثيراً من القمح والسمن والعسل وما إلى ذلك ، وكانت تُكلِّف صاحبَ البيت الاقتراض لشراء ما لا بُدَّ منه من الضأْن والمَعز . وكان الشيخ لا يُلِمُّ بهذه الأسرة إلا ارتحل من غده وقد أخذ شيئاً راقه وأعجبه : يأخذ في هذه المرّة بساطًا ، وفي هذه شالاً من الكشمير ، وعلى هذا النحو .

كانت زيارة هذا الشيخ وأصحابه شيئاً ترغَب فيه الأُسرة رغبةً شديدة لأنه يمكّنها من الفخر ورفع الرأس ومناوأة الأشباه والنظائر ، وتكرَهه كرهاً شديداً لأنَّه يُكلِّفها ما يكلِّفها من المال والمشقة . كانت شرًّا لا بُدَّ منه ، جرتْ به العادة

وصادف هوًى فى الناس . وكان اتّصال الأُسرة بهذا البيت من بيوت الطريق قويًّا متينًا ، ترك فيها آثاراً باقية من الأخبار والقصص ، وأحاديث الكرامات والمعجزات . وكانت أُمّْ الصبى وأبوه يجِدان لذّةً فى أَن يتحدَّثا إلى أَبنائهما بهذه الأخبار والأحاديث . ولم تكن أُمّ الصبىِّ تَدَعُ فرصةً إِلّا قَصَّتْ فيها هذه القِصَّة : « حج أَبى ومعه جَدَّتى مع الشيخ خالدٍ مرَّة ، وكان الشيخ قد حجّ ثلاث مرَّات تَبِعه فيها أبى ، واستصحب أُمَّه فى هذه المرَّة . فلما فرغوا من الحج وانصرفوا إِلى المدينة ، وقعت الشيخة فى بعض الطريق من الرَّحْل(١) فانحطم ظهرها انحطاماً ، وعَجَزتْ عن المشى والحركة ، وأخذ ابنها يحمِلها ويَنْقُلُها من مكان إِلى مكان ، ويجد فى ذلك من المَشَقّة والعناء ما شكاه إلى الشيخ ذاتَ يوم ، فقال له الشيخ : أَلستَ تزعُم أَنها شريفةٌ من نَسْل الحسن بن علىّ ؟ قال بلى . قال : فهى ذاهبة إلى جَدِّها ، فإِذا انتهيتَ بها إِلى المسجد النبوىِّ فَضَعْها فى ناحيةٍ منه ، وخَلِّ بينها وبين جَدّها يصنَع بها ما يشاء .

(١) الرحل للبعير كالسرج للفرس .

وكذلك فعل الرجلُ : وضَع أُمَّهُ فى ناحيةٍ من نواحى المسجد وقال لها فى لغة الفلاح الجافية يملؤها مع جَفْوتها الحبّ والإشفاق : أنتِ وَجَدُّك ، فليس لى بكما شأن . ثم تركها وتَبِع شيخه يُريد أن يطوف بقبر النبيِّ . قال الرجل : فوالله ما خطوتُ خُطُواتٍ حتى سمعتُ أمِّى تنادينى ، فالتفتُّ فإذا هى قائمة تَسعى ، وأبيْتُ أن أعود إليها ، فإذا هى تعدو من ورائى عَدْواً ، وإذا هى تَسْبِقنى إلى الشيخ وتطوف مع الطائفين » .

وكان أبو الصبىِّ لاَ يَدَعُ فرصةً إلاّ ذكر فيها عن الشيخ هذه القصة : ذكر أمامه أن الغزالى قال فى بعض كُتبه : إن النبى لا يمكن أن يُرَى فيما يرى النائم فغَضِب الشيخ وقال : والله ما هكذا كان الأَمَلُ فيك يا غزالى ! لقد رأيتُه بعينَىْ رأسى هذا راكباً بغلته . وذكر له ذلك مرَّةً أُخرى فقال : والله ما هكذا كان الأملُ فيك يا غزالى ! لقد رأيته بعينى رأسى هذا راكباً ناقته . وكان أبوا الصبىِّ يستنبط من ذلك أنّ الغزالى قد أخطأ ، وأن عامة الناس يستطيعون أن يرُوا النبى فيما يرى النائم ، وأنّ الأولياء والصالحين يستطيعون أن يَرَوْه وهم أيقاظ . وكان

أبو الصبيِّ يُثْبِتُ هذا بحديث يرويه كلما ذكر هذه القصة ، وهو : « مَنْ رآنى فى المنام فقد رآنى حقًّا فإن الشيطان لا يتمثّل بى » .

وعلى هذا النحو حفظ الصبيُّ ألوانًا من أخبار الكرامات والمعجزات وأسرار الصوفيَّة . وكان إذا أراد أن يتحدث بشىء من ذلك إلى أترابه ورفاقه فى الكُتَّاب قَصُّوا عليه أمثاله ، يُضِيفونه إلى صاحب السافلة ويؤمنون به إيمانًا شديداً .

كانت لأهل الريف شُيوخِهم وشُبَّانِهمْ وصبيانهم ونسائهم عقلية خاصّة فيها سذاجة وتَصَوُّف وغَفْلَة ، وكان أكبرُ الأثر فى تكوين هذه العقلية لأهل الطريق .

١٦

على أنّ صبيَّنا لم يَلبَثْ أن أضاف إلى هذه الألوان من العلم لوناً آخر جديداً ، وهو علم السِّحْر والطلاسم ؛ فقد كان باعة الكتب يتنقلون فى القرى والمدن بخليطٍ من الأسفار ، لعله أصدقُ مثل لعقيدة الريف فى ذلك العهد . كانوا يحمِلون فى حَقائبهم مناقبَ الصالحين ، وأخبارَ الفتوح والغزوات ، وقصة القِطّ والفار ، وحِوَار السِّلك والوابور ، وشمس المعارف الكبرى فى السحر ، وكتاباً آخر لستُ أدرى كيف كان يُسَمَّى ، ولكنه كان يُعْرَف بكتاب « الدِّيرْبى » ، ثم أوراداً مختلفة ، ثم قصصَ المولد النبوىّ ، ثم مجموعاتٍ من الشعر الصوفى ، ثم كتباً فى الوعظ والإرشاد ، وأُخرى فى المحاضرات وعجائب الأخبار ، ثم قصصَ الأبطال من الهلاليين والزناتيين ، وعنترة ، والظاهر بيبرس ، وسَيْف بن ذى يَزَن ، ثم القرآن الكريم مع هذا كلِّه . وكان الناس يشترون هذه الكتب

كلَّها ويلتهمون ما فيها التهاماً ، وكانت عقليتهم تتكوَّن من خُلاصته كما تتكوَّن أجسامهم من خُلاصة ما كانوا يأكلون ويشربون .

وقد قُرِئَ لصاحبنا من هذا كلِّه ، فحفِظَ منه الشيءَ الكثير . ولكنه عُنِي بشيئين عنايةً خاصَّة : عُنِي بالسحر ، وعُنِي بالتصوُّف . ولم يكن فى الجمع بين هذين اللونين من العلم شيءٌ من الغرابة ولا من العُسْر ؛ فإن التناقض الذى يظهر بينهما ليس إلاَّ صوريًّا فى حقيقة الأمر . أليس الصُّوفِىُّ يزعُم لنفسه وللناس أنه يخترق حُجُبَ الغيب ، ويُنْبِئُ بما كان وما سيكون ، كما أنه يتعدَّى حدود القوانين الطبيعية ويأتى بضروب الخوارق والكرامات ؟ والساحر ماذا يصنَع ؟ أليس يزعُم لنفسْه القدرةَ على الإخبار بالغيب ، وتجاوُز حدودِ القوانين الطبيعية أيضاً ، والاِتِّصال بعالم الأرواح ؟ . . . بلى ! كل ما يوجد من الفرق بين الساحر والصوفىِّ هو أن هذا يَتّصِلُ بالملائكة ، وذلك يتّصل بالشياطين . ولكن يجب أن نقرأ ابن خلدون وأمثاله لِنَصِلَ إلى تحقيق مثل هذا

الفرق ، ونُرَتِّب عليه نتائجَه الطبيعية من تحريم السحر والترغيب عنه ، وتحبيب التصوُّف والترغيب فيه .

وما كان أبعدَ صبيَّنا وأترابَه عن ابن خلدون وأمثال ابن خلدون ! إنما كانت تقع فى أيديهم كتبُ السحر ومناقب الصالحين وكرامات الأولياء ، فيقرءون ويتأثرُون . ثم لا يلبثون أن يتجاوزوا القراءة والإعجاب إلى الاقتداء والتجربة . وإذاهم يسلُكون مَناهِج الصوفيَّة ، ويأتون ما يأتيه السَّحَرةُ من ضروب الفنّ . وكثيراً ما يختلط فى عقولهم السحر والتصوُّف ، فيُصبح كلاهما شيئًا واحداً ، غايته تيسيرُ الحياة والتقرب إلى الله .

وكذلك كان الأمر فى نفس صاحبنا ؛ فقد كان يتصوَّف ويتكلَّف السحر ، وهو واثقٌ بأنه سيُرْضِى الله ، ويَظفَرُ من الحياة بأحبِّ لذَّاتها إليه .

وكان من القصص التى تَكْثُر فى أيدى الصبيان يحملها إليهم باعة الكتب ، قصةٌ اقتُطِعتْ من « ألف ليلة وليلة » وتُعْرَف بقصة « حسن البَصْرىّ » . فى هذه القصة أخبارُ

ذلك المجوسىّ الذى كان يحوّل النّحاس ذهباً . وأخبارُ ذلك القصر الذى كان يقوم من وراء الجبل على عُمُدٍ شاهقة فى الهواء ، وتُقيمُ فيه بناتٌ سَبْعٌ من بنات الجن . والذى أوى إليه حسن البصرىّ ، ثم أخبارُ حسن هذا وما كان من رحْلته الطويلة الشاقّة إلى دُور الجنّ . وبين هذه الأخبار خبرٌ ملأَ الصَّبيَّ إعجاباً . وهو أنّ قضيباً أُهْدى إلى حسن هذا فى بعض رحلته . وكان من خَواصّ هذا القضيب أن تُضْرَبَ به الأرضُ فتنشقّ ويخرج منها تسعة نفر يأتمرون أمر[1] صاحب القضيب ، وهم بالطبع من الجن أقوياء خِفافٌ يطيرون ويَعْدُون ، ويحملون الأثقال ، ويقتلعون الجبال . ويأتون من عجيب الأمر مالا حدّ له .

فُتِنَ الصبيُّ بهذه العصا ، ورغِب فى أن يظفَر بها رغبةً شديدة قوية أرّقت[2] ليلَه ونغصتْ يومَه ، فأخذ يقرأ كتب

(١) ائتمر أمره : امتثله وعمل به .

(٢) الأرق : ذهاب النوم بالليل . والمراد أن هذه الرغبة الشديدة أرقته هو فى ليله ونغصته فى يومه . ولكن الكاتب قد سلك سبيل المجاز فى الإسناد ، فجعل التأريق واقعاً على الليل والتنغيص واقعاً على اليوم ، ليدل على أن التأريق استغرق ليله كله وأن التنغيص استغرق يومه كله .

السحر والتصوُّف . يلتمس عند السَّحَرة والمتصوِّفين وسيلةً تمكِّنه من هذه العصا .

وكان له قريبٌ صبيٌّ مثلُه يُرافقه إلى الكتّاب، فكان أشدّ منه كلَفاً بهذه العصا . وما هي إلا أن جدَّ الصَّبيّانِ في البحث حتى انتهيا إلى وسيلة يسيرة تُمكِّنهما مما يريدان . وجداها في كتاب الدِّيَرْبِي ، وهي أن يخلو الفتى إلى نفسه وقد تطهَّر ووضع بين يديه ناراً ومقداراً من الطِّيب ، ثم يأخذ في ترديد هذا الاسم من أسماء الله « يا لطيف يا لطيف » ملقياً في النار شيئاً من الطيب من حين إلى حين ، فيمضي في ترديد هذه الكلمة وتحريق هذا الطِّيب ، حتى تدور به الأرض ، وينشقَّ أمامه الحائط ، ويَمْثُلَ أمامه خادمٌ من الجن مُوَكَّلٌ بهذا الاسم من أسماء الله ، فيطلب إليه ما يريده ، والحاجةُ مقضيَّة من غير شك .

ظفر الصبيَّان بهذه الوسيلة، فاعتزما أن يستخدماها . وما هي إلا أنِ اشتريا ضروباً من الطيب ، وخلا صبيّنا إلى نفسه في المَنظرة ، أَغلق بابها من دونه ، ووضع بين يديه قِطعاً من

النار وأخذ يُلْقى فيها الطيب، ويُرَدِّدُ : « يالطيف! يالطيف! ».
وطال به هذا وهو ينتظر أن تدور به الأرض وينشقّ له الحائط
ويمثُل الخادم بين يديه ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يكن . وهنا
تحوَّل صبيُّنا الساحرُ المتصوِّفُ إلى نصّاب .

خرج من المنظرة مضطرباً يُمسكُ رأسه بيديه ولا يكاد
لسانه ينطلق بحرف واحد . فتلقّاه صاحبه الصبيّ يسأله : هل
لَقِيَ الخادم ؟ وهل طلب إليه العصا ؟ وصاحبُنا لا يُجيب إلا
مضطرباً مرتجفاً ، تصطك أسنانه اصطكاكاً ، حتى رَوَّع
رفيقه الصبيّ . وبعد لأْيٍ(١) أخذ صاحبنا يهدأ ويجيب فى
ألفاظ متقطِّعة وبصوت متهدِّج : « لقد دارت بى الأرض حتى
كدتُ أسقط، وانشقَّ الحائط وسمعتُ صوتاً ملأَ الحجرة من
جميع نواحيها ، ثم أُغْمِيَ علىَّ ، ثم أفقتُ فخرجت مسرعاً » !
سمع الصبيّ هذا ، فامتلأَ فرحاً وإعجاباً بصاحبه ، وقال له :
هوِّنْ عليك؛ فقد أصابك الرُّعْبُ وملك الخوف عليك أمرك ؛
فلنبحثنَّ فى الكتاب عن شيء يُؤَمِّنك ويُشَجِّعك على أن

---

(١) بعد لأى : بعد بطء واحتباس أو بعد جهد .

تثبُتَ للخادم وتطلب منه ما تشاء . واستأنفا البحث فى الكتاب . وانتهى بهما البحث إلى أنّ صاحب الخَلْوة يجب أن يصلِّى ركعتين قبل أن يجلس إلى النار ويأخذَ فى ترديد هذا الِاسم . وكذلك فعل الصبىّ من غده ، وأخذ يُلقى الطيبَ فى النار ويردِّد دعاءَ « اللطيف » ينتظر أن تدور به الأرض . وينشقّ له الحائط ، ويَمثُلَ الخادم بين يديه ، ولكنَّ شيئاً من ذلك لم يكن . وخرج الصبى إلى صاحبه هادئاً مطمئنًّا ، فأخبره أنْ قد دارت الأرض وانشقّ الحائط ومَثل الخادم بين يديه وسمع منه حاجته ، ولكنه لم يشأ أن يُجيبه إليها حتى يَمْرُنَ على هذه الخَلْوة ، ويُكْثِرَ من الصلاة وإطلاق البَخُور وذكر الله ، وضرب له موعداً لقضاء هذه الحاجة شهراً كاملًا يأتى فيه هذا الأمرَ فى نظام؛ فإن فَسَد هذا النظامُ فلا بُدَّ من استئناف الأمر شهراً كاملًا آخر . وصدَّق الصبيُّ صاحبه ، وأخذ يُلحّ عليه فى كلِّ يوم أن يخلو إلى النار ويُردِّد الدعاءَ . وأخذ الصبيُّ يستغلُّ من صاحبه هذا الضعفَ ، ويكلِّفه ما شاءَ من مشقة وعَناء . فإن أبى أو أظهر الإباء أعلن إليه صاحبه أنه لن

يخلوَ إلى النار ، ولن يدعوَ « اللطيف » ، ولن يلتمس العصا : فيُذعنُ إذعاناً سريعاً .

على أن صاحبنا لم يكن يميل وحدَه إلى السحر والتصوّف ، وإنما كان يُدْفعُ إلى ذلك دفعاً ، يدفعه إليه أبوه . ذلك أنّ الشيخ كان كثير الحاجات عند الله : كان له أبناء كثيرون ، وكان يحرِص على تعليمهم وتهذيبهم . وكان فقيراً لا يستطيع أن يُؤَدِّى نفقاتِ ذلك التعليم . وكان يستدين من حين إلى حين ويَثْقُلُ عليه أداء الدين . وكان يطمَع فى أن يزاد راتبه من حين إلى حين ، وكان يطمع فى أن يتقدَّم درجةً وينتقل من عمل إلى عمل . وكان يلتمس هذا كلَّه عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة . وكان أحبُّ وسائل الالتماس إليه «عِدّيّة يس». وكان يطلب « عِدِّية يس » هذه إلى ابنه الصبىّ ؛ لأنه صبىٌّ ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين المَزيتين أثيرٌ[1] عند الله رفيعُ المكانة عنده . وهل يرضى الله أن يَرُدَّ صبيًّا مكفوفاً حين يطلب إليه أَمراً من الأمور مُتَوَسِّلاً بقراءة القرآن !

---

(١) أثير عند الله : مقرب مكرم .

وكانت « عِدِّية يٓس » مَرَاتِبَ : أُولاها أن يخلو الإنسان إلى نفسه فيقرأ هذه السورة من سور القرآن أربع مرّات ، ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثانية أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة سبع مرات ، ثم يطلب ما يشاء وينصرف . والثالثة أن يخلو إلى نفسه فيتلو هذه السورة إحدى وأربعين مَرّةً لا يفرُغ من قراءتها مَرّةً حتى يُتْبِعها بدعاء يٓس : « ياعُصبة الخير بخير المِلل » ، فإذا أتمَّ القراءة طلب ما شاء وانصرف . والبخور محتوم فى هذه المرتبة الثالثة . وكان الشيخ يكلِّف ابنه العِدِّيَّة الصغرى فى صِغار الأمور ، والوُسْطى فى الأمور الهامَّة ، والكبرى فى الأمور التى تَمَسُّ حياةَ الأُسرة كلّها . فإذا سعى فى أن يُدْخِلَ أحدَ أبنائه فى المدرسة مجانًا فالعِدِّية الصغرى . وإذا التمس إلى الله أداءَ دَيْنٍ ثقيل فالعدِّية الوسطى . وإذا رغِب فى أن ينتقل من عمل إلى عمل وأن يُزاد راتبُه جنيهًا أو بعضَ الجنيه فالعِدِّية الكبرى . وكان لكل عِدِّية أَجْرٌ : فأما العِدِّية الصغرى فأجْرُها قطعةٌ من السكَّر أو الحَلْوَى . وأَمَّا العِدِّية الوسطى فأجرُها خمسة مِلّيمات . وأمَّا

العِدِّية الكبرى فأجرُها عشرةٌ . وكثيراً ما خلا الصبي إلى نفسه وقرأ سورة يس أربعًا أو سبعًا أو إحدى وأربعين ومن عجيب الأمر أنّ الحاجاتِ كانت تُقْضَى دائمًا . وما هي إلا أن تمّ اقتناع الشيخ بأنّ ابنه مُبارَكٌ ، وبأنه أثير عند الله .

ولم يكن أمر السحر والتصوّف مقصوراً على قضاء الحاجات والتنبؤ بما سينجلي عنه الغيب ، وإنما كان يتجاوز هذا كلّه إلى دفع المكروه واتّقاء النّكبات . وقد نسي الصبيُّ أشياء كثيرة ، ولكنه لم ينسَ هذا الرُّعْب الذي ملأَ قلوب الناس جميعًا في المدينة وما حولها من القُرى ، حين وصلت إليهم الأخبارُ من القاهرة بأنّ نجْمًا ذا ذَنَبٍ سيظهر في السماء بعد أيّام ؛ حتى إذا كانت الساعة الثانية بعد الظهر مَسّ الأرض بطَرَفٍ من ذَنَبه فإذا هي هشيمٌ[1] تذرُوه الرياح . فأمّا النساء وعامّة الناس فلم يحفِلوا بهذا أو لم يكادوا يحفِلون به ، وإنما كانوا يشعرون بشيء من الرُّعْب كلّما تحدّثوا بهذه النازلة أو سمِعوا الحديث عنها ، ثم لا يلبثون أن

(١) الهشيم : اليابس المتكسر من النبات والشجر .

ينصرفوا إلى ما هم فيه من حياة عملية . وأمّا المتفقهون فى الدِّين وحَمَلة القرآن وأصحابُ الطرُق وتلاميذهم فكانوا هَلِعين[١] مُرَوَّعين حقًّا ، لا تكاد تستقرُّ قلوبهم بين جُنوبهم ، وكانوا يتحاورون[٢] فى ذلك تحاوُرًا مُتَّصِلاً ؛ فمنهم مَنْ يزعم أنّ هذه الكارثةَ لن تقع ؛ لأنها مخالفة لِما عُرِف من أشْراطِ[٣] الساعة ، وما كان للأرض أن تفنَى قبل أن تظهر الدَّابَّة والنارُ والدَّجَّال ، وقبل أن يَهْبِطَ المسيحُ إلى الأرض فيملأها عَدْلاً بعد أن مُلِئتْ جَوْراً . ومنهم مَنْ كان يظنُّ أنّ الكارثة من أشراط الساعة . ومنهم مَنْ كان يتحدَّث بأنّ هذه الكارثة قد تقع فتُصيب الأرض بشىء من التدمير دون أن تأتى عليها جميعاً . كانوا يتحاورون طولَ النهار ، حتى إذا أقبل الليلُ وصُلِّيتِ المغربُ اجتمعوا حِلَقاً فى المسجد وأمام الدُّور ، وأخذوا يُرَدِّدون هذه الكلمة : « أَزِفَتِ الآزفة ليس لها من دونِ الله كاشفَةٌ » حتى تصلى العِشاء . وانقضت الأيام ،

---

(١) هلعين : جزعين أشد الجزع . والجزع : ضد الصبر . ومروعين : مفزعين خائفين .

(٢) يتحاورون : يراجعون الكلام بينهم .

(٣) أشراط الساعة : علامات قيامها .

وجاءَتِ الساعةُ المحتومة، ولم يظهر فى السماء نجمٌ ذو ذَنَبٍ ، ولم يُصِبِ الأرضَ دَمارٌ قليل ولا كثير . فانقسم المتفقّهون فى الدِّين وَحَمَلَةُ القرآن وأصحابُ الطُّرُق : فأمّا أهلُ العلم الذين يستمدُّون علمهم من الكتب وينتمُون[١] إلى الأزهر فانتصروا ، وقالوا : « ألم نقلْ لكم : إنَّ هذه الكارثةَ لا يمكن أن تقع قبل أن تظهرَ أشراطُ الساعة ؟ ألم نَدْعُكم إلى تكذيب المُنجِّمين ؟ » وأمَّا حَمَلَةُ القرآن فقالوا : « كلاَّ ! لقد كادتْ تقع الكارثة لولا أن لَطفَ الله بالرُّضع والحوامل والبهائم ، وسمِع لدعاء الداعين ، وتَضرُّعِ المتضرِّعين » . وأمَّا أهلُ التصوُّف والعلم اللدُنِّى فقالوا : « كلاَّ ! لقد كادت تقع الكارثة لولا أن توسَّطِ القُطبُ المُتَوَلى بين الناس والله ، فصرَفَ عن الناس هذا البلاءَ ، وَاحتمل عنهم أوزارَهم[٢] » .

وأنت تستطيع أن تقول : إن هذا الدافعَ الذى كان يدفع الناسَ إلى التحصُّن من « الخماسين » كان سحْراً أو تَصَوُّفاً . أمَّا أنا فلا أستطيع إلّا أن أُحَدِّثك بما يذكُر الصبىُّ من أنَّ الأيَّام التى كانت تسبق أيامَ شَمِّ النّسيم كانت أياماً غريبة ،

---

(١) ينتمون : ينتسبون .

(٢) الأوزار : الآثام والذنوب ، الواحد وزر (بكسر فسكون) .

يخالط فيها قلوبَ النساءِ والصِّبيان وحَملة القرآن شيءٌ من الفَرَح والخوف. كانوا إذا أظلَّهم يومُ الجمعة أسرفوا فى الأكل وفى ألوان خاصة من الطعام، حتى إذا كان يوم السبت أسرفوا فى أكل البيض المُلَوَّن. وكان الفقهاء قد استعدُّوا لهذا اليوم استعداداً خاصًّا، فاشْتَرَوْا وَرقًا أبيضَ صقيلاً، وقطَّعوه قطعاً صغاراً دِقاقاً، وكتبوا على كلِّ قِطْعةٍ «ا ل م ص» ثم يَطوُون هذه القطع ويملئون بها جُيوبهم. حتى إذا كان يومُ السبت أَلمُّوا(١) بالدُّور التى كانوا يتَّصلون بها، ففرَّقوا هذه القِطَع من الورق على أهلها، وطلبوا إلى كلِّ واحدٍ أن يبتلع منها أربعاً قبل أن يُلِمَّ(٢) بطعام أو شراب. وكانوا يزعُمون للناس أنّ ابتلاع هذه القطع من الورق يَصرِفُ عنهم ما تأتى به «الخماسين» من المكروه، ويصرف عنهم الرَّمَدَ بنوع خاصّ. وكان الناس يُصَدِّقونهم ويبتلعون هذا الورق ويؤدُّون إلى الفقهاء ثمنه بَيْضًا أَحمرَ وأصفرَ. وليس يدرى الصبىُّ ماذا كان يصنع سيِّدنا بما كان يجتمع له من البيض فى يوم سبت النُّور؛ فقد كان كثيراً يتجاوز المئات، على أنّ استعداد الفقهاء لهذا اليوم

---

(١) ألموا بالدور هنا: زاروها.

(٢) أى قبل أن يصيب منه.

لم يكن يقفُ عند إعداد هذه القِطَع من الورق ، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى شيءٍ آخر : كانوا يشترون الورق الأبيضَ الصَّقيل ، ويقطعونه قطعاً طويلة عريضة بعضَ العِرَضِ ، ويكتُبون عليها مُخلَّفات النبي :

مُخَلَّفُطه سُبْحَتانِ ومُصحَفٌ ومُكْحَلَةٌ سَجَّادتانِ رَحًى عَصاَ

حتى إذا فرغوا من هذه المخلَّفات أَضافوا إليها دعاءً آخر يبتدئ بهذه الكلمات التى كان الفقهاء يقولون إنها سُرْيانية :

« دبى دبندى ، كرى كرندى ، سرى سرندى ، سبر سبر بتونا ، واحبسوا البعيدَ عنا لا يأتينا ، والقريبَ منا لا يؤذينا . . الخ »

ثم يطوون هذه الأوراق عل أنها حُجُبٌ وتمائم ، يُفرِّقونها فى البيوت على النساءِ والصِّبيان ، ويتقاضَوْن أَثمانَها دراهم وخبزاً وفطيراً وضروباً من الحَلْوَى ، ويزعُمون للناس أنّ اتّخاذ هذه التمائم والحُجُب يَدفَعُ عنهم أذى هذه الشياطين التى تحمِلها رياح الخماسين . وكان النساء يَتَلَقَّيْنَ هذه الحُجُبَ مطمئنّات إليهـــا ، ولـكنَّ ذلك لم يكن يَمنعهُن من اتقاء العفاريت يوم شَمِّ النسيم بشَقِّ البصل وتعليقه على أبواب الدُّور ، وأكلِ الفول النابت دون غيره من ألوان الطعام فى هذا اليوم .

١٧

وأراد الله أن يَشْقَى « سيِّدنا » بتلميذه شقاءً غيرَ قليل : فلم تَكْفِه تلك الحوادثُ التى كانت تحدُث من حين إلى حين عند ما كان الشيخُ يمتحن الصبىَّ ، ولم تَكْفِه هذه النَّكباتُ المتَّصلة التى نشأت عن عناية الصبىِّ بحِفْظِ الألْفِيَّة وغيرها من المتون ، وجعلتِ الصبىّ ثقيلًا سَمِجاً يتعالَى على أترابه وعلى سيِّده ، ويرى لنفسه مكانةَ العلماء ، ويَعْصِى أوامرَ العريف — لم يكْفِه هذا كلُّه ، بل كانت نكبةٌ أُخرى لم يَكُنِ الرجلُ ينتظرها حقًّا ، وكانت أشدَّ عليه من كلِّ النكباتِ الأُخرى ، لأنَّها مَسَّته فى صِناعته . ذلك أنَّ رجلًا من أهل القاهرة هَبَط المدينةَ فى يومٍ من الأيام على أنه مُفَتِّشٌ للطريق الزراعيَّة . وكان هذا الرجل فى متوسِّط عمره ، وكان « مطربشاً » يتكلم الفِرنْسِيَّة ، وكان يقول : إنه تَخَرَّج فى مدرسة الفنون والصنائع ، وكان خفيفَ الظِّلِّ جَذَّاباً . فما لَبِث

أن أحبَّه الناس ودَعَوْه إلى دُورهم ومَجالسهم . وما لبث أن اتَّصلت الْمَوَدَّةُ بينه وبين أبى الصبىّ . وكان قد رَتَّب « سيِّدَنا » فى بيته يقرأ له سورةً من القرآن فى كلّ يوم ، وجعل له عشرةَ قروش فى كل شهر ، وهو الأجْرُ المرتفع الذى كان يدفعَه وجوهُ الناس . فكان سيِّدنا مُحِبًّا لهذا الرجل مُثْنِيًا عليه . ولكنَّ رَمضانَ أقبل ، وكان الناس يجتمعون فى ليالى رَمضان عند رجلٍ من أهل المدينة وجيهٍ يعمَل فى التِّجارة . وكان سيِّدنا يقرأ القرآن عند هذا الرجل طَوَالَ الشهر . وكان الصبىّ يُرافق سيِّدَنا ويُريحه من حينٍ إلى حين بقراءَة سُورة أو جزءٍ مكانَه . فقرأ ذاتَ ليلةٍ وسمِعه هذا المُفتِّش ، فقال لأبيه : إنَّ ابنك لشديدُ الحاجة إلى تجويدِ القرآن . قال الشيخ سيُجَوِّدُه متى ذهب إلى القاهرة على شيخٍ من شيوخ الأزهر . قال المفتِّش : فأنا أَستطيع أَن أُجَوِّد له القرآن على قراءة حفْصٍ ، حتى إذا ذهب إلى الأزهر كان قد أَلَمَّ بأصول التجويد[1] وسَهُل عليه أن يفرغ للقراءات السَّبْع أو العَشْر أو الأربَع عَشْرَةَ . قال الشيخ : وهل أنت

---

(١) ألم بأصول التجويد : عرفها .

من حملة القرآن ؟ قال المفتِّش : ومِنَ المُجَوِّدين . ولولا أَنِّى مشغول لاستطعتُ أن أُقرئَ ابنَك القرآن على الروايات جميعاً، ولكنِّى أُحِبُّ أَن أُخَصِّصَ له ساعةً فى كلِّ يومٍ فأُقرِئه رواية حفص، وأدْرُسَ له أصولَ الفنّ، وأُعِدَّه بذلك للأزهر إعداداً صحيحاً. قال القوم : وكيف لمطربش يتكلم الفرنسيَّة بحِفْظِ القرآن ورواية القراءات ؟ قال المفتِّش : أنا أزهرىٌّ تَقَدَّمْتُ فى دراسة العلوم الدينية إلى مدًى بعيدٍ، ثم انصرفتُ عنها إلى المدارس، فتخرَّجتُ فى مدرسة الفنون والصنائع. قالوا : فاقْرأْ لنا شيئاً. فنَزَع الرجلُ نَعْلَيْه وتَرَبَّع وَرَتَّل لهم سورةَ هُودٍ ترتيلاً ما سمِعوا مثله. فلا تَسَلْ عن إعجابهم به وإكبارهم إيَّاه، ولا تَسَلْ عمَّا أصاب سيِّدنا من الحزن والغيظ ؛ فقد قضى الرجلُ ليلتَه كأنَّه مصعوق(١).

وأصبح الشيخ فأمر ابنَه بأَن يَخْتَلِفَ(٢) إلى بيت المفتِّش فى كلِّ يوم. وفَرِحَ الصبىُّ بهذا فَرَحًا شديدًا، فأعاده على أترابه فى الكُتَّاب وتحدَّث به الصِّبْيان. ولا تَسَلْ عن مِقدار

---

(١) مصعوق : أصابته صاعقة. (٢) يختلف هنا : يتردد.

ما كان يترك هذا الحديث فى نفس سيِّدنا من الحزن ؛ فقد نَهَرَ[١] الصبىَّ وأمره ألا يذكر اسمَ المفتِّش مرَّة فى الكُتَّاب.

وذهب الصبىُّ إلى بيت المفتِّش ، واتَّصل ذهابُه إلى هذا البيت ، وأَقرأه المفتِّش « تُحْفة الأطفال » وشَرَحَ له أُصول التجويد : علَّمه المدَّ والغنّ والإخفاء والإدغام ، وما يتصل بهذا كله . وكان الصبى مُعْجَباً بهذا العلم ، وكان يتحدَّث به إلى أترابه فى الكتَّاب ، وكان يُبيِّن لهم أن سيِّدنا لا يُحْسِن المدّ ولا يُتْقِنُ الغنّ ، ولا يعرف الفرقَ بين المدّ الكلمِىِّ والحَرْفىّ ، ولا بين المدِّ المُثقَّل والمُخَفَّف . وكانت أصداء هذا كلِّه تصل إلى سيِّدنا فتغُمُّه وتُحْزِنه وتُخْرِجه أحياناً عن طَوْره .

وأخذ الصبىُّ يقرأ القرآن على المفتِّش من أوَّله ، وأَخذ المفتش يُعلِّمه مواضع الوقف والوصل . وأخذ الصبى يُقلِّد المفتِّش فى ترتيله ويحاكى نَغَمه ، وأخذ يقرأ القرآن على هـذا النحو فى الكتَّاب . وجعل أبوه يمتحنه ، فإذا سمعه يقرأ على هذا النحو الجديد أُعْجِب وطرِب وأَثنى على المفتِّش . وما كان

(١) نهره : زجره .

شيء يَغيظ سيِّدنا مثل ما كان يغيظه هذا الثناء .

وقضى الصبيُّ سنةً كاملة يتردَّد على هذا البيت ويقرأ القرآن على المفتِّش ، حتى أتقن التجويدَ برواية حَفْص ، وكاد يبدأ فى رواية وَرْش لولا أن حدثت حوادثُ وسافر الصبيُّ إلى القاهرة.

أكان الصبيُّ يحبُّ الاختلافَ إلى هذا البيت لأنَّه كان يُعْجَبُ بالمفتش، ولأنّه كان يحرص على إتقان القرآن وتجويده ، وعلى أن يَغيظَ سَيِّدَنا ويُظهِر التفوُّق على أترابه ؟ نعم ! فى الشهرين الأوَّلين من هذه السنة ، فأما بعد هذين الشهرين فقد كان يَجْذِبُه إلى بيت المفتش ويُحبِّبه فيه شيء آخر . . .

كان المفتِّش مُتَوَسِّطَ العُمْر قد بلغ الأربعين إن لم يكن قد جاوزها . وكان قد تزوَّج من فتاةٍ لم تَبْلُغ السادسةَ عَشْرَةَ . ولم يكن له ولدٌ ، ولم يكن يَعْمُرُ بيتَه الكبيرَ إلا هذه الفتاةُ وجَدَّةٌ لها قد جاوزتِ الخمسين . فأمَّا حين بدأ الصبيُّ يختلف إلى هذه الدار ، فقد كان يذهب ويعود دون أن يلتفت إليه أحد غيرُ المفتِّش . وما هى إلا أن كَثُرَ تَرَدُّد الصبي حتى أخذتِ الفتاةُ تتحدَّث إليه وتسألُه عن نفسِه وعن أُمِّه وعن إخوته

وعن داره ، وأخذ الصبيُّ يُحِبها مُسْتَحْيِياً ، ثُمَّ مُتَبَسِّطاً ، ثم مطمئناً . واتَّصلتْ بين هذه الفتاة وهذا الصبيِّ مَوَدَّةٌ ساذجة كانت حُلْوَةً فى نفس الصبيِّ لذيذةَ الموقع فى قلبه ، وكانت ثقيلةً على نفس هذه الشيخة ، وكان المفتِّش يجهلها جهلاً تامًّا .

وأخذ الصبيُّ يذهب إلى دار المفتِّش قبل الميعاد ليظفرَ بساعةٍ أو بعضِ ساعةٍ يتحدَّثُ فيها إلى هذه الفتاة ، وأخذتِ الفتاة تنتظره ، حتى إذا أقبل أَخذتْه إلى غُرفتها ، فجلستْ وأَجلسته وتحدَّثا . وما هى إلَّا أَنِ استحال الحديثُ إلى لَعِب ، إلَى لَعب كلعب الصِّبْيان لا أكثرَ ولا أقلَّ ، ولكنه كان لعباً لذيذاً . وقصَّ الصبيُّ هذا كلَّه على أُمِّه، فَضَحِكتْ ورَثَتْ(١) للفتاة قائلةً لأُختِ الصبيِّ : طِفلةٌ زُوِّجتْ من هذا الشيخ لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحدٌ ، فهى ضيِّقة الصَّدْر فى حاجةٍ إلى اللهو والعَبَث .

ومن ذلك اليوم سعتْ أُمُّ الصبيِّ فى التعرُّف إلى هذه الفتاة ، ودعتها إلى البيت وإلى أن تُكْثِرَ التَّرَدُّد عليها .

---

(١) رثت للفتاة : رحمتها ورقت لها .

١٨

وكذلك اتَّصلتْ أيَّامُ الصبيِّ بين البيت والكُتَّاب والمحكمة والمسجد وبيت المُفتِّش ومجالس العلماء وحَلَقاتِ الذِّكْر، لا هي بالْحُلْوة ولا هي بالمُرَّة ، ولكنها تحلو حيناً وتَمُرُّ حيناً آخر ، وتمضى فيما بين ذلك فاترةً سخيفةً . حتى كان يومٌ من الأيَّام ذاقَ الصبيُّ فيه الألمَ حقًّا ، وعَرَف منذ ذلك أنَّ تلك الآلام التى كان يشقى بها ويكْرَهُ من أجلها الحياةَ لم تكن شيئاً . وأنَّ الدهرَ قادرٌ على أنْ يؤلِمَ الناسَ ويُؤْذِيهم ، ويُحَبِّبَ إليهم الحياةَ ويُهَوِّنَ من أمرها على نفوسهم فى وقت واحد . كانت للصبيِّ أُخْتٌ هى صُغْرَى أبناءِ الأُسرة ، كانت فى الرابعة من عمرها .

كانت خفيفةَ الرُّوح طلْقةَ الوَجْه فصيحةَ اللِّسان عَذَبَةَ الحديثِ قَوِيَّةَ الخيال ، كانت لَهْوَ الأُسرة كلِّها ، كانت تخلو إلى نفسها ساعاتٍ طِوالاً فى لهوٍ وعَبَثٍ . تجلس إلى الحائط فتتحدَّث إليه كما تتحدَّث أُمُّها إلى زائراتها ، وتبعَث فى كلِّ اللُّعَب التى

كانت بين يديها رُوحًا قَوِيًّا وتُسْبِـغ عليها شخصيَّة . فهذه اللعْبة امرأةٌ ، وهذه اللّعْبَةُ رجلٌ ، وهذه اللّعْبَةُ فتًى ، وهذه اللّعْبَةُ فتاةٌ ، والطفلة بين هؤلاء الأشخاص جميعاً تذهَب وتجىء ، وتَصِلُ بينها الأحاديثَ مَرَّةً فى لَهْوٍ وَعَبَثٍ ، وأُخرى فى غيظٍ وغَضَبٍ ، ومَرَّةً ثالثةً فى هُدوء واطمئنان . وكانتِ الأُسْرَةُ كلُّها تجِد لَذَّةً قويّة فى الِاسْتماع إلى هذه الأحاديث والنَّظَرِ إلى هذه الألوان من اللّعَب دون أن ترى الطفلةُ أو تستمعَ أو تُحِسَّ أنَّ أحداً يرْقُبها .

فما هى إلا أنْ أقبلتْ بَوادرُ عيدِ الأضْحَى فى سنةٍ من السنين، وأخذتْ أُمُّ الصبىِّ تستعدُّ لهذا العيد ، تُهَيِّىء له الدارَ وتُعِدُّ له الخبز وألوان الفطير . وأخذ إخوةُ الصبىِّ يستعدّون لهذا العيد ، يختلف كبارهم إلى الخيَّاط حيناً ، وإلى الْحذَّاءِ حيناً آخر ، ويلهو صغارُهم بهذه الحركة الطارئة على الدار . فينظر صبيّنا إلى أولئك وهؤلاء فى شىء من الفلسفة كان قد تَعَوَّده ؛ فلم يكن فى حاجةٍ إلى أن يختلف إلى خَيَّاط أو حَذَّاء ، وما كان ميَّالًا إلى اللهو بمثل هذه الحركات الطارئة ، وإنَّما كان يخلو

إلى نفسه ويعيش فى عالم من الخيال يستمده من هذه القصص والكتب المختلفة التى كان يقرؤها فيسرف فى قراءتها .

أقبلت بوادر هذا العيد وأصبحت الطفلة ذات يوم فى شىء من الفتور والهمود لم يكد يلتفت إليه أحد . والأطفال فى القرى ومدن الأقاليم معرضون لهذا النوع من الإهمال ، ولا سيما إذا كانت الأسرة كثيرة العدد وربة البيت كثيرة العمل . ولنساء القرى ومدن الأقاليم فلسفة آثمة وعلم ليس أقل منها إثماً . يشكو الطفل ، وقلما تعنى به أمه . . . وأى طفل لا يشكو! إنما هو يوم وليلة ثم يفيق ويبل(١) فإن عنيت به أمه فهى تزدرى الطبيب أو تجهله ، وهى تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء وأشباه النساء . وعلى هذا النحو فقد صبينا عينيه ؛ أصابه الرمد فأهمل أياماً ، ثم دعى الحلاق فعالجه علاجاً ذهب بعينيه . وعلى هذا النحو فقدت هذه الطفلة الحياة ؛ ظلت فاترة هامدة محمومة يوماً ويوماً ويوماً . وهى ملقاة على فراشها فى ناحية من نواحى الدار ، تعنى بها أمها

---

(١) أبل من مرضه : شفى منه .

أو أختها من حين إلى حين ، تدفع إليها شيئاً من الغذاء الله يعلم أكان جَيِّداً أم رديئاً . والحركة متصلة في البيت : يُهَيَّأ الخبز والفطير في ناحية ، وتُنَظَّف المَنْظَرَةُ وحجرة الاستقبال في ناحية أخرى ، والصِّبيان في لهوهم وعبثهم ، والشبّان في ثيابهم وأحذيتهم ، والشيخ يغدو ويروح ويجلس إلى أصحابه آخرَ النهار وأوّلَ الليل .

حتى إذا كان عصرُ اليوم الرابع وقف هذا كلّه فجأة . وَقَفَ وعرفتْ أمُّ الصبيِّ أن شبَحًا مُخيفاً يحلّق على هذه الدار . ولم يكنِ الموت قد دخل هذه الدارَ من قبلُ ، ولم تكن هذه الأمُّ الحنون قد ذاقتْ لَذْعَ الألم الصحيح . نعم ! كانت في عملها وإذا الطفلةُ تصيحُ صياحًا منكراً ، فتَدَعُ أمُّها كلَّ شيءٍ وتُسْرع إليها . والصِّياح يتَّصِل ويزداد ، فتَدَعُ أخوات الطفلة كلَّ شيءٍ ويُسرعن إليها . والصياح يتصل ويشتدّ ، والطفلة تتلوّى وتضطرب بين ذراعَى أمِّها ، فيدعُ الشيخُ أصحابه ويسرع إليها . والصياح يتصل ويشتدّ ، والطفلة ترتعد ارتعاداً منكراً ويتقبَّض وجهها ويتصبَّب العَرَقُ عليه ،

فينصرف الصِّبيان والشُّبّان عما هم فيه من لهو وحديث ويُسرعون إليها . ولكنّ الصياح لا يزداد إلاّ شدَّةً ، وإذا هذه الأُسرة كلّها واجمةٌ مبهوتة(١) مُحيطةٌ بالطفلة لا تدرى ماذا تصنع ! . . . ويتّصِل ذلك ساعةً وساعةً . فأمَّا الشيخ فقد أخذه الضَّعْفُ الذى يأخذ الرجالَ فى مثل هذه الحال فينصرف مُهَمْهِماً(٢) بصلوات وآيات من القرآن يتوسَّل بها إلى الله وأمّا الشبَّان والصبيان فيتسلّلون فى شىء من الوُجوم لا يكادون ينسَوْن ما كانوا فيه من لهو وحديث ، ولا يكادون يستأنفونه . هم كذلك حيارَى فى الدار، وأُمُّهم جالسةٌ واجمةٌ تُحَدِّق إلى ابنتها وتسقيها ألواناً من الدواء لا أعرف ما هى ، والصِّياحُ متصلٌ مشتدٌّ ، والاِضطرابُ مستمرٌّ متزايد .

ما كنت أحسَبُ أنّ فى الأطفال ولمَّا يتجاوزوا الرابعة قوَّةً تعدِل هذه القوّة . وتأتى ساعة العَشاء وقد مُدَّتِ المائدة ، مَدَّتها كُبرى أخَوات الصبىِّ ، وأقبل الشيخ وبنوه فجلسوا إليها . ولكنَّ صياح الطفلة متصلٌ ، فلا تُمَدُّ يدٌ إلى طعام ، وإنما

(١) واجمة : عابسة مطرقة لشدة الحزن . ومبهوته : متحيرة .
(٢) الهمهمة : الكلام الخفى .

يتفرَّقون جميعاً ، وتُرْفَعُ المائدةُ كما مُدَّتْ ، والطفلة تُصيح وتضطرب ، وأُمُّها تحدِّق إليها حيناً وتبسُط يدها إلى السماء حيناً آخر ، وقد كشفتْ عن رأسها وما كان من عادتها أن تفعل ! ولكنَّ أبواب السماء كانت قد أُغلقت في ذلك اليوم ، فقد سَبَق القضاء بما لا بُدَّ منه . فيستطيعُ الشيخ أن يتلو القرآن ، وتستطيع هذه الأُمّ أن تتضرّع . ومن غريب الأمر أن أحداً من هؤلاءِ الناس جميعاً لم يفكِّر في الطبيب . وتقدَّم الليل وأخذ صِياح الفتاة يهدأ ، وأخذ صوتها يخفُت(١) ، وأخذ اضطرابها يخِفُّ ، وخُيِّل إلى هذه الأُمِّ التَّعِسة أنْ قد سمع الله لها ولزوجها، وأنْ قد أخذتِ الأزمة(٢) تنحلّ . وفي الحق أنّ الأزمة كانت قد أخذت تنحلّ ، وأنّ الله كان قد رأف بهذه الطفلة ، وأنَّ خُفوتَ الصوت وهدوءَ هذا الاِضطراب كانا آيتَيْ هذه الرأفة . تَنْظُرُ الأُمُّ إلى ابنتها فيخيَّل إليها أنها ستنام ثم تنظر فإذا هدوءٌ متصل لاصوتَ ولا حركةَ ، وإنما هو نَفَسٌ خفيفٌ شديد الخِفّة يَتَرَدَّد بين شفتين مفتَّحتين قليلا ، ثم

---

(١) يخفت : يضعف ويسكن . (٢) الأزمة : الشدة .

ينقطع هذا النَّفَسُ وإذا الطفلة قد فارقتِ الحياة .

ماذا كانتِ علّتُها ؟ كيف ذهبتْ بحياتها هذه العلّة ؟ الله وحده يعلم هذا .

وهنا يرتفع صياحٌ آخرُ ويتصلُ ويشتدُّ . وهنا يظهر اضطرابٌ آخر ويتصل ويشتدّ . ولكنه ليس صياحَ الطفلة ولا اضطرابَها ، وإنما هو صياحُ هذه الأُمّ وقد رأَتِ الموت ، واضطرابُها وقد أحسَّتِ الثُّكْلَ(١) . وإذا الشبَّانُ والصِّبيانُ قد فَزِعوا إلى أُمِّهم وسَبَقَهم إليها الشيخ . وإذا هى فى جَزَعٍ وهَلَعٍ ينطِق لسانُها بألْفاظٍ لا صلَةَ بينها ، ويُقَطِّع الدمع صوتَها تقطيعاً ، وإذا هى تلطم خَدَّيْها فى عُنْفٍ متَّصلٍ . وزوجُها مائلٌ أمامها لا ينطِقُ لسانُهُ بحرفٍ ، وإنما تنهمر دموعُه انهماراً . وإذا الجاراتُ والْجيران قد سِمعوا هذا الصياحَ فأقبلوا مسرعين. فأمَّا الشيخ فينصرف إلى الرجال يتقبَّل عزاءهم فى قوَّةٍ وجَلَدٍ . وأما الشبَّان والصبيان فيتفرّقون فى الدار ، قد قَسَت قلوب

---

(١) الثكل : الموت والهلاك ، وفقدان الحبيب أو الولد .

بعضهم فنام ، ورقَّتْ قلوب بعضهم فسَهِر . وأمَّا الأُمُّ ففيماهي فيه من جَزَعٍ وهَلَعٍ ، أمامَها ابنتها هامدةً جامدةً ، تُوَلْوِلُ[1] وتَخمِشُ وجهها وتَصُكُّ صَدْرَها ، ومن حولها بناتُها وجاراتها يصنعن صنيعَها يُوَلْوِلْنَ ويَخْمِشْنَ الوجوه ويَصْكُكْنَ الصدور حتى ينقضى الليل كلّه .

وما أَشد نُكْرَ هذه الساعةِ التى أقبل فيها بعضُ الناس واحتملوا الطفلة ومَضَوْا بها إلى حيث لاتعود ! كان ذلك اليومُ يومَ الأضحى ، وكانتِ الدار قد هُيِّئتْ للعيد ، وكانتِ الضحايا قد أُعِدَّتْ . فيا لَهُ من يوم ، ويا لها من ضحايا ! ويا نكرَها من ساعةٍ حين عادَ الشيخ إلى داره مع الظهر وقد وارَى ابنتَه فى التراب ! . . .

منذ ذلك اليوم اتّصلتِ الأواصرُ[2] بين الحزن و بين هذه الأُسرة . فما هى إلا أشهرٌ حتى فَقَد الشيخ أَباه الهَرِم . وما

---

(١) الولولة : الإعوال والبكاء . الخمش : اللطم والضرب . والصك هنا : الضرب الشديد .

(٢) الأواصر هنا : العلائق والصلات .

هى إلا أشهر أخرى حتى فقدت أمُّ الصبىّ أمَّها الفانية[١] وإنما هو حِدادٌ[٢] متصلٌ وألَمٌ يقفو[٣] بعضُه بعضاً ، منه اللاذع ومنه الهادئ . حتى كان هذا اليومُ المُنكَرُ الذى لم تعرف الأُسْرة يوماً مثلَه ، والذى طبع حياتَها بطابَعٍ من الْحُزن لم يُفارقها والذى ابيضَّ له شَعرُ الأبوين جميعاً ، والذى قضى على هذه الأمِّ أنْ تَلبَسَ السَّوادَ إلى آخر أيامها ، وألّا تذوق للفرح طعماً ، ولا تضحَكَ إلّا بكتْ إثرَ ضَحِكها ، ولا تنام حتى تُريق بعض الدموع ، ولا تُفيق من نومها حتى تُريق دموعًا[٤] أُخرى ، ولا تَطْعَمَ فاكهة حتى تُطْعِمَ منها الفقراءَ والصبيان ، ولا تبتسم لعيدٍ ولا تستقبل يومَ سرورٍ إلّا وهى كارهة راغمة.

كان هذا اليومُ يومَ ٢١ أغسطس من سنة ١٩٠٢ . وكان الصيف منكراً فى هذه السنة . وكان وباء الكوليرا قد هبط مصر ففَتَك بأهلها فتكاً ذريعاً[٥] ، ودمّر مدناً وقُرًى ، ومحا أُسَرًا

---

(١) الفانية : التى بلغت أرذل العمر . (٢) حدت المرأة تحدت المرأة تحد (كضرب ونصر) حدا وحدادا : تركت الزينة لموت زوج أو حبيب . والمراد بالحداد هنا الحزن . (٣) يقفو : يتبع . (٤) الإراقة : الصب . يريد حينما تذرف دموعاً غزيرة . (٥) ذريعاً : سريعاً فاشياً .

كاملة . وكان « سيِّدنا » قد أكثر من الْحُجُب وكتابة المخلَّفات ، وكانتِ المدارسُ والكتاتيب قد أُقفلت ، وكان الأطبّاء ورُسُل مصلحة الصحة قَدِ انبثُّوا(١) فى الأرض ومعهم أدواتهم وخيامهم يَحْجِزُون فيها المرضى ، وكان الهَلَعُ قد ملأ النفوس واستأثر بالقلوب ، وكانتِ الحياة قد هانت على الناس ، وكانت كلُّ أُسرة تتحدَّث بما أصاب الأُسَرَ الأُخرى وتنتظر حظَّها من المصيبة . وكانت أُمُّ الصبى فى هلع مستمرٍّ ، وكانت تسأل نفسها ألفَ مَرَّةٍ فى كلِّ يومٍ بمن تنزل النازلة من أبنائها وبناتها . وكان لها ابنٌ فى الثامنةَ عَشْرَةَ ، جميلُ المَنْظَر رائع الطلعة نجيبٌ ذكىُّ القلب ، وكان أنجبَ الأُسرة وأذكاها وأرقَّها قلباً ، وأصفاها طبعاً ، وأبرَّها بأمِّه ، وأرأفها بأبيه ، وأرفقها بصغار إخوته وأخواته ، وكان مبتهجاً دائماً ، وكان قد ظفِر بشهادة « البكالوريا » وانتسب إلى مدرسة الطب ، وأخذ ينتظر آخر الصيف ليذهب إلى القاهرة . فلمَّا كان هذا الوباء ، اتَّصل بطبيب المدينة وأخذ يُرافقه ويقول : إنه يتمرَّن

(١) انبثوا : انتشروا .

على صناعته ، حتى كان يوم ٢١ أغسطس .

أقبل الشابُّ آخر هذا اليوم كعادته باسماً ، فلاطف أُمَّه وداعبها وهدّأ من رَوْعها وقال: لم تُصَبِ المدينةُ اليومَ بأَكثر من عشرين إصابةً ، وقد أخذتْ وطأة الوباء تَخِفّ ، ولكنه مع ذلك شكا من بعض الغَثَيان(١) ، وخرج إلى أبيه فجلس إليه وحدَّثه كعادته ، ثم ذهب إلى أصحابه فرافقهم إلى حيث كان يذهب معهم فى كلّ يوم عند شاطئ الإبراهيمية . فلما كان أوَّلُ الليل عاد وقضى ساعةً فى ضحك وعبث مع إخوته . وفى هذه الليلة زعم لأهل البيت جميعاً أنَّ فى أكل الثّوم وقايةً من الكوليرا ، وأكَلَ الثّومَ وأخذ كبارَ إخوته وصغارَهم بالأكل منه ، وحاول أن يُقنِعَ أبويه بذلك فلم يُوَفَّق .

وكانت الدار هادئةً مُغرِقة فى النوم كبارُها وصغارُها وحيوانها عندما انتصف الليل . ولكنَّ صيحة غريبة ملأت هذا الجوّ الهادئ ، فهبَّ(٢) لها القوم جميعاً . فأمَّا الشيخ وزوجته

---

(١) غثت النفس غثيا وغثيانا : خبثت واضطربت حتى تكاد تتقيأ .

(٢) هب القوم : انتبهوا من النوم .

فكانا فى هذا الدِّهليز المنبسط الذى تُظِلّه السماء يدعوان ابنهما باسمه . وأمّا الشبّان من أهل الدار فكانوا يَثِبُون من فراشهم مسرعين إلى حيثُ الصوت . وأمَّا الصبيان فكانوا يجلسون يَحُكّون أعينهم بأيديهم يحاولون أن يتبيَّنوا فى شىء من الهلع من أين يأتى الصوتُ وماذا كانتِ الحركة الغريبة !

وكان مصدرُ هذا كله صوتَ هذا الفتى وهو يعالج القىء . وكان الفتى قضى ساعةً أو ساعتين يخرج من الحجرة على أطراف قدميه ويمضى إلى الخلاء ليقىء مجتهدًا ألا يوقظ أحداً . حتى إذا بلغتِ العلَّة منه أقصاها لم يملك نفسه ولم يستطع أن يقىء فى لطف ، فسمع أبواه هذه الحَشْرجةَ ففزِعا لها وفزع معهما أهلُ الدار جميعاً .

إذن فقد أُصيب الشابُّ ، ووجد الوباء طريقه إلى الدار ، وعرفت أُمُّ الفتى بأىِّ أبنائها تنزل النازلة . لقد كان الشيخ فى تلك الليلة خليقاً بالإعجاب حقًّا . كان هادئًا رزينًا مُرَوَّعًا مع ذلك ، ولكنه يملك نفسه . وكان فى صوته شىء يدل على أنّ قلبه مفطور ، وعلى أنه مع ذلك جَلْدٌ مستعدٌّ لاحتمال النازلة .

آوى ابنَه إلى حُجرته ، وأمر بالفصل بينه وبين بقية إخوته ، وخرج مسرعًا فدعا جارين من جيرانه ، وما هى إلَّا ساعة حتى عاد ومعه الطبيب .

وفى أثناء ذلك كانت أمُّ الفتى مُروّعةً جَلدةً مؤمنةً تُعْنَى بابنها ، حتى إذا أمهله القئ خرجتْ إلى الدِّهليز فرفعت يدها ووجهها إلى السماء وفنيتْ فى الدعاء والصلاة ، حتى تسمع حشرجة القئ فتُسرع إلى ابنها تُسنده إلى صدرها وتأخذ رأسه بين يديها ، ولسانُها مع ذلك لا يَكُفُّ عن الدعاء والِابتهال .

ولم تستطع أن تحول بين الصبيان والشبَّان وبين المريض ، فملؤا عليه الحجرة وأحاطوا به واجمين ، وهو يُداعب أُمَّه كلما أمهله القئ ، ويعبث مع صغار إخوته . حتى إذا جاء الطبيب فوصَف ما وصف وأمر بما أمر وانصرف على أن يعودَ مع الصبح ، لَزِمتْ أُمُّ الفتى حجرة ابنها ، وجلس الشيخ قريبًا من هذه الحجرة واجمًا لا يدعو ولا يصلِّى ولا يُجيب أحداً من الذين كانوا يتحدَّثون إليه .

وأقبل الصبح بعد لأيٍ، وأخذ الفتى يشكو ألمًا فى ساقيْه .

وأقبلتْ إليه أخَواته يدلُكْنَ له ساقيْه ، وهو يشكو صائحًا مَرَّةً كاتِمًا ألَمَه ومرّةً أخرى القَىْء بجُهْده ويَخْلَع في الوقت نَفْسه قلبَ أبويه . وقضتِ الأسرةُ كلُّها صَباحًا لم تقضِ مثلَه قطّ : صَباحًا واجمًا مظلمًا فيه شيء مُفْزِع مُروِّع . فأمّا خارجُ الدار فكان يزدحم بالناس ، أقبلوا إلى الشيخ يُواسونه . وأمَّا داخلُ الدار فكان يزدحم بالنساء أقبلن يُواسين أُمَّ الفتى . وكان الشيخ وزوجه عن أولئك وهؤلاء في شُغل . وكان الطبيب يَتَرَدد بين ساعةٍ وساعة . وكان الفتى قد طلب أن يُبْرَق إلى أخيه الأزهريِّ في القاهرة وإلى عَمِّه في أعلى الإقليم . وكان يطلُب الساعةَ من حينٍ إلى حين ينظُر فيها كأنَّه يتعجَّل الوقتَ ، وكأنه يُشفق أن يموت دون أن يرى أخاه الشابَّ وعمَّه الشيخ . يا لَها من ساعةٍ منكرةٍ هذه الساعة الثالثة من الخميس ٢١ أغسطس سنة ١٩٠٢ .

انصرف الطبيب من الُحجْرة يائسًا ، وكأنَّه قد أسَرَّ إلى رجلين من أقرب أصحاب الشيخ إليه بأنّ الفتى يُحْتَضَر (١) فأقبل

---

(١) يحتضر : يحضره الموت .

الرجلان حتَّى دخلا الحجرة على الفتى ومعه أُمُّه . ظهرتْ فى هذا اليوم لأوّل مَرَّةٍ فى حياتها أمامَ الرجال .

والفتى فى سريره يَتَضَوّر(١) ، يقف ثم يُلْقِى بنَفْسِه ، ثم يجلس ثم يطلُب الساعة ، ثم يُعالج القىء ، وأُمُّه واجمة ، والرجلان يُواسيانه وهو يُجيبهما : لستُ خيراً من النبيِّ . أليس النبيُّ قد مات ! ويدعو أباه يريد أن يُواسيه فلا يُجيبه الشيخ . وهو يقوم ويقعد ويُلْقِى نَفْسَه فى السِّرير مَرّةً ومن دون السرير مَرّةً أُخرى . وصبيّنا منزو فى ناحية من هذه الحجرة ، واجمٌ كئيب دَهِشٌ يُمَزِّق الْحُزْنُ قلبَه تمزيقاً .

ثم ألقى الفتى نَفْسَه على السرير وعَجَز عن الحركة ، وأخذَ يئنُّ أنيناً يَخْفُتُ من حين إلى حين . وكان صوت هذا الأنين يَبْعُدُ شيئاً فشيئاً . وإنّ الصبيَّ لَيَنْسَى كلَّ شىء قبل أن ينسى هذه الأنَّة الأخيرةَ التى أرسلها الفتى نحيلةً ضئيلةً طويلةً ثم سكت . فى هذه اللحظة نهضت أُمُّ الفتى وقد انتهى صبرها ووَهَى(٢)

(١) يتضور : يتلوى .

(٢) وهى : ضعف .

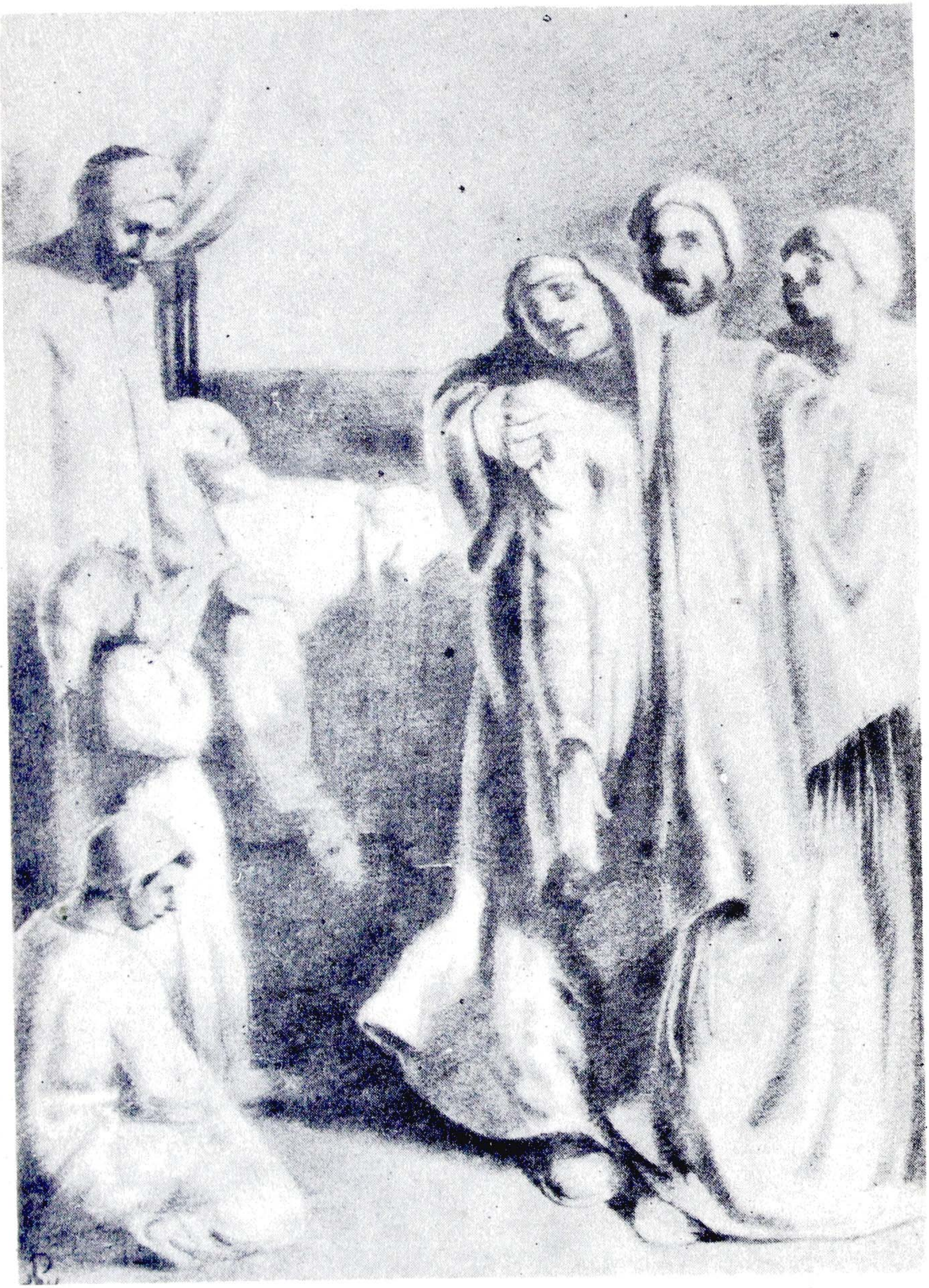

جَلَدُها ، فلم تكد تقف حتى هَوَتْ[١] أو كادت ، وأسندها الرجلان ، فتمالكتْ نَفْسَها وخرجت من الحجرة مُطْرِقةً ساعيةً فى هدوء ، حتى إذا جاوزتها انبعثتْ من صدرها شكاةٌ لا يذكرها الصبىُّ إلا انخلع لها قلبه انخلاعًا . واضطرب الفتى قليلًا ، ومرّتْ فى جِسْمه رعدةٌ تَبِعها سكوتُ الموت . وأقبل الرجلان إليه فهيَّآه وعَصَباه وألقيا على وجهه لِثامًا، وخرجا إلى الشيخ ثم ذكر أنَّ الصبىَّ مُنْزَوٍ فى ناحية من نواحى الحجرة ، فعاد أحدهما إليه فَجَذَبه جَذْبًا وهو ذاهلٌ ، حتى انتهى به إلى مكان بين الناس فوضعه فيه كما يُوضَعُ الشىءُ .

وما هى إلَّا ساعةٌ أو بعضُ ساعةٍ حتَّى هُيِّئ الفتى للدَّفْن وخرج الرجال به على أعناقهم .

فيا لِلْقضاء ! ما كادوا يبلُغون به باب الدار حتى كان أوَّلُ مَنْ لَقِى النَّعْشَ هذا العمّ الشيخَ الذى كان الفتى يتمهَّل الموتَ دقائقَ ليراه .

من ذلك اليوم استقرّ الحزن العميقُ فى هذا الدار ، وأصبح

---

(١) هوى : سقط .

إظهارُ الِابْتهاج أو السرورِ بأىِّ حادثٍ من الحوادث شيئًا ينبغى أن يتجنَّبه الشبَّان والأطفال جميعًا .

من ذلك اليوم تَعَوَّدَ الشيخ ألَّا يجلسَ إلى غَدائه ولا إلى عَشائه حتى يذكر ابنه ويَبْكيه ساعةً أو بعضَ ساعة، وأمامه امرأته تُعينه على البكاء ، ومن حوله أبناؤه وبناتُه يُحاولون تعزيةَ هذين الأبوين فلا يبلغون منهما شيئًا ، فيُجْهِشُون جميعًا بالبكاء(١) .

من ذلك اليوم تَعَوَّدتْ هذه الأُسرةُ أن تَعْبُرَ النِّيل إلى مقرِّ الموتى من حين إلى حين ، وكانت من قبل ذلكَ تَعيب الذين يزورون الموتى .

ومن ذلك اليوم تغيَّرت نفسيَّة صبيِّنا تَغَيُّراً تامًّا . . عَرَف اللهَ حقًّا ، وحَرَص على أن يتقرَّب إليه بكلِّ ألوان التقرُّب : بالصَّدقة حينًا ، وبالصلاة حينًا آخر ، وبتلاوة القرآن مرةً ثالثةً . ولقد شهد الله ما كان يدفعه إلى ذلك خوفٌ ولا إشفاق ولا إيثارٌ للحياة ، ولكنَّه كان يعلَم أنَّ أخاه الشابَّ كان من

---

(١) أجهش بالبكاء : هم به وتهيأ له .

أبناء المدارس ، وكان يُقَصِّرُ فى أداء واجباته الدينية ؛ فكان الصبيُّ يأتى ما يأتى من ضروب العبادة يريد أن يَحُطَّ عن أخيه بعضَ السيِّئات . كان أخوه فى الثامنةَ عَشْرةَ من عمره ، وكان الصبيُّ قد سمع من الشيوخ أنَّ الصلاة والصوم فرضٌ على الإنسان متى بَلَغ الخامسةَ عَشْرةَ . فقدَّر الصبيُّ فى نفسه أنَّ أخاه مَدِينٌ لله بالصوم والصلاة ثلاثةَ أعوام كاملة ، وفَرَضَ الصبيّ على نفسه لَيُصَلِّيَنَّ الخمسَ فى كلِّ يوم مرَّتين : مرةً لنفسه ومرةً لأخيه، ولَيَصُومَنَّ من السنة شهرين : شهراً لنفسه وشهراً لأخيه ، ولَيَكْتُمَنَّ ذلك عن أهله جميعًا ، ولَيَجْعَلَنَّ ذلك عهداً بينه وبين الله خاصَّة ، ولَيُطْعِمَنَّ فقيراً أو يتيماً مما تصل إليه يدُه من طعام أو فاكهة قبل أن يأخذَ بحظِّه منه . وشهد الله لقد وَفَى الصبيُّ بهذا العهد أشهراً ، وما غيَّر سيرته هذه إلَّا حين ذهب إلى الأزهر .

من ذلك اليوم عرَفَ الصبيُّ أرَقَ اللَّيل؛ فكم أنفق سوادَ الليل كاملًا يفكِّر فى أخيه أو يقرأ سورةَ الإخلاص آلافَ المرات ، ثم يهَبُ ذلك كله لأخيه، أو يَنْظِم شعراً على نحو هذا

الشعر الذى كان يَقْرَؤه فى كُتبِ القَصَص يذكر فيه حُزْنه وألمه لفقد أخيه ، معنيًّا بألَّا يَفرُغَ من قصيدةٍ حتى يُصَلِّى فى آخرها على النبيِّ ، واهبًا ثوابَ هذه الصلاةِ لأخيه .

نعم ! ومن ذلك اليوم عرَفَ الصبىُّ الأحلامَ المُرَوِّعة ؛ فقد كانت علَّة أخيه تتمثَّل له فى كلِّ ليلة . واستمرّت الحالُ كذلك أعوامًا . ثم تقدَّمتْ به السنُّ ، وعمل فيه الأزهر عَمله ، فأخذتْ عِلَّةُ أخيه تتمثَّل له من حين إلى حين . وأصبح فتًى ورجلًا ، وتَقَلَّبتْ به أطوارُ الحياة ، وأنه لعلى ما هو عليه من وَفاءٍ لهذا الأخ ، يذكُره ويراه فيما يرى النائم مرةً فى الأُسبوع على أقلِّ تقدير .

ولقد تَعزَّى عن هذا الفتى إخوته وأَخَواته ، ونَسِيه مَنْ نسيه من أصحابه وأترابه ، وأخذتْ ذكراه لا تزور أباه الشيخ إلا لِمامًا . ولكنَّ اثنين يَذْكرانه دائمًا ، وسيذكرانه أبدًا أوّلَ الليل من كلِّ يوم : هما أُمّه وهذا الصبىُّ .

« أمَّا فى هذه المرَّة فستذهب إلى القاهرة مع أخيك ، وستُصْبِحُ مجاوراً، وستجتهد فى طَلَب العلم. وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً ، وأراك من علماء الأزهر ، قد جلستَ إلى أحد أعْمِدته ومِنْ حولك حَلقةٌ واسعةٌ بعيدةُ المدى . »

قال الشيخ ذلك لابنه آخِرَ النهار فى يوم من خريف سنة ١٩٠٢ ، وسمع الصبيُّ هذا الكلام فلم يُصَدِّق ولم يُكَذِّب، ولكنَّه آثر[١] أن ينتظر تصديقَ الأيام أو تكذيبَها له . فكثيراً ماقال له أبوه مثلَ هذا الكلام، وكثيراً ما وعده أخوه الأزهريّ مثلَ هذا الوعد ، ثم سافر الأزهرى إلى القاهرة ، ولبث الصبيّ فى المدينة يَتَرَدَّد بين البيت والكتَّاب والمحكمة ومجالس الشيوخ .

وفى الحق أنَّه لم يفهم لماذا صدَّق وَعْدَ أبيه فى هذه السنة؛ فقد أخبر الصبيّ ذاتَ يومٍ أنه مسافرٌ بعدَ أيام . وأقبل يومُ

(١) آثر : فضل .

الخميس، فإذا الصبيُّ يرى نفسه يتأهَّب للسفر حقًّا، وإذا هو يرى نفسَه في المحطة ولمَّا تشرقِ الشمس. وهو يرى نفسه جالسًا القُرْفُصاء مُنكَّسَ الرأس كَئيبًا محزونًا، ويسمَع أكبرَ إخوته يَنْهَرُه في لُطفٍ قائلًا له: لا تُنَكِّسْ رأسك هكذا، ولا تأخُذْ هذا الوجهَ الحزين فتُحزِنَ أخاك. ويسمع أباه يُشَجِّعه في لطف قائلًا: ماذا يُحْزِنك؟ أَلستَ رجلًا؟ أَلستَ قادرًا على أن تُفارق أُمَّك؟ أم أنت تُريد أن تلعب! أَلم يَكْفِك هذا اللعبُ الطويل؟!

شهد الله ما كان الصبيُّ حزينًا لِفراق أُمِّه. وما كان الصبيُّ حزينًا لأنه لن يلعب، إنما كان يذكر هذا الذي ينام هنالكَ من وراء النِّيل كان يذكُره، وكان يذكر أنه كثيرًا ما فكر في أنه سيكون معهما في القاهرة تلميذًا في مدرسة الطب. كان يذكر هذا كلَّه فَيَحْزَن، ولكنه لم يَقُلْ شيئًا ولم يُظْهِرْ حُزْنًا، وإنَّما تكلَّف الابتسامَ. ولو قد أَرسلَ نَفْسَه مع طبيعتها لبكى ولأبكى مِنْ حوله أباه وأخَوَيه.

وانطلق القِطار ومضتْ ساعاتٌ، ورأى صاحبُنا نفسَه في القاهرة بين جماعةٍ من المجاورين قد أقبلوا إلى أخيه فحيَّوْه، وأكلوا ما كان قد احتمله لهم من طعام.

انقضى هذا اليوم ، وكان يومُ الجمعة ، وإذا الصبيُّ يرى نفسَه فى الأزهر للصلاة . وإذا هو يسمَع الخطيبَ شيخاً ضَخمَ الصوت عاليه ، فَخْمَ الرّاءات والقافات ، لا فرْقَ بينه وبين خطيب المدينة إلَّا فى هذا . فأمّا الخطبة فهى ما كان تَعَوّد أن يسمَع فى المدينة . وأمّا الحديث فهو هو . وأمَّا النعت فهو هو . وأمّا الصلاة فهى هى: ليست أطولَ من صلاة المدينة ولا أقصرَ .

وعاد الصبيّ إلى بيته ، أو قلْ إلى حجْرة أخيه ، خائبَ الظن بعضَ الشيء . وسأله أخوه : ما رَأْيُكَ فى تجويد القرآن ودرس القِراءات ؟ قال الصبيّ : لستُ فى حاجة إلى شىء من هذا . فأمّا التجويد فأنا أُتْقِنه . وأمَّا القراءات فلست فى حاجة إليها . وهل درستَ أنت القراءات ؟ أليس يَكفينى أن أكونَ مثلَك ؟ إنما أنا فى حاجةٍ إلى العلم ، أريد أن أدْرُسَ الفقه والنحوَ والمنطق والتوحيد .

قال أخوه : حَسْبُك ! يكفى أن تدرس الفقه والنحو فى هذه السنة .

وكان يومُ السبت ، فاستيقظ الصبى مع الفجر ، وتَوَضّأ وصلَّى ، ونَهَض أخوه فتوضأ وصلى كذلك ، ثم قال له : ستذهب

معى الآن إلى مسجد كذا ، وستحضر درساً ليس لك وإنما هو لى ، حتّى إذا فرَغْنا من هذا الدَّرْس ذهبتُ بك إلى الأزهر ، فالتمست لك شيخًا من أصحابنا تختلف إليه وتأخذ عنه مبادئ العلم . قال الصبيّ : وما هذا الدرس الذى سأحضُرُه ؟ قال أخوه ضاحكا : هو دَرْسُ الفقه وهو ابن عابدين على الدُّرّ ، قال ذلك يملأ به فَمَه. قال الصبىّ : ومَنِ الشيخُ ؟ قال أخوه : هو الشيخ... وكان الصبي قد سَمِع اسمَ الشيخ . . . ألفَ مرّة ومرّة فقد كان أبوه يذكر هذا الاِسم ، ويفتخر بأنه عَرَف الشيخَ حين كان قاضيًا للإقليم . وكانت أُمّه تذكر هذا الاِسم ، وتذكر أنها عَرَفت امرأته فتاةً هوجاء جِلفةً ، تتكلَّف زِىّ أهل المدن وماهى من زىّ أهل المُدُن فى شىء . وكان أبو الصبىّ يسأل ابنه الأزهرىّ كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه وكان ابنه الأزهرى يُحدِّثه عن الشيخ ومكانته فى المحكمة العليا وحَلْقته التى تُعَدّ بالمئات . وكان الصبىّ يُلِحُّ على ابنه الأزهرىَ فى أن يَقرَأ كما كان يقرأ الشيخ، فيُحاول الفتى تقليدَه ، فيضحَك أبوه فى إعجاب وإكبار . وكان أبو الصبىّ يسأل ابنَه : أيَعْرِفك الشيخ ؟ فيُجيب الفتى : وكيف لا ! وأنا ورِفاقى من أخصّ

تلاميذه وآثرهم(١) عنده ! نحضُر درسَه العام ثم نحضُر عليه درساً خاصًّا فى بيته، وكثيراً ما نتغدَّى لِنعْمَلَ معه بعد ذلك فى كتبه الكثيرة التى يُؤَلِّفها . ثم يمضِى الفتى فى وصف بيت الشيخ وحُجْرة استقباله ودار كتبه ، وأبوه يسمَع ذلك مُعْجَبًا ، حتى إذا خرج إلى أصحابه قصَّ عليهم ما سمِع من ابنه فى شىء من التِّيه والفخار .

كان الصبىُّ إذن يعرف الشيخ ، وكان سعيداً بالذِّهاب إلى حَلْقته والاِستماعِ له . وكم كان مبتهجاً حين خَلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرُّخام ثم على هذا البِساط الرّقيق الذى فُرِش به المسجد ! وكم كان سعيداً حين أخذ مكانه فى الحَلْقة على هذا البِساط إلى جانب عمود من الرُّخام ، لَمَسه فأحَبَّ مَلاسَتَه ونُعومته ، وأَطال التفكير فى قول أبيه : « إنى لأرجو أن أعيش حتَّى أرى أخاك قاضيًا وأراك صاحبَ عمود فى الأزهر » . وفيما هو يفكِّر فى هذا ويتمنَّى أن يَمَسَّ أعمدة الأزهر ليرى أهى كأعمدة هذا المسجد ، ولِلطلّاب مِنْ حولِه دَوِىٌّ غريبٌ ، أحسَّ أنّ هذا الدوىّ يَخفُت ثم ينقطع ، وغمزه

(١) آثرهم عنده : أكرمهم وأفضلهم .

أخوه بيده قائلًا فى صوت خافت : لقد أَقبل الشيخ . اجتمعت شخصيَّة الصبيِّ كلها حينئذ فى أُذنيه وأنصت . ماذا يسمع ؟ يسمَع صوتًا خافتًا هادئًا رزينًا مِلْؤُه شيء قُلْ إنه الكِبْر ، أوقُلْ إنه الجلال ، أو قلْ إنه ما شئت ، ولكنه شيء غريب لم يحبَّه الصبى . ولبث الصبيُّ دقائقَ لا يُمَيِّز مما يقول الشيخ حرفًا . حتى إذا تَعَوَّدَتْ أُذناه صوتَ الشيخ وصَدَى المكانِ سَمِع وتبيَّن وفَهِم . وقد أقسَم لى بعد ذلك أنه احتقرَ العلمَ منذ ذلك اليوم . سَمع الشيخ يقول : « ولو قال لها أنت طَلَاقٌ أو أنت ظَلَامٌ أو أنت طَلَالٌ أو أنت طَلَاةٌ ، وَقَع الطَّلَاقُ ولا عِبْرةَ بتغيُّر اللفظ » . يقول ذلك مُتَغَنِّيًا به مُرَتِّلًا له ترتيلًا فى صوت لا يخلو من حَشْرَجةٍ ، ولكنَّ صاحبه يحتال أن يجعله عَذبًا . ثم يَخْتم هذا الغناءَ بهذه الكلمة التى أعادها طوالَ الدَّرْس : « فاهم يا أدَع » . وأخذ الصبيُّ يسأل نفسه عن « الأَدَع » هذا ما هو . حتى إذا انصرفَ عن الدرس سأل أخاه : ما الأدع ؟ فَقَهْقه أخوه وقال : الأَدَعُ الجَدَعُ ، فى لغة الشيخ .

ومضى به بعد ذلك إلى الأزهر ، فَقَدَّمه إلى أُستاذه الذى علّمه مبادئ الفقه والنحو سنة كاملة .

٢٠

إنكِ يا ابنتى لَساذجةٌ سليمةُ القلبِ طَيِّبةُ النَّفْس . أنتِ فى التاسعةِ من عُمْركِ ، فى هذه السِّنّ التى يُعْجَبُ فيها الأطفال بآبائهم وأُمَّهاتهم ، ويَتَّخِذُونهم مُثُلًا عُلْيَا فى الحياة : يتأثّرونهم[1] فى القول والعمل ، ويُحاولون أن يكونوا مِثْلَهم فى كل شىء ، ويُفاخرون بهم إذا تحدَّثوا إلى أقرانهم أثناء اللَّعب ، ويُخَيَّل إليهم أنَّهم كانوا أثناءَ طُفولتهم كما هُمُ الآنَ مُثُلًا عُلْيَا يَصْلُحون أن يكونوا قُدْوَةً حَسَنةً وأُسْوةً صالحةً .

أليس الأمر كما أقول ؟ ألستِ تَرَيْنَ أنَّ أباكِ خيرُ الرجال وأكرمهم ؟ ألستِ ترين أنه قد كان كذلك خيرَ الأطفال وأنبلَهم ؟ ألستِ مقتنعةً أنه كان يعيش كما تعيشين أو خيراً مما تعيشين ؟ ألستِ تُحِبِّين أن تعيشى الآن كما كان يعيش أبوكِ حين كان فى الثامنة من عمره ؟ ومع ذلك فإنَّ أباكِ يَبْذُل

---

(١) تأثره : تبع أثره .

من الجَهْد ما يَمْلك وما لا يَمْلِك ، ويتكلف من المَشَقَّة ما يُطِيق وما لا يطيق ، لِيَجْنُبَكِ حياتَه حين كان صبيًّا .

لقد عرفتُه يا ابنتى فى هذا الطَّوْر من أطوار حياته . ولو أَنِّى حَدَّثتك بما كان عليه حينئذ لَكَذَّبتُ كثيراً من ظنِّك ، ولَخَيَّبتُ كثيراً من أَمَلِك ، ولفتحتُ إلى قلبك السَّاذَج ونَفْسِك الحُلْوة باباً من أبواب الحُزْن ، حَرامٌ أن يُفْتَحَ إليهما وأنت فى هذا الطور اللذيذ من الحياة . ولكنِّى لن أُحَدِّثك بشىء مما كان عليه أبوك فى ذلك الطور الآن . لن أُحَدِّثك بشىء من هذا حتى تتقدَّم بك السنُّ قليلا ، فتستطيعين أن تقرَئى وتفهَمى وتحْكمى ، ويومئذ تستطيعين أن تعرِفى أنَّ أباك أحبّك حقًّا ، وجَدَّ فى إسعادك حقًّا ، ووُفِّق بعضَ التوفيق لِأَنْ يَجْنُبَك طفولتَه وصباه .

نعم يا ابنتى ! لقد عرفتُ أباك فى هذا الطور من حياتِه . وإنى لأعرف أنَّ فى قلبك رِقَّة وليناً . وإنى لأخشى لو حدَّثتك بما عرفتُ من أمر أبيك حينئذ أن يَمْلِكَكِ الإشفاق وتأخُذَك الرأفة فتجْهِشِى بالبكاء .

لقد رأيتك ذاتَ يومٍ جالسةً على حِجْر أبيك وهو يَقُصُّ عليكِ قصَّة « أوديب مَلِكاً » وقد خرج من قَصْره بعد أن فَقَأ عينيه لا يدرى كيف يسير ، وأقبلتِ ابنته « أنتيجون » فقادتْه وأرشدته . رأيتُك ذلك اليومَ تسمعين هذه القصة مبتهجةً من أوَّلها ، ثم أخذ لونك يتغيَّر قليلاً قليلاً وأخذتْ جَبْهَتَك السَّمْحَةُ تَرْبَدُّ(١) شيئاً فشيئاً . وما هى إلا أنْ أجهشتِ بالبكاء وانكببتِ على أبيك لَثْماً وتقبيلاً ، وأقبلتْ أُمُّك فانتزعتْكِ من بين ذِراعيه ، وما زالتْ بك حتى هدأ رَوْعُك . وفَهِمتْ أُمُّك وفَهِم أبوك وفَهِمتُ أنا أيضًا أَنَّك إنَّما بكيتِ لأنك رأيتِ أوديب الملك كأبيك مكفوفاً لا يُبصر ولا يستطيع أن يهتدى وحدَه ، فبكيتِ لأبيك كما بكيت « لأوديب » .

نعم ! وإنى لأعرف أَنَّ فيك عَبَثَ الأطفال ومَيْلَهم إلى اللهو والضَّحِك وشيئاً من قَسْوتهم ، وإنى لأخشى يا ابنتى إنْ حَدَّثتُك بما كان عليه أبوك فى بعض أطوار صِبَاه أَن

---

(١) تربد : تتغير وتعبس .

تَضْحَكى منه قاسيةً لاهيةً . وما أُحِبُّ أَن يَضْحَكَ طفلٌ من أبيه ، وما أُحبُّ أن يَلْهوَ به أو يقسوَ عليه . ومع ذلك فقد عرفتُ أباكِ فى طور من أطوار حياته أستطيع أن أُحدِّثك به دون أن أُثير فى نفسك حزنا ، ودون أن أُغريك بالضحك أو اللهو .

عرفته فى الثالثةَ عَشْرَةَ من عُمْره حين أُرْسِلَ إِلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر ، إنْ كان فى ذلك الوقتِ لَصَبِىَّ جِدٍّ وَعَمَلٍ (١) . كان نحيفاً شاحبَ اللَّون مُهْمَلَ الزِّىِّ أقرب إلى الفَقْر منه إلى الغِنَى ، تَقْتَحِمه (٢) العين اقتحامًا فى عَباءته القَذِرة وطاقيَّته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفى هذا القميصِ الذى يَبِينُ من تحت عَباءته وقد اتّخذ ألوانًا مختلفةً من كثرة ما سَقَط عليه من الطعام ، وفى نَعْلَيْه الباليتين المُرَقَّعَتَيْن . تقتحمه العين فى هذا كلّه ، ولكنها تبتسم له حين

---

(١) أى إنه كان فى ذلك الوقت صبى جد وعمل . فـ « إن » هى المؤكدة وقد خففت بالتسكين . وإذا خففت بطل عملها ولكن معناها وهو التوكيد باق ، وتثبت لام فى الجملة بعدها لتدل على ذلك . ومن ذلك فى القرآن « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك » أى أنهم كادوا يفتنونك .

(٢) تقتحمه العين : تحتقره وتزدريه .

تراه على ما هو عليه من حال رَثَّةٍ (١) وبَصَرٍ مكفوفٍ ، واضحَ الجبين مبتسم الثغر مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خُطاه ولا يَترَدَّد فى مِشْيته ، ولا تظهَر على وجهه هذه الظُلْمةُ التى تَغْشَى (٢) عادةً وجوهَ المكفوفين . تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتَلْحَظُهُ فى شىءٍ من الرِّفْق ، حين تراه فى حَلْقة الدرس مُصْغِياً (٣) كلّه إلى الشيخ يلتهم كلامَه التهاماً ، مبتسماً مع ذلك لا مُتألِّماً ولا مُتبَرِّماً (٤) ولا مُظْهِراً مَيْلاً إلى لَهْوٍ ، على حين يلهو الصِّبيان من حوله أو يَشْرئبّون (٥) إلى اللَّهْو .

عرفته يا ابنتى فى هذا الطور . وكم أُحِبُّ لو تَعْرفينه كما عرفتُه ، إذنْ تَقْدُرين ما بينك وبينه من فرق . ولكن أَنَّى لكِ هذا وأنتِ فى التاسعةِ من عمرك تَرَيْنَ الحياةَ كلها نَعيماً وصَفْواً !

عرفته يُنْفِق اليومَ والأُسبوع والشهر والسنةَ لا يأكل

---

(١) حال رثة : سخيفة . (٢) تغشى : تغطى .
(٣) مصغياً : مميلا أذنيه للاستماع .
(٤) متبرماً : متضجراً .
(٥) اشرأب : رفع رأسه ومد عنقه لينظر . ويعنى هنا يتطلعون .

إلا لَوْنًا واحداً ، يأْخُذ منه حَظَّه فى الصباح ، ويأخذ منه حظَّه فى المساء ، لا شاكياً ولا مُتبَرِّمًا ولا مُتَجَلِّداً ، ولا مُفكِّراً فى أنَّ حالَه خليقةٌ بالشكوى . ولو أخذتِ يا ابنتى من هذا اللون حظًّا قليلاً فى يوم واحد لأشفقتْ أُمُّك ولَقَدَّمتْ إليك قَدَحاً من الماء المَعْدنىِّ ، ولا نتظرتْ أن تدعو الطبيب .

لقد كان أبوكِ يُنفق الأُسبوع والشهر لا يعيش إلاّ على خبز الأزهر . ووَيْلٌ للأَزهريين من خبز الأزهر ! إن كانوا[1] لَيَجِدون فيه ضُروباً من القَشِّ وألوانًا من الحَصَى وفنونًا من الحْشَرات .

وكان يُنفق الأُسبوع والشهر والأشهر لا يَغْمِس هذا الخبز إلا فى العَسَل الأسود ، وأنتِ لا تَعرِفين العسلَ الأسود ، وخيرٌ لك ألاّ تعرفيه .

كذلك كان يعيش أبوكِ جادًّا مبتسماً للحياة والدروس ، محروماً لا يكاد يشعرُ بالِحْرْمان . حتَّى إذا انقضتِ السنةُ وعاد

---

(١) إن ، هى المؤكدة المخففة . أى إنهم كانوا يجدون . . .

إلى أبويه ، وَأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل ؟ وكيف يعيش ؟ أخذ يَنْظِم لهما الأكاذيبَ كما تعوَّدَ أن ينظم لك القصص ، فيُحَدِّثهما بحياةٍ كلها رَغَدٌ ونعيم ، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حبُّ الكَذِب ، إنما كان يَرْفُق بهذين الشيخين ويكرَه أن ينبئهما بما هو فيه من حِرْمان . وكان يرفُق بأخيه الأزهرىّ ، ويكرَه أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن . كذلك كانت حياةُ أبيك فى الثالثةَ عَشْرَةَ من عمره .

فإن سألتِنى كيف انتهى إلى حيث هو الآن ، وكيف أصبح شَكلُه مقبولاً لا تقتحمه العين ولا تزدريه ، وكيف استطاع أن يُهَيِّئَ لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياةٍ راضية ، وكيف استطاع أن يُثير فى نفوس كثيرٍ من الناس ما يُثير من حَسَدٍ وحِقْدٍ وضَغِينة، وأنْ يثير فى نفوس ناس آخرين ما يُثير من رضاً عنه وإكرام له وتشجيع — إن سألتِ كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال ، فلستُ أستطيع أن أُجيبك ! وإنما هناك شخصٌ آخر هو الذى يستطيع هذا الجوابَ . فسَلِيه يُنْبِئْكِ .

أَتَعْرِفينه ؟ انْظرِى إليه ! هو هذا الملكُ القائم الذى يحنو على سَرِيرِكِ إذا أمسيتِ لتستقبلى الليلَ فى هُدوءٍ و نومٍ لذيذ ، ويحنو على سريرك إذا أصبحتِ لتستقبلى النهارَ فى سرور وابتهاج . ألستِ مدينةً لهذا المَلَكِ بما أنتِ فيه من هدوء الليل وبَهْجة النهار ؟ !

لقد حنا يا ابنتى هذا المَلَكُ على أبيك ، فَبدَّله من البُؤْس نعيماً ، ومن اليأسِ أمَلًا ، ومن الفَقْرِ غِنًى ، ومن الشَّقاء سعادةً وصَفْواً .

ليس دَيْنُ أبيك لهذا المَلَكِ بأقلَّ من دَيْنِك . فلتتعاونا يا ابنتى على أداءِ هذا الدَّين ؛ وما أنتما ببالغَين من ذلك بعضَ ما تُريدان ؟

طه حسين

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

طه حسين

الأيام

٢

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر

١

أقام فى القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين ، لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة ليطيل فيها المقام طالباً للعلم مختلفاً إلى مجالس الدرس فى الأزهر ، وإلا أنه يقضى يومه فى أحد هذه الأطوار الثلاثة التى يتخيلها ولا يحققها .

فهو يسكن بيتاً غريباً يسلك إليه طريقاً غريبة أيضاً ، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر ، فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق فى الليل ، وتفتح فى وسطه فجوة ضيقة بعد أن تصلى العشاء . فإذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حرًّا خفيفاً يبلغ صفحة وجهه اليمنى ، ودخاناً خفيفاً يداعب خياشيمه ، وأحس من شماله صوتاً غريباً يبلغ سمعه ويثير فى نفسه شيئاً من العجب.

وقد ظل أياماً يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصبحاً وإذا عاد منه ممسياً ، يسمعه وينكره ويستحيي أن يسأل عنه ، ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحى ويهيئها صاحب القهوة التى كان ينبعث منها ذلك الحر الخفيف وذلك الدخان الرقيق . فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك المكان الرطب المسقوف الذى لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء، خرج إلى طريق مكشوفة، ولكنها ضيقة قذرة تنبعث منها

روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها ، تنبعث هادئة بغيضة فى أول النهار وحين يقبل الليل ، وتنبعث شديدة عنيفة حين يتقدم النهار ويشتد حر الشمس .

وكان صاحبنا يمضى أمامه فى هذه الطريق الضيقة ، وقلما كانت تستقيم له هذه الطريق . وما أكثر ما كان صاحبه ينحرف به ذات اليمين أو ذات الشمال ليجنبه عقبة قائمة هنا أو هناك ! فكان يسعى حينئذ مستعرضاً قد أدار وجهه نحو هذا البناء عن يمين أو ذاك البناء عن شمال ، حتى إذا جاوز هذه العقبة استقبل الطريق كما بدأها ساعياً أمامه فى خطى رفيقة قلقة ، تأخذ أنفه تلك الروائح المنكرة ، وتأخذ أذنيه أصوات مختلطة مصطخبة تنحدر من عل وتصعد من أسفل ، وتنبعث من يمين وتنبعث من شمال وتلتقى كلها فى الجو ؛ فكأنما كانت تنعقد فتؤلف من فوق رأس الصبى سحاباً رقيقاً ولكنه متراكم قد غشى بعضه بعضاً .

وكانت هذه الأصوات مختلفة أشد الاختلاف : أصوات النساء يختصمن ، وأصوات الرجال يتنادون فى عنف ويتحدثون فى رفق ، وأصوات الأثقال تحط وتُعتَل ، وصوت السقّاء يتغنى ببيع الماء ، وصوت الحوذى يزجر حماره أو بغله أو فرسه ، وصوت العربة تئزّ عجلاتها أزًّا ، وربما شق هذا السحاب من الأصوات نهيق حمار أو صهيل فرس .

وكان صاحبنا يمضى بين هذا كله مشرد النفس قد غفل أو كاد

يغفل عن كل أمره . حتى إذا بلغ من هذه الطريق مكاناً بعينه سمع أحاديث مختلطة تأتيه من باب قد فتح عن شماله . فعرف أنه سينحرف بعد خطوة أو خطوتين إلى الشمال ليصعد في السلم الذى سينتهى به إلى حيث يقيم . وكان هذا السلم متوسطاً ليس بشديد السعة ولا بشديد الضيق ، قد اتخذ درجه من الحجر . ولكن كثر التصعيد فيه والهبوط منه ولم يتعهد بالغسل ولا بالتنظيف . فتراكم عليه تراب كثيف . ثم انعقد ولزم بعضه بعضاً حتى استخفى الحجر استخفاء . وخيل إلى المصعد فيه والهابط منه أنه إنما يتخذ سُلَّماً من الطين .

ومع أن الصبى كان كلفاً بإحصاء الدرج كلما صعد فى سلم أو هبط منه ، فقد أقام ما شاء الله له أن يقيم فى ذلك المكان . وصعد فى ذلك السلّم وهبط منه ما شاء الله له أن يصعد أو يهبط . ولم يخطر له قط أن يحصى درج هذا السلم . وإنما علم بعد أن اتخذه مرتين أو مرات أنه إذا صعد منه درجات فلا بد من أن ينحرف قليلا نحو الشمال ليمضى فى التصعيد تاركاً عن يمينه فجوة لم يلجها قط . ولكنه كان يعلم أنها كانت تؤدى إلى الطبقة الأولى من ذلك البناء الذى أقام فيه أعواماً طوالا .

كان يترك إذن عن يمينه مدخل تلك الطبقة من البناء التى لم يكن يسكنها طلاب العلم . وإنما كان يسكنها أخلاط من العمال والباعة . ويمضى مصعداً حتى يبلغ الطبقة الثانية . فلا يكاد يبلغها حتى تجد نفسه المكدودة شيئاً من الراحة يأتيه من هذا الهواء الطلق الذى كان

يبيح له التنفس بعد أن كاد يختنق فى ذلك السلّم القذر ، وتأتيه من صوت تلك الببغاء التى كانت تصوِّت فى غير انقطاع ، كأنما تُشهد الناس جميعاً على ظلم صاحبها الفارسى الذى سجنها فى ذلك القفص البغيض ، ليبيعها غداً أو بعد غد لرجل آخر يسجنها فى قفص بغيض ؛ حتى إذا تخفف منها وقبض ثمنها نقداً اشترى بدلها خليفة تقوم فى ذلك السجن مقامها وتدعو فيه دعاءها وتنتظر فيه مثل ما كانت تنتظر صاحبتها : أن تنقل من يد إلى يد ومن قفص إلى قفص ، وأن ينتقل معها دعاؤها الحزين الذى يبتهج الناس به من مكان إلى مكان .

كان صاحبنا إذا بلغ أعلى السلم استقبل الهواء الطلق بوجهه ، ودعاه صوت الببغاء إلى أن ينحرف نحو اليمين ، فيفعل ويمضى فى طريق ضيقة ، فيمر أمام بيتين يسكنهما رجلان من فارس : أحدهما لا يزال شابًّا ، والآخر قد تقدمت به السن . فى أحدهما شراسة وغلظة وانقباض عن الناس ، وفى الآخر دعة ورقة وتبسط للناس .

ثم يبلغ الصبي بيته ، فيدخل إلى غرفة هى أشبه بالدهليز ، قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت ، وهى تنتهى به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت . وهى على ذلك غرفة النوم ، وغرفة الطعام ، وغرفة الحديث ، وغرفة السمر ، وغرفة القراءة والدرس . فيها الكتب وفيها أدوات الشاى ، وفيها بعض

رقائق الطعام . وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفاً محدوداً كمجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها . كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة ، يمضى خطوة أو خطوتين فيجد حصيراً قد بُسط على الأرض ألقى عليه بساط قديم ولكنه قيم . هنالك يجلس أثناء النهار ، وهنالك ينام أثناء الليل . تُلْقى له وسادة يضع عليها رأسه ولحاف يلتف فيه. وكان يحاذى مجلسه من الغرفة مجلس أخيه الشيخ ، وهو أرقى من مجلسه قليلا أو كثيراً : حصير قد بُسط على الأرض وألقى عليه بساط لا بأس به، ثم ألقى على البساط فراش آخر من اللبد، ثم ألقى من فوق هذا الفراش حشيّة طويلة عريضة من القطن ، ثم بُسطت من فوقها ملاءة . على هذه الحشية كان يجلس الفتى الشيخ ويجلس معه أصفياؤه. ولم يكونوا يسندون ظهورهم إلى الحائط كما كان يفعل الصبي ، وإنما كانوا يسندونها إلى وسائد قد رُصَّتْ على الحشية رصًّا ؛ فإذا كان الليل استحال هذا المجلس سريراً ينام عليه الفتى الشيخ .

٢

لم يكن الصبي يعرف من بيئته القريبة أكثر من هذا . فأما الطور الثانى من أطواره فقد كان اضطرابه فى الطريق بين هذه البيئة وبين الأزهر . وكان يخرج من ذلك المكان المسقوف ، فيجد حر القهوة على صفحة وجهه من شمال ، وتبلغ قرقرة الشيشة أذنه اليمنى ، فيستقبل حانوتاً كان له فى حياته أثر عظيم : حانوت الحاج فيروز الذى كان يبيع لأهل الحى أكثر ما كانت تقوم عليه حياتهم من الغذاء : يبيع لهم ألوان الفول المدمس إذا أصبحوا . وكان الفول عنده كما هو عند غيره ألواناً مختلفة ، ولكنه كان يمتاز بإتقانه ويغالى بثمنه ؛ فقد كان يبيع الفول صرفاً ، وكان يبيعه بالزيت على اختلاف ألوانه ، وكان يبيعه بالسمن ، وكان يبيعه بالزبد ، وكان يضيف إليه عند الحاجة فنوناً من التوابل ترغّب فيه وتغرى به وتدفع طلاب العلم إلى أن يسرفوا على أنفسهم إذا طعموا منه ، ثم يثقلون بعد ذلك عن درس الضحى وينامون أثناء درس الظهر .

فاذا أقبل المساء فقد كان الحاج فيروز يبيع لأهل الحى طعامهم من الجبن والزيتون والطحينة والعسل ؛ وربما باع للمترفين منهم علب التونة والسردين ، وربما باع لبعضهم حين يتقدم الليل أشياء لم تكن تسمى ولم تكن تؤكل ، وإنما كان يتحدث المتحدثون عنها همساً

ويتنافسون فيها تنافساً شديداً .

وكان الصبي يسمع لهذا الهمس فيفهم حيناً ، ويستغلق الأمر عليه فى أكثر الأحيان . حتى إذا مضت الأيام وتبعتها الأيام وشبّ الصبي وأتيح له أن يفهم عن الملغزين وأصحاب الرمز ، علم ما علم ، فتغيرت فى نفسه قيم كثير من الأشياء ، ومعايير كثير من الأحكام ، وأقدار كثير من الناس .

وكان الحاج فيروز رجلا أسود فاحماً طويلا قليل الكلام ، فإذا تكلم لم يكد يبين ، وإنما كان يلتوى لسانه بالعربية التواء غريباً ترك فى نفس الصبي أثراً لا يمحى ؛ فهو لا يقرأ فى « البيان والتبيين » قصة زياد مع غلامه حين أراد أن يقول له : « أهدى إلينا حمار وحش » ، فجعل الحاء هاء فى الكلمتين . وأنكر زياد عليه ذلك فقال له : « ويلك ! قل أهدى إلينا عير » . فلما قال الغلام ذلك جعل العين همزة ، فارتاع زياد ورده إلى حمار الوحش .

لا يقرأ هذه القصة إلا ذكر الحاج فيروز . وكان للحاج فيروز فى الحى وبين طلاب العلم من أهله خاصة خطر عظيم : فإليه كانوا يفزعون إذا تقدم الشهر أو تأخر الراتب أو نفدت النقود . يفزعون إليه ليطعمهم نسيئة ، ويفزعون إليه ليقرضهم القرش أو القروش ، ويفزعون إليه فى كثير من شؤونهم . ولذلك كان اسمه يدور على ألسنتهم كما كانت تدور عليها أسماء كثير من شيوخهم الأعلام فى الأزهر الشريف .

وكان للحاج فيروز خطر عظيم آخر فى حياة هؤلاء الطلاب ؛ فباسمه كانت ترسل إليهم الرسائل التى تحمل إليهم أخبار الأسر ، والتى تحمل إليهم فى طياتها أحياناً تلك الورقة الضئيلة التى كانوا يذهبون بها إلى مكتب البريد فيدخلون وجيوبهم خالية ، ويخرجون وللفضة فى جيوبهم رنين حسن الوقع فى آذانهم وقلوبهم أيضاً .

ومن هنا لم يكن بد لكل واحد منهم من أن يمر بالحاج فيروز ليحييه إذا أصبح ، وليحييه إذا أمسى ، وليلقى فى أثناء ذلك نظرة سريعة خاطفة إلى ذلك المكان الذى كانت الرسائل تنتظر فيه أصحابها . وما أكثر ما كان أحدهم يعود إلى بيته وفى يده ذلك الغلاف المقفل قد أصابه كثير من وضر الزيت والزبد ! وإن هذا الغلاف على قذارته لآثر عنده من هذه الملزمة أو تلك من هذا الكتاب أو ذاك من كتب الفقه أو كتب النحو أو كتب الأصول .

كان الصبى إذن يستقبل جانوت الحاج فيروز إذا خرج من ذلك الممر المسقوف ، وربما خطا مع صاحبه خطوات فحيا الحاج فيروز والتمس عنده رسالة فوجدها أو لم يجدها ، فانصرف مبتسماً أو عابساً ، واستدار إلى الشمال فمضى أمامه فى ذلك الشارع الطويل الضيق المزدحم بالمارة من الطلاب والتجار والباعة والعمال وعجلات الحمل تجرها الحمر أو تجرها الخيل أو تجرها البغال ، ويصيح بها الحوذية زاجرين حيناً ومتلاحين حيناً آخر ومخاصمين لمن يعترض طريقهم من الرجال والنساء والصبية أحياناً . وعن يمين هذا الشارع وعن

شماله حوانيت مختلفة ، منها ما يهيأ فيه طعام الفقراء والبائسين ، فيحمل الهواء منها روائح كريهة ، ولكنها مع ذلك كانت محببة إلى كثير من هؤلاء المارة بين طلاب العلم والعاملين بأيديهم والحاملين على ظهورهم وكواهلهم . منهم من كان يعطف على هذه الحوانيت فيشترى منها القليل يلتهمه فى مكانه التهاماً أو يحمله إلى بيته ليستأثر به أو يشارك فيه ، ومنهم من تبلغه هذه الروائح فتثيره ولكنه لا يثور ، وتدعوه ولكنه لا يجيب ، قد رأت عينه وشم أنفه وتحركت شهوته ، ولكن قصرت يده وخانه جيبه ، فمضى وفى نفسه حاجة وفى قلبه موجدة وحفيظة ، وفيه مع ذلك رضا بالقضاء وإذعان للقدر .

ومن هذه الحوانيت ما كانت تدار فيه تجارة هادئة مطمئنة صامتة لا تقول شيئاً أو لا تكاد تقول شيئاً ؛ فإن نطقت فإنما تنطق همساً لا يكاد يسمع ، وتنطقه فى ظرف وأدب وفى رقة وتلطف ، وهى على هذا كله بل لهذا كله تغلّ على أهلها الثراء الضخم والمال الكثير . وكانت أكثر هذه الحوانيت إنما تدار فيها تجارة البن والصابون ، وربما أديرت فى بعضها تجارة السكر والأرز أيضاً .

وكان الصبى يسعى بين هذا كله يحسه إحساساً قويًّا ويجهله جهلا شديداً، لولا أن صاحبه كان يفسر له بعض ذلك من حين إلى حين. وما يزال الصبى ماضياً فى طريقه ، تعتدل مواطئ أقدامه حيناً وتعوجّ حيناً آخر ، وهو يسعى حسن السعى ما اعتدلت له الطريق ، ويسعى متعثراً فى أذياله حين تعوج أو تضطرب ، حتى يبلغ موضعاً ينحرف

فيه قليلا نحو الشمال ، ثم يندفع فى طريق ضيقة أشد الضيق ، ملتوية أشد الالتواء ، قذرة أشد القذارة ، قد استقر فيها هواء فاسد كل الفساد ، انعقدت فيه روائح كريهة منكرة ، وانبعثت فيه بين حين وحين أصوات نحيلة ضئيلة تصور البؤس وتبين عن الضر وتلحف فى السؤال ، يبعثها وقع الخطى كأن أصحابها لا يحسون الحياة إلا بآذانهم ، فهم يدعونها كلما سمعوها ، وتتجاوب فيها أصوات أخرى قصيرة غليظة مختنقة متقطعة ، هى أصوات هذه الطير التى تحب الظلمة وتأنس إلى الخلوة وتألف الخراب . وربما اختلطت هذه الأصوات بخفق الأجنحة ، وربما دنا هذا الخفق من أذن الصبى أو من وجهه فأخافه وأفزعه ، وإذا يده ترتفع فجأة وعلى غير إرادة لتحمى وجهه أو أذنه ، وإذا قلبه يخفق خفقاً خفيفاً متصلا .

وهو يمضى مع صاحبه فى هذه الطريق الضيقة المظلمة الملتوية ، يصعد قليلا لينحدر قليلا ، ويمضى أمامه ليعطف عن يمينه ، ثم يمضى أمامه ليعطف عن شماله . وهذه الأصوات المنكرة المختلفة تدعوه مرة وتشيعه مرة أخرى وتؤذيه دائماً ، حتى يشعر بعد حين بأن قلبه قد هدأ ، وبأن صدره قد اتسع ، وبأن طريق التنفس قد استقامت له ، فيبعث من جوفه نفساً طويلا كأنه يحمل كل ما استقر فى نفس الصبى من ألوان الذعر والألم والحزن .

ثم يتنفس حرًّا طليقاً كأنما يستنشق الحياة فى هذا الهواء الطلق الذى أخذ يغمره منذ خرج من « حارة الوطاويط »، ومضى أمامه

فى تلك الطريق المنحدرة التى لا تعتدل لقدميه. ولكن ما هى إلا لحظات قصيرة ، حتى تعتدل الطريق وتستوى الأرض لقدميه فهو يسعى معتدلا مطمئنًّا ، قد تهيأت نفسه لشىء من الفرح والمرح تحمله إليه هذه الأصوات الغريبة المختلطة التى يسمعها حين يسعى فى ذلك الشارع الهادئ الحلو ، وعن شماله مسجد سيدنا الحسين ، وعن يمينه هذه الحوانيت الصغيرة التى طالما وقف عند بعضها حين تقدمت به الأيام فذاق من طيباتها ما شاء الله له أن يذوق .

ذاق التين المرطب وشرب نقيعه فى أثناء الصيف ، وذاق البسبوسة واستمتع بما تبعثه من الحرارة فى الأجواف أثناء الشتاء . وربما وقف عند بعض الباعة من السوريين فذاق ألواناً من الطعام ، منها الحار ومنها البارد ، ومنها الحلو ومنها الملح ، كان يجد فى ذوقها لذة لا تقدَّر ، ولو قدمت إليه الآن لأشفق أن تحمل إليه العلة أو تغرى به الموت .

وكان يمضى فى طريقه هذه حتى يبلغ مكاناً تختلط فيه الأصوات وترتفع ، ويشعر بأن الطريق قد افترقت فيه ؛ فهو يستطيع أن يمضى أمامه ، وأن يمضى عن يمين ، وأن يمضى عن شمال ، وأن يعود أدراجه .

وكان صاحبه يقول له : هذه هى المفارق الأربعة ، إن مضيت عن يمينك فإلى السكة الجديدة ثم الموسكى ثم العتبة الخضراء ، وإن مضيت عن شمالك فهى الدرَّاسة ، ولكننا سنمضى أمامنا

فنسلك شارع الحَلْوَجىّ ، وهو شارع العلم والجد والعمل ، ضيق تكاد تبلغ جانبيه إذا مددت يديك عن يمين وشمال . ولكنك تمضى بين حوانيت صغيرة تباع فيها الكتب جديدها وقديمها . جيدها ورديئها ، مطبوعها ومخطوطها ، وكم كانت للصبى فى ذلك الشارع الضيق وقفات خصبة ممتعة لم ينسها قط حين تقدمت به الأيام واختلفت عليه أطوار الحياة . ولكنه عَجِلٌ فيجب أن يبلغ صاحبه الأزهر قبل أن يبتدئ الدرس . وها هو ذا قد بلغ « باب المزينين » ، فخلع نعليه وخالف بينهما وأخذهما فى يده ومضى مع صاحبه . فلما تقدَّم قليلا تخطى عتبة قليلة الارتفاع ، ثم انفرج له صحن الأزهر هادئاً مطمئنًّا يترقرق فيه نسيم بارد هو نسيم الصباح . وهو الآن فى الطور الثالث من أطوار حياته الأولى .

٣

وكان هذا الطور أحب أطوار حياته تلك إليه وآثرها عنده . كان أحب إليه من طوره ذاك في غرفته التي كان يشعر فيها بالغربة شعوراً قاسياً ؛ لأنه لا يعرفها ولا يعرف مما اشتملته من الأثاث والمتاع إلا أقله وأدناه إليه ؛ فهو لا يعيش فيها كما كان يعيش في بيته الريفي وفي غرفاته وحجراته تلك التي لم يكن يجهل منها ومما احتوت عليه شيئاً ، وإنما كان يعيش فيها غريباً عن الناس وغريباً عن الأشياء ، وضيقاً حتى بذلك الهواء الثقيل الذي كان يتنفسه فلا يجد فيه راحة ولا حياة ، وإنما كان يجد فيه ألماً وثقلا .

وكان أحب إليه من طوره الثاني في طريقه تلك بين البيت والأزهر ؛ فقد كان في ذلك الطور مشرداً مفرّق النفس مضطرب الخطى ممتلئ القلب بهذه الحيرة المضلة الباهظة التي تفسد على المرء أمره وتجعله يتقدم أمامه لا على غير هدى في طريقه المادية وحدها — فقد كان ذلك محتوماً عليه — بل على غير هدى في طريقه المعنوية أيضاً ؛ فقد كان مصروفاً عن نفسه بما يرتفع حوله من الأصوات وما يضطرب حوله من الحركات . وقد كان مستخذياً في نفسه من اضطراب خطاه وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة الهادئة ومشية صاحبه المهتدية العازمة العنيفة .

فأما فى طوره الثالث هذا فقد كان يجد راحة وأمناً وطمأنينة واستقراراً . كان هذا النسيم الذى يترقرق فى صحن الأزهر حين تصلّى الفجر يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمناً وأملا . وما كان يشبّه وقع هذا النسيم على جبهته التى كانت تندى بالعرق من سرعة ما سعى ، إلا بتلك القبلات التى كانت أمه تضعها على جبهته بين حين وحين ، فى أثناء إقامته فى الريف حين يقرؤها آيات من القرآن أو يمتّعها بقصة مما قرأ فى الكتب أثناء عبثه فى الكتاب ، أو حين كان يخرج ضعيفاً شاحباً من خلوته تلك التى كان يتوسل فيها إلى الله بعدّية يس ليقضى هذه الحاجة أو تلك من حاجات الأسرة .

كانت تلك القبلات تُنعش قلبه وتشيع فى نفسه أمناً وأملا وحناناً ، وكان ذلك النسيم الذى كان يتلقاه فى صحن الأزهر يشيع فى نفسه هذا كله ويرده إلى الراحة بعد التعب ، وإلى الهدوء بعد الاضطراب ، وإلى الابتسام بعد العبوس . ومع ذلك فلم يكن يعلم من أمر الأزهر شيئاً ، ولم يكن يعرف مما يحتويه الأزهر شيئاً ، وإنما كان يكفيه أن تمس قدميه الحافيتين أرضُ هذا الصحن ، وأن يمس وجهه نسيمُ هذا الصحن ، وأن يحس الأزهر من حوله نائماً يريد أن يستيقظ ، وهادئاً يريد أن ينشط ليعود إلى نفسه أو لتعود إليه نفسه . وإذا هو يشعر أنه فى وطنه وبين أهله ، لا يحس غربة ولا يجد ألماً ، وإنما هى نفسه تتفتح من جميع أنحائها ، وقلبه يتشوق من جميع أقطاره ليتلقى . . . ليتلقّى ماذا ؟ ليتلقى شيئاً لم يكن يعرفه ،

ولكنه كان يحبه ويدفع إليه دفعاً ، طالما سمع اسمه وأراد أن يعرف ما وراء هذا الاسم ، وهو العلم .

وكان يشعر شعوراً غامضاً ولكنه قوى بأن هذا العلم لا حد له ، وبأن الناس قد ينفقون حياتهم كلها ولا يبلغون منه إلا أيسره . وكان يريد أن ينفق حياته كلها وأن يبلغ من هذا العلم أكثر ما يستطيع أن يبلغ مهما يكن فى نفسه يسيراً . وكان قد سمع من أبيه الشيخ ومن أصحابه الذين كانوا يجالسونه من أهل العلم أن العلم بحر لا ساحل له ، فلم يأخذ هذا الكلام على أنه تشبيه أو تجوز ، وإنما أخذه على أنه الحق كل الحق .

وأقبل إلى القاهرة وإلى الأزهر يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقاً . وأى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من العلم ويأتيه وهو غَرِقٌ فى العلم !

كانت هذه الخواطر كلها تثور فى نفسه الناشئة فجأة ، فتملؤها وتملكها وتنسيها تلك الغرفة الموحشة وتلك الطريق المضطربة الملتوية ، بل تنسيها الريف ولذات الريف ، وتشعرها بأنها لم تكن مخطئة ولا غالية حين كانت تتحرق شوقاً إلى الأزهر وضيقاً بالريف .

وكان الصبى يسعى أمامه مع صاحبه حتى يقطع الصحن ويصعد هذه الدرجة اليسيرة التى يبتدئ بها الأزهر نفسه ، فيمتلئ قلبه خشوعاً ، وخضوعاً ، وتمتلئ نفسه إكباراً وإجلالا . ويخفف الخطو

على هذه الحُصُر المبسوطة البالية التى كانت تنفرج أحياناً عما تحتها من الأرض، كأنها تريد أن تتيح لأقدام الساعين عليها شيئاً من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة . وكان الصبى يحب الأزهر فى هذه اللحظة حين ينفتل المصلون من صلاة الفجر وينصرفون وفى عيونهم النعاس ، ليتحلقوا حول هذا العمود أو ذاك ، وينتظروا هذا الأستاذ أو ذاك ، فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أو درس التوحيد .

كان الأزهر فى هذه اللحظة هادئاً لا ينعقد فيه ذلك الدوى الغريب الذى كان يملؤه منذ تطلع الشمس إلى أن تصلى العشاء ، وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهامس بها أصحابها ، وربما سمعت فتى يتلو القرآن فى صوت هادئ معتدل ، وربما مررت إلى جانب مصل لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنه مضى فى التنفل بعد أن أدى الفريضة . وربما سمعت أستاذاً هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر ، صوت الذى استيقظ من نومه فأدى صلاته ولم يطعم بعدُ شيئاً يبعث فى جسمه النشاط والقوة ، فهو يقول فى صوت هادئ حلو منكسر بعض الشىء : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب رب العالمين . والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . قال المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه آمين » .

والطلاب يسمعون لهذا الصوت فى هدوء وفتور يشبهان هدوء

الشيخ وفتوره . وما أكثر ما كان الصبي يوازن فى نفسه بين أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة فى درس الفجر ، وأصواتهم حين ينطقون بها فى درس الظهر ! فأما أصوات الفجر فكانت فاترة حلوة فيها بقية من نوم . وأما أصوات الظهر فكانت قوية عنيفة ممتلئة فيها شىء من كسل أيضاً ، تصوِّر امتلاء البطون بما كانت تمتلئ به من طعام الأزهريين فى ذلك الوقت الذى كان الأزهريون يعيشون فيه على الفول والمخلل وما يشبه الفول والمخلل من ألوان الطعام .

كان فى أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف ، وكان فى أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدواناً ، وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير فى نفسه لذة ومتاعاً . وكان يسعى مع صاحبه حتى يرقى هاتين الدرجتين اللتين يبتدئ بهما الليوان ، وهناك إلى جانب عمود من هذه الأعمدة المباركة قد شُدَّ إليه كرسى بسلسلة غليظة يُجلسه صاحبه ويقول له: انتظر هنا فستسمع درساً فى الحديث ، فإذا فرغت من درسى فسأعود إليك .

وكان درس صاحبه فى أصول الفقه ، وكان أستاذ صاحبه الشيخ راضى رحمه الله ، وكان الكتاب الذى يدرسه الشيخ راضى كتاب التحرير للكمال بن الهمام . وكان الصبي يسمع هذه الألفاظ كلها فيمتلئ لها قلبه رهباً ورغباً ومهابة وإجلالا . أصول الفقه ، ما عسى أن يكون هذا العلم ؟ الشيخ راضى ! من عسى أن يكون هذا الشيخ ؟ التحرير ! ما معنى هذه الكلمة ؟ الكمال بن الهمام !

ما أعظم هذين الاسمين! حقًّا إن العلم بحر لا ساحل له ، والخير كل الخير للرجل الذكى أن يغرق فيه . وكان إجلال الصبى لهذا الدرس خاصة يزداد ويعظم من يوم إلى يوم حين كان يسمع أخاه ورفاقه يطالعون الدرس قبل حضوره فيقرءون كلاماً غريباً ولكنه حلو الموقع فى النفس .

كان الصبى يسمعه فيتحرق شوقاً إلى أن تتقدّم به السن ستة أعوام أو سبعة ليستطيع أن يفهمه وأن يحل ألغازه ويفك رموزه ، ويتصرف فيه كما كان يتصرف فيه أولئك الشبان البارعون ، ويجادل فيه أساتذته كما كان يجادل فيه أولئك الشبان البارعون ، ولكنه الآن مضطر إلى أن يسمع ولا يفهم . وما كان أكثر ما يقلِّب فى نفسه هذه الجملة أو تلك لعله يجد وراءها شيئاً فلا يظفر بطائل ، ولا يزيده ذلك إلا إكباراً للعلم ، وإجلالا للعلماء ، وإصغاراً لنفسه ، واستعداداً للعمل والجد !

وقد سمع جملة بعينها شهد الله أنها أرّقته غير ليلة من لياليه ، ونغّصت عليه حياته غير يوم من أيامه ، ولعلها أن تكون قد صرفته عن غير درس من دروسه اليسيرة ؛ فقد كان يفهم دروسه الأولى فى غير مشقة ، وكان ذلك يغريه بالانصراف عن حديث الشيخ إلى التفكير فى بعض ما سمع من أولئك الشبان النجباء .

وكانت هذه الجملة التى ملأت نفسه وقلبه غريبة فى حقيقة الأمر ، وقعت على أذنه وهو فى أول النوم وآخر اليقظة، فردته إلى

اليقظة ليله كله، وهى « والحق هدم الهدم » . ما معنى هذا الكلام ؟ كيف يهدم الهدم ؟ وما عسى أن يكون هذا الهدم ؟ وكيف يكون الهدم حقًّا ؟ وجعلت هذه الجملة تدور فى رأسه كما يدور هذيان الحمى فى رأس المريض، حتى صُرِف عنها ذات يوم بإشكال من إشكالات الكفراوى ، أقبل عليه ففهمه وجادل فيه ، وأحس أنه بدأ يشرب من ذلك البحر الذى لا ساحل له وهو بحر العلم .

وكان الصبى يجلس إلى جانب ذلك العمود ، يعبث بتلك السلسلة ، ويسمع للشيخ وهو يلقى دروسه فى الحديث ، فيفهم عنه فى وضوح وجلاء ، ولا ينكر منه إلا تلك الأسماء التى كانت تَسَّاقَطُ على الطلبة يتبع بعضها بعضاً، تسبقها كلمة «حدثنا » وتفصل بينها كلمة « عن » .

وكان الصبى لا يفهم معنى لهذه الأسماء ولا لتتابعها ولا لهذه « العنعنة » المملة ، وكان يتمنى أن تنقطع هذه العنعنة وأن يصل الشيخ إلى الحديث ، فإذا وصل إليه سمعه الصبى ملقياً إليه نفسه كلها فحفظه وفهمه ، وأعرض عن تفسير الشيخ ؛ لأنه كان يذكِّره ما كان يسمع فى الريف من إمام المسجد ، ومن ذلك الشيخ الذى كان يعلِّمه أوليات الفقه .

وبينما كان الشيخ يمضى فى دروسه كان الأزهر يستيقظ شيئاً فشيئاً ، كأنما كانت تنبهه أصوات أولئك الشيوخ الذين كانوا يُلقون دروسهم . وما كان يثور بينهم وبين طلابهم من حوار يبلغ العنف

أحياناً . فهؤلاء الطلاب يـُقبلون ، وهذه الأصوات ترتفع ، وهذا الدوى ينعقد ، وهؤلاء الشيوخ ترتفع أصواتهم لتبلغ آذان التلاميذ ، بل هؤلاء الشيوخ يضطرون أن ينطقوا بهذه الصيغة التى تؤذن بانتهاء الدرس ، وهى : « والله أعلم » ؛ لأن الطلاب قد أقبلوا ينتظرون درس الفقه من شيخ غير هذا الشيخ ، أو من الشيخ نفسه ؛ فلا بد من أن ينتهى درس الفجر ليبدأ درس الصبح . هنالك كان يـُقبل على الصبى صاحبه فيأخذه بيده فى غير كلام ويجذبه فى غير رفق ، ويمضى به إلى مجلس آخر فيضعه فيه كما يضع المتاع وينصرف عنه .

وقد فهم الصبى أنه قد نقل إلى درس الفقه ، وأنه سيسمع هذا الدرس وسيفرغ منه ، وسينصرف الشيخ ويتفرق الطلاب ، ويبقى هو فى مكانه لا يتحول عنه حتى يعود إليه صاحبه من سيدنا الحسين حيث كان يسمع درس الفقه الذى كان يلقيه الشيخ بخيت رحمه الله .

وكان الشيخ بخيت يحب الإطالة فى الدرس ، وكان طلابه يلحون عليه فى الجدال ؛ فلم يكن يقطع درسه حتى يرتفع الضحى ، وهنالك يعود إلى الصبى صاحبه فيأخذه بيده فى غير كلام ، ويجذبه فى غير رفق ، ويمضى به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يرده إلى طوره الثانى ، فيقطع به الطريق بين الأزهر والبيت ، ثم إلى طوره الأول ، فيلقيه فى مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم الذى ألقى على حصير بال عتيق .

٤

ولم يكن الصبى يفرغ لنفسه إذا أخذ مجلسه على ذلك البساط فى ركن من أركان الغرفة ، واعتمد بيده أو بساعده على النافذة عن شماله ، وإنما كان يستعرض الخواطر التى كانت تملأ رأسه : خواطر الطريق ، وخواطر صحن الأزهر ، وخواطر ما سمع من أستاذ الحديث وما سمع من أستاذ الفقه . كان يستعرض هذه الخواطر ويعيش معها لحظات لا تطول ؛ فإن أخاه لم ينصرف عنه حين ألقاه فى مجلسه ذاك ليفرغ لنفسه وحدها ، أو لدرسه وحده ، وإنما انصرف عنه ليعد طعام الإفطار .

وكان هذا الإفطار يختلف بين يوم ويوم لا فى مادته ، فقد كان الفول يغرقه السمن أو يغرقه الزيت ، ولكن فيما يحيط به من الظروف والأطوار . فقد كان هذا الإفطار صامتاً يوماً وناطقاً مصطخباً يوماً آخر . صامتاً حين يخلو الصبى إلى أخيه فيفطران معاً إفطاراً سريعاً مظلماً قاتماً لا يكاد أحدهما ينطق فيه بشىء ، وإنما هى جمل متقطعة قصار يردّها الصبى على الشيخ الفتى . وناطقاً مصطخباً حين يشارك فيه زملاء الشيخ الفتى . وكانوا ثلاثة حيناً وأربعة حيناً ، وربما بلغوا خمسة فى بعض الأيام ، ولكن لخامسهم هذا شأناً آخر ؛ فالخير ألا يذكر الآن .

هنالك كان هؤلاء الشباب من طلاب العلم ينفقون ساعة حلوة من ساعات حياتهم ، وكان الصبي يهمل إهمالا تامًّا لا تلقى إليه جملة ، ولا يحتاج إلى أن يرجع على أحد جواباً .

وكان ذلك أحب إليه وآثر عنده ؛ فقد كان يروقه أن يسمع . وما أكثر ما كان يسمع ! وما أغرب ما كان يسمع ! وما أشد اختلاف ألوان الأحاديث التى كان يسمعها حول هذه المائدة المستديرة المنخفضة التى كانوا يسمونها « الطبلية » والتى كان يجلس الطاعمون من حولها على الأرض وقد وضع فى وسطها طبق عظيم ملئ بالفول والسمن أو الزيت ، وإلى جانبه إناء عظيم ملئ بألوان المخلل الغارقة فى ماء يعبّ فيه هؤلاء الشباب قبل أن يأخذوا فى طعامهم . يبدأ أحدهم ثم يدار الإناء على سائرهم ، ولكنه لا يعرض على الصبي . حتى إذا أخذوا حظهم من هذا الماء الملح الحاد الذى كان يحرِّش المعدة فيما يقولون مخلصين ، أقبلوا على طعامهم . وقد ألقيت على المائدة جماعات من الأرغفة ، منها ما يشترى ومنها ما أخذ جراية من الأزهر . والشباب يتنافسون أيهم يقهر أصحابه فى الأكل : يقهرهم فى عدد ما يلتهم من الأرغفة ، ويقهرهم فى مقدار اللقمة التى يقتطعها ، ويقهرهم فى مقدار ما يغترف فيها من الفول وما يبلّها به من السمن أو الزيت ، ويقهرهم فيما يستعين به على هذا كله من اللِّفْت أو الفلفل أو الخيار .

وهم يتنافسون ويزدحمون فى أصوات مرتفعه ، وضحكات تملأ

الغرفة ، وتخترق النافذة عن شمال فتتردد فى الحارة من ورائها ، وتخترق الباب عن يمين فتتردد فى « الربع » وتهبط إلى الطبقة السفلى حيث نساء العمال يختصمن أو يتناجين أو يتناغين . فتنقطع لهذه الضحكات خصومتهن ومناجاتهن ومناغاتهن ، وإذا هن قد فرغن لهذه الأصوات المرتفعة وهذه الضحكات المضطربة التى يحملها إليهن الهواء ، كأنما يجدن فى الاستماع لها والاستمتاع بها لذة لا تعدلها إلا اللذة التى يجدها هؤلاء الشباب فيما يلتهمون ويلتقمون من الطعام .

والصبى جالس بينهم قد أطرق إلى الأرض ، وحنى ظهره حتى كأنه القوس ، ويده تذهب وتجىء فى أناة وخوف واستحياء بين هذا الرغيف قد ألقى أمامه على المائدة ، وهذا الطبق قد قام بعيداً عنه فى وسط المائدة ، ويده تصطدم بهذه الأيدى الكثيرة المسرعة التى تهوى لترتفع ، وترتفع لتهوى ، وتنزح الطبق فى أثناء ذلك نزحاً . والصبى معجَب بذلك منكر له ، لا يكاد يلائم فى فى نفسه بين هذا التهالك على الفول والمخلل ، وذلك التهالك على العلم والدرس وما كانت تعرف به هذه الجماعة من النجابة والنشاط وحدة الذكاء .

ولم يكن هذا الإفطار يستغرق من هؤلاء الشباب وقتاً طويلا ، وإنما هى لحظات لا تتجاوز ربع الساعة وقد فرغ ما كان فى الطبق ، ونظفت المائدة إلا من فُتات ضئيل ، ومن نصف الرغيف

الذى كان قد ألقى أمام الصبى فلم يستطع أو لم يُرِدْ أن يتجاوز نصفه . وما هى إلا لحظة حتى ترتفع المائدة ويذهب بها ذاهب إلى خارج الغرفة فينقّيها مما كان عليها ، ثم يعود بها إلى مكانها نظيفة ملساء إلا مما كان قد تقاطر عليها من السمن أو ماء المخلل . وقد ذهب أحد هؤلاء الشبان فاستخرج مقداراً من الفحم ، فحم الخشب ، وأعدّ أداة الشاى ، هذه الأداة التى يصطنعها الفرس والروس ، فأوقد فيها النار بعد أن ملأها بالماء ، وعاد بها وقد صَفَتْ جذوتها ، فوضعها من المائدة مكان الطبق ، وصفّ على حافة المائدة أكواب الشاى ، وأخذ مجلسه ينتظر أن يغلى الماء ، وأخذ الشبان يتحدثون حديثاً هادئاً فاتراً يضطرهم إلى هدوئه وفتوره اشتغال بطونهم بما ألقوا فيها من الجامد والسائل ، ومن البارد والحار . ولكن ماذا ؟ لقد خفتت الأصوات ثم سكتت ، ثم ملأ الغرفة صمت رهيب ، ثم تردد فيها صوت ضئيل جدًّا ، نحيل جدًّا ، متقطع أول الأمر ، متصل بعد ذلك .

وإذا هؤلاء الشبان قد تحركوا حركة الطرب ، ثم انفتحت أفواههم فى وقت واحد عن كلمة واحدة يقولونها فى صوت هادئ متصل مستقر وهى « الله » يمدّون بها أصواتهم مدًّا كأنما أشاعت الطرب فى نفوسهم موسيقى حلوة تأتيهم من بعيد . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد سمعوا أزيز الماء وهو يدور من حول هذا الموقد الذى تضطرم فيه تلك الجذوة الهادئة الصافية . وقد فرغ لأداة الشاى صاحب الشاى ،

فجعل يتبعها بقلبه وعينه وأذنه ، حتى إذا استحال أزيز الماء غلياناً أخذ هو إبريقاً من الخزف فقرّبه من هذه الأداة وأدار مفتاحها فى رفق ، فجرى فى الإبريق بعض هذا الماء الذى يغلى ويضطرب ، ثم أدار المفتاح فانقطع جريان الماء ، ثم رد على الإبريق غطاءه ، ثم هزه هزًّا رفيقاً ليبلغ ما فيه من الماء السخن أجزاءه كلها ، ثم قام فألقى ما فى الإبريق بعد تدفئته ؛ فما ينبغى أن يجد الشاى برد الخزف أو برد المعدن لأن ذلك يفسده . ثم انتظر بهذا الشاى ثوانى ، ثم صب عليه الماء فى رفق دون أن يملأ الإبريق إلى غايته ، ثم انتظر به قليلا ، ثم عمد إلى علبة الشاى الأحمر فأخذ منه مقداراً ووضعه فى الإبريق ، ثم صب الماء فى الإبريق حتى يمتلئ ، ثم رفع الإبريق فى تلطف ورفق فوضعه على النار ثوانى ، ثم حطه عنها ، ثم أهاب بأصحابه أن قدموا أكوابكم .

كان ذلك يجرى والقوم سكوت ، ينظرون ويتبعون حركات صاحبهم مراقبين لها حراصاً على ألا ينحرف فى بعضها عن الجادّة . فإذا ملئت الأكواب وأديرت فيها الملاعق الصغار ، فسمع لها صوت منسجم لا يخلو من جمال حسن الموقع فى الأذن يأتى من هذه المداعبة الخفيفة الهادئة بين المعدن والزجاج ، رفع القوم أكوابهم إلى أفواههم ، فجرُّوا الشاى منها بشفاههم جرًّا طويلا يسمع له صوت منكر يناقض صوت الملاعق حين كانت تداعب الأكواب . ومضوا فى شربهم لا يكادون ينطقون إلا بهذه

الجملة التى لم تكن تتغير ، ولم يكن بد من أن ينطق أحدهم بها ويقره عليها الآخرون : « هذا هو الذى سيطفئ نار الفول » . فإذا فرغوا من هذه الدورة الأولى ملئت لهم الأكواب مرة أخرى ، وقد أعيد إلى أداة الشاى ما فقدت من ماء ، ولكن القوم ينصرفون الآن إلى شايهم عن هذا الماء المسكين الذى ترسل النار عليه حرارتها فيئن ثم يتغنى شاكياً ، ثم يجهش بالغليان باكياً . ولكن القوم لا يحفلون به ولا يطربون لغنائه ولا لبكائه ، قد شغلوا عنه بالشاى وبدورته الثانية خاصة ؛ فقد كانت الدورة الأولى مطفئة لنار الفول ، فأما الدورة الثانية فقد جعلت تخلص لهم ولأعصابهم ، وجعلوا يجدون لها بعض اللذة فى أفواههم وحلوقهم ورءوسهم أيضاً . حتى إذا فرغوا من هذه الدورة ثابوا إلى عقولهم أو ثابت عقولهم إليهم ، فهذه ألسنتهم تتحرك ، وهذه شفاههم تبتسم وهذه أصواتهم ترتفع . ولكنهم لا يتحدثون الآن عن طعام ولا عن شراب ، لقد نسوا الطعام والشراب وذكروا أنفسهم . لقد فرغوا من بطونهم والتفتوا إلى عقولهم ، فهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ فى درس الفجر ، وهم يستعيدون ما سمعوا من الشيخ فى درس الصبح ، وهم يسخرون من هذا مرة ومن ذاك أخرى ، وهم يعيدون اعتراض أحدهم على هذا الشيخ أو ذاك ، أو اعتراض غيرهم على هذا الشيخ أو ذاك ، وهم يجادلون فى هذا الاعتراض ، يراه بعضهم قويًّا مفحماً ، ويراه بعضهم سخيفاً لا يغنى شيئاً . وقد أخذ أحدهم مكان الشيخ

المقرر ، وأخذ أحدهم مكان الطالب المعترض ، وأقام سائرهم حكماً في هذه المناظرة ، وربما تدخَّل الحَكَمُ في المناظرة بين حين وحين يرد أحد المتناظرين إلى القصد إنجار عنه . أو يؤيد أحد المتناظرين بحجة قد أهملها أو دليل قد ندَّ عنه . وصاحب الشاى مشترك في هذا كله . ولكنه في الوقت نفسه ملتفت إلى الشاى لا يهمله ولا ينساه ؛ فقد أضاف إلى الإبريق شاياً على شاى وماء على ماء ، وقد فرغت الأكواب ثم امتلأت ؛ فالشاى لا يتم إلا بالدورة الثالثة ؛ لأن نصاب الشاى ثلاثة أقداح لا ينبغى أن ينقص ، ولا بأس بأن يزيد .

والصبى مطرق منحن في مكانه ، يقدَّم له نصيبه من الشاى في صمت ، فيشربه مترفقاً في صمت أيضاً . وهو يلحظ ما يجرى حوله ، ويسمع ما يقال حوله ، فيفهم منه قليلا ويعجزه أكثره عن الفهم ، ولكنه يُعْجَب بما فهم وبما لم يفهم ويسأل نفسه متحرقاً متى يستطيع أن يقول كما يقول هؤلاء الشباب ، وأن يجادل كما يجادلون .

وقد مضت ساعة أو نحو ساعة ، واستوفى القوم نصيبهم من الشاى . ولكن المائدة ستبقى حيث هى ، وستبقى أداة الشاى في وسطها والأكواب مصطفة على حافتها ؛ فقد قربت الظهر ولا بد من أن يتفرق القوم ليلقى كل منهم نظرة سريعة على درس الظهر قبل أن يذهبوا لاستماعه وهم قد أعدوه معاً منذ أمس . ولكن لا بأس من المراجعة السريعة ، ومن الوقوف عند هذه القولة أو تلك ، فهى

لا تخلو من غموض أو التواء ، ومع ذلك فالمتن واضح والشرح جلى. ولكن «البنّان» يصعّب السهل و يعقّد المنحلّ. والسيد الجرجانى نافذ البصيرة يستخرج من الأشياء الواضحة أسراراً غامضة . فأما عبد الحكيم فيفهم حيناً وتلتوى عليه الأمور أحياناً . فأما المقرر فجاهل لا يدرى ما يقول . ولم يبق على الظهر إلا دقائق ، فلنسرع إذن إلى الأزهر، فسيدعو المؤذّنون إلى الصلاة ، وستقام الصلاة ، ونحن فى الطريق ، حتى إذا بلغنا الأزهر كان المصلون قد فرغوا من صلاتهم وأخذ الطلاب يتحلّقون حول شيوخهم، ولا بأس إن فاتتنا صلاة الجماعة فسنقيم الصلاة بعد الدرس، وسنقيمها جماعة أيضاً . والخير ألا تؤدى الصلاة قبل الدرس؛ فإن النفس تشغل عن العبادة بهذا الدرس وما فيه من صعوبة ومن مشكلات تحتاج إلى الحل . فإذا ألقى الدرس وسمعناه وجادلنا فيه وشفينا نفوسنا من مشكلاته ومعضلاته ، فرغنا للصلاة فأديناها وقد خلصت لها النفوس والقلوب .

وهذا أخو الصبى يدعوه بهذه الجملة التى ما زال يدعوه بها أعواماً وأعواماً : « يا الله يا مولانا» ، فينهض الصبى متثاقلا فيمضى مع أخيه متعثراً حتى يبلغ الأزهر ، فيُجلسه أخوه فى مكانه من حلقة النحو ، ويمضى هو إلى درس الشيخ الصالحى فى زاوية العميان .

وقد سمع الصبى درس النحو ففهمه فى غير جهد، وطال عليه إلحاح الشيخ فى الإعادة والتفسير . ثم انقضى الدرس وتفرّق الطلاب ،

وظل الصبى فى مكانه حتى يعود أخوه فيجذبه فى غير كلام وفى غير رفق ، ويمضى به حتى يخرجه من الأزهر وحتى يقطع به الطريق التى قطعها به فى الصباح والضحى ، وحتى يلقيه فى مكانه من الغرفة على ذلك البساط القديم قد بسط على حصير بال عتيق . ومنذ ذلك الوقت يتهيأ الصبى لاستقبال حظه من العذاب .

٥

وكانت الوحدة المتصلة مصدر ذلك العذاب ؛ فقد كان الصبي يستقر في مجلسه من الغرفة قبيل العصر بقليل ، ثم ينصرف عنه أخوه فيذهب إلى غرفة أخرى من غرفات « الربع » عند أحد أصحابه .

وكان مجلس الجماعة لا يستقر في غرفة بعينها من غرفاتهم ، وإنما هو عند أحدهم إذا أصبحوا ، وعند ثان منهم إذا أمسوا ، وعند ثالث منهم إذا تقدّم الليل . وكان أخو الصبي يتركه في غرفته بعد درس الظهر ويذهب إلى حيث يلقى أصحابه في إحدى الغرفات ، فينفقون وقتاً طويلا أو قصيراً في شيء من الراحة والدعابة والتندر بالشيوخ والطلاب . وكانت أصواتهم ترتفع وضحكاتهم تدوّى في « الربع » تدوية فتبلغ الصبي وهو جاثم في مكانه ، فتبتسم لها شفتاه ويحزن لها قلبه ؛ لأنه لا يسمع كما كان يسمع في الضحى ما أثارها من فكاهة أو نادرة ، ولأنه لا يستطيع كما كان يستطيع في الضحى أن يشارك صامتاً بابتسامة نحيلة ضيقة في هذا الضحك الغليظ العريض .

وكان الصبي يعلم أن القوم سيجتمعون حول شاى العصر إذا أرضوا حاجتهم إلى الراحة وإلى التندر بالشيوخ والزملاء ، وسيستأنفون حول هذا الشاى حديثاً هادئاً منتظماً ، ثم يستعيدون ما يرون أن

يستعيدوه من درس الظهر مجادلين مناظرين ، ثم يعيدون درس المساء الذى يلقيه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتاب دلائل الإعجاز فى بعض أيام الأسبوع وفى تفسير القرآن الكريم فى بعضها الآخر . وسيتحدثون أثناء إعدادهم لهذا الدرس عن الأستاذ الإمام ، وسيستعيدون ما كانوا يسمعون من نوادره وما كانوا يحفظون من رأيه فى الشيوخ ومن رأى الشيوخ فيه ، وما كانوا يحفظون من أجوبته التى كان يلقيها لبعض السائلين له والمعترضين عليه فيفحمهم ويُضحك منهم زملاءهم الطلاب .

وكان الصبى لهذا كله محبًّا وبه كلفاً وإليه مشوقاً متحرقاً . وربما أحس الصبى فى دخيلة نفسه الحاجة إلى كوب من أكواب الشاى تلك التى تدار هناك ، فقد كان هو أيضاً قد كَلِف بالشاى وشعر بالحاجة إلى أن يشربه مصبحاً وممسياً ، وإلى أن يستكمل منه النصاب . ولكنه حرم هذا كله ؛ فهؤلاء القوم يتندّرون ويتناظرون ويدرسون ويشربون الشاى غير بعيد ، وهو لا يستطيع أن يشارك فى شىء من هذا ، ولا يستطيع أن يطلب إلى أخيه الإذن له بأن يحضر مجلس هؤلاء الشباب ، ويستمتع بما فيه من لذة العقل والجسم معاً .

لا يستطيع أن يطلب ذلك ؛ فأبغض شىء إليه أن يطلب إلى أحد شيئاً . ولو قد طلب ذلك إلى أخيه لرده عنه ردًّا رفيقاً أو عنفاً ، ولكنه مؤلم له ، مؤذ لنفسه على كل حال . فالخير فى

أن يملك على نفسه أمرها ، ويكتم حاجة عقله إلى العلم ، وحاجة أذنه إلى الحديث ، وحاجة جسمه إلى الشاى ، ويظل قابعاً فى مجلسه مطرقاً مغرقاً فى تفكيره . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد ترك أخوه باب الغرفة مفتوحاً إلى أقصى غايته ، وهذه أصوات القوم تبلغه ، وهذه ضحكاتهم تصل إليه ، وهذه دقات مصمتة تنتهى إليه فتؤذنه بأن صاحب الشاى يحطم الخشب ليوقد النار . وكل هذه الأصوات التى تنتهى إليه تثير فى نفسه من الرغبة والرهبة ، ومن الأمل واليأس ، ما يُعَنِّيه ويضنيه ، ويملأ قلبه بؤساً وحزناً ، ويزيد فى بؤسه وحزنه أنه لا يستطيع حتى أن يتحرك من مجلسه ، وأن يخطو هذه الخطوات القليلة التى تمكنه من أن يبلغ باب الغرفة ويقف أمامه حيث يكون أدنى إلى هذه الأصوات ، وأجدر أن يسمع ما تحمله مما يتحدث به القوم . لقد كان ذلك خليقاً أن يسره ويُسليه، ولكنه لا يستطيع أن ينتقل من مكانه ، لا لأنه يجهل الطريق إلى الباب ، فقد كان حفظ هذه الطريق ، وكان يستطيع أن يقطعها متمهلا مستأنياً ، ولكن لأنه كان يستحيي أن يفاجأه أحد المارة فيراه وهو يسعى متمهلا مضطرب الخطى . وكان يشفق أن يفجأه أخوه الذى كان يلمّ بالغرفة من حين إلى حين ليأخذ كتاباً أو أداة أو لوناً من ألوان الطعام التى كانت تُدَّخَر ليتبلَّغ بها أثناء الشاى فى غير أوقات الإفطار أو العشاء .

وكان كل شيء أهون على الصبي من أن يفجأه أخوه وهو

يسعى مضطرباً حائراً : فيسأله: ما خطبك؟ وإلى أين تريد؟ فكان إذن يرى الخير كل الخير فى أن يبقى فى مكانه ويؤثر العافية، ويردد فى نفسه تلك الحسرات اللاذعة التى كان يجدها ، وحسرات أخرى لم تكن أقل منها لذعاً وإيلاماً . حسرات الحنين إلى منزله ذاك ، فى قريته تلك من قرى الريف . هنالك حين كان يعود من الكُتّاب وقد أرضى حاجته إلى اللعب ، فيتبلغ بكسرة من الخبز المجفف مازحاً مع أخواته قاصًّا على أمه ما أحب أن يقص عليها من أنباء يومه فى الكتّاب . فإذا بلغ من ذلك ما أراد خرج من الدار فأغلق الباب وراءه ، ثم مضى حتى يبلغ جدران البيت الذى كان يقوم أمامه فلزمه ماضياً نحو الجنوب ، حتى إذا بلغ مكاناً بعينه انحرف إلى يمين ، ثم مضى أمامه خطوات حتى ينتهى إلى حانوت الشيخ محمد عبد الواحد وأخيه الشاب الحاج محمود ، فجلس هناك متحدثاً متندراً مستمعاً لما كان يقوله المشترون من الرجال والمشتريات من النساء من هذه الأحاديث الريفية الساذجة التى تمتع باختلافها وطرافتها وسذاجتها أيضاً .

وربما قل الطارئون على الحانوت من المشترين والمشتريات . فخلا للصبى أحد صاحبى الحانوت ، وجعل يتحدث إليه أو يقرأ له فى كتاب من الكتب . وربما عدل الصبى عن السعى إلى الحانوت وخرج من داره فجلس على المصطبة الملاصقة لها مطرقاً يسمع حديث أبيه الشيخ مع أصحابه فى مجلسهم ذاك الذى كانوا يعقدونه منذ تصلّى

العصر إلى أن يدعوهم مؤذن المغرب إلى العشاء .

وربما عدل الصبى عن الخروج من داره وخلا إلى رفيق من رفاقه فى الكُتَّاب ، قد أقبل عليه ومعه هذا الكتاب أو ذاك من كتب الوعظ ، وهذه القصة أو تلك من قصص المغازى ، فجعل يقرأ له حتى يدعوه غروب الشمس إلى العشاء . هنالك لم يكن الصبى يشعر بالوحدة ، ولم يكن يُضطر إلى السكون ، ولم يكن يجد ألم الجوع ، ولم يكن يجد ألم الحرمان ، ولم يكن يتحرق إلى كوب من أكواب الشاى .

كانت كل هذه الحسرات تضطرب فى نفس الصبى أشد الاضطراب وهو ساكن أشد السكون . وربما صرفه عنها لحظة صوت المؤذن حين كان يدعو إلى صلاة العصر فى جامع بيبرس ، ولكنه كان صوتاً منكراً أشد النكر، فكان يذكّر الصبى بصوت المؤذن فى بلده ، ولم يكن خيراً من هذا الصوت ولكنه كثيراً ما أتاح للصبى ألواناً من اللهو واللعب . فكم صعد المنارة مع المؤذن ، وكم أذّن مكانه وكم شاركه فى هذا الدعاء الذى يدعى به بعد الأذان ! ولكنه هنا فى هذه الغرفة لا يستحب هذا الصوت ، ولا يستطيع أن يشارك فى الأذان ، ولا يعرف حتى من أين يأتى هذا الصوت ، وهو لم يدخل قط مسجد بيبرس ، وهو لا يعرف الطريق إلى مئذنته ، وهو لم يَبْلُ درج هذه المئذنة ، ولم يعرف أتستقيم للمصعد فيها وتتسع له أم تلتوى به وتضيق عليه كشأن مئذنته فى الريف .

لا يعرف شيئاً من ذلك ولا سبيل إلى أن يعرف منه شيئاً . إنما هو السكون ، والسكون المتصل الطويل . يا للألم ! إن العلم ليكلف طُلاَّبه أهوالا ثقالا .

وكان هذا السكون يطول على الصبي فيجهده . وربما أخذته إغفاءة وهو جالس في مكانه ، وربما اشتدت عليه هذه الإغفاءة فاضطرته إلى أن يستلقي ويسلِّم نفسه للنوم . وكان يسمع من أمه أن نوم العصر بغيض مؤذ للأجسام والنفوس . ولكن كيف السبيل إلى أن يرد عن نفسه هذا النوم البغيض ! ولكنه يهبّ فزعاً مذعوراً ؛ فقد سمع صوتاً يدعوه بهذه الكلمة التي رنت في آذانه أعواماً وأعواماً : « مولانا أنائم أنت؟ » . يهب فزعاً مذعوراً لأن أخاه أقبل ينظر إليه ويسأله عن شأنه ويحمل إليه عشاءه . وكان عشاؤه لذيذاً حقًّا ؛ فقد كان يتألف من رغيف وقطعة من الجبن الذي يسمى الجبن الرومي ، أو قطعة من الحلاوة الطحينية . كان هذا عشاءه في أثناء الأسبوع . فكان أخوه يضع ذلك أمامه ويودعه منصرفاً عنه ليذهب إلى الأزهر فيحضر درس الأستاذ الإمام .

وكان الصبي يُقبل على طعامه راغباً عنه حيناً وراغباً فيه حيناً آخر ، ولكنه كان يستنفذه على كل حال . كان يبيح لنفسه الإقلال من الطعام إذا أكل مع أخيه ، ولم يكن أخوه يكلمه في ذلك أو يسأله عنه . فأما إذا خلا إلى طعامه فقد كان يأتي عليه كله

حتى ولو رغب عنه أو ضاق به مخافة أن يُبقى منه شيئاً . ويعود أخوه ويرى ذلك فيظن به المرض أو يظن به الحزن . وكان أبغض شيء إليه أن يثير فى نفس أخيه همًّا أو قلقاً .

كان إذن يقبل على طعامه، حتى إذا فرغ منه عاد إلى سكونه وجموده فى ركنه الذى اضطر إليه ، وقد أخذ النهار يتصرَّم وأخذت الشمس تنحدر إلى مغربها ، وأخذ يتسرب إلى نفسه شعور شاحب هادئ حزين ، ثم يدعو مؤذن المغرب إلى الصلاة ، فيعرف الصبى أن الليل قد أقبل ، ويقدِّر فى نفسه أن الظلمة قد أخذت تكتنفه ، ويقدر فى نفسه أن لو كان معه فى الغرفة بعض المبصرين لأضىء المصباح ليطرد هذه الظلمة المتكاثفة ، ولكنه وحيد لا حاجة له إلى المصباح فيما يظن المبصرون، وإن كان ليراهم مخطئين فى هذا الظن ؛ فقد كان ذلك الوقت يفرِّق تفرقة غامضة بين الظلمة والنور، وكان يجد فى المصباح إذا أضىء جليساً له ومؤنساً ، وكان يجد فى الظلمة وحشة لعلها كانت تأتيه من عقله الناشئ ومن حسه المضطرب . والغريب أنه كان يجد للظلمة صوتاً يبلغ أذنيه، صوتاً متصلا يشبه طنين البعوض لولا أنه غليظ ممتلئ . وكان هذا الصوت يبلغ أذنيه فيؤذيهما ، ويبلغ قلبه فيملؤه روعاً ، وإذا هو مضطر إلى أن يغير جلسته فيجلس القرفصاء ويعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويخفى رأسه بين يديه ؛ ويسلِّم نفسه لهذا الصوت الذى يأخذه من كل مكان . ومع أن سكون

العصر كان كثيراً ما يضطره إلى النوم فقد كان سكون العشية يضطره إلى اليقظة التى لا تشبهها يقظة .

وكان ينتهى إلى أن يألف صوت الظلمة ويطمئن إليه . ولكن فى الغرفة أصواتاً أخرى كانت تُفزعه وتروعه ، أصوات مختلفة : فقد كانت هذه الغرفة من غرفات الأوقاف . ومعنى ذلك أنها كانت قديمة ، قد طال عليها العهد ، وبعد بها الأمد ، وكثرت فى جدرانها الشقوق ، وعمرت هذه الشقوق طوائف من الحشرات وغيرها من صغار الحيوان . وكانت هذه الحشرات وهذه الصغار من الحيوان كأنما وُكِّلت بالصبى إذا أقبل الليل عليه وهو قابع وحده ذلك الركن من أركان الغرفة : فهى تبعث من الأصوات الضئيلة ، وتأتى من الحركات الخفيفة السريعة حيناً والبطيئة حيناً آخر ما يملأ قلب الصبى هلعاً ورعباً . فإذا أقبل أخوه وحده أو مع أصحابه فأضىء المصباح انقطعت هذه الأصوات والحركات كأنها لم تكن . وكان الصبى من أجل هذا ومن أجل أشياء أخرى غير هذا لا يجرؤ على أن يذكر من أمر هذه الأصوات والحركات شيئاً . وأيسر ما كان يخاف إن تحدّث ببعض ذلك أن يسفّه رأيه وأن تظن بعقله وبشجاعته الظنون ، فكان يؤثر العافية ويكظم خوفه من الحشرات وصغار الحيوان .

وهذا المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء ، فيثير فى نفس الصبى أملا قصيراً يتبعه يأس طويل ؛ فقد انتهى درس الأستاذ الإمام ،

وسيقبل أخو الصبى بعد قليل فيضىء المصباح ويضع محفظته فى مكانها ، ويأخذ ما يحتاج إليه من كتاب أو أداة أو طعام، ويشيع فى الغرفة فى أثناء ذلك شيئاً من الأنس ، ويطر دمن الغرفة فى أثناء ذلك تلك الوحدة المنكرة ، ولكنه سيلقى إلى الصبى تلك الوسادة التى سيضع عليها رأسه ، وذلك اللحاف الذى سيلتف فيه لينام ، وسيشهد التفافه فى لحافه ووَضْعَ رأسه على وسادته ، ثم يطفىء المصباح و ينصرف ، ويغلق الباب من ورائه ويدير فيه المفتاح، ويمضى وهو يظن أنه أسلم الصبى إلى النوم وإن كان لم يسلمه إلا إلى أرق متصل مخيف .

وسيعود بعد ساعتين أو بعد ساعات ، وقد طعم وشرب الشاى ، وناظر أصحابه وأعد معهم ما شاء الله أن يعد من درس للغد ، فيدير المفتاح ثم يضىء المصباح ، وهو يظن أن الصبى مغرق فى نوم هادئ لذيذ ، وما ذاق الصبى فى حقيقة الأمر نوماً ، وإنما انتظر جَزِعاً فَزِعاً عودة أخيه .

فإذا استلقى أخوه على فراشه بعد أن أطفأ مصباحه وأخذ تنفسه المضطرب أو المنتظم يدل على أنه نام ، فقد أخذ الصبى يحس الأمن والدعة ، ويدير فى نفسه خواطر الأمِن الوادع وتفكير الهادئ المطمئن .

وهنالك تتصل يقظته الآمنة بنومه اللذيذ دون أن يشعر بهذا الاتصال .

٦

ولكن صوتين غريبين يردّانه فجأة إلى يقظة فزعة : أحدهما صوت عصاً غليظة تضرب الأرض ضرباً عنيفاً ، والآخر صوت إنسانى متهدج مضطرب لا هو بالغليظ ولا هو بالنحيف . يذكر الله ويسبح بحمده ، ويمد ذكره وتسبيحه مدًّا طويلا غريباً . وقد سكن كل شيء وشمل هدوء الليل كل شيء ، وجعل هذا الصوت الإنسانى ينبعث بين حين وحين متهدجاً مرجّعاً ، تقطعه ضربات العصا على الأرض ، وهو يبدو قويًّا فيذيع فى الليل الهادئ شيئاً يشبه الاضطراب ، ثم يدنو قليلا قليلا حتى يكاد يبلغ غرفة الصبى ، ثم ينحرف ويضعف شيئاً فشيئاً حتى يكاد ينقطع . ثم يبدو مرة أخرى قويًّا متصلا بعد أن هبط صاحبه سلم « الربع » واستقامت له طريقه فى الحارة ، ثم يبعد شيئاً فشيئاً حتى ينقطع .

وقد ارتاع الصبي لهذا الصوت أو لهذين الصوتين حين سمعهما لأول مرة ، وأتعب نفسه فى التفكير فيهما والبحث عن مصدرهما . ولكنه لم يظفر من بحثه بطائل ، إلا أنه فقد النوم وأتم ليله مؤرقاً مروَّعاً حتى رد الأمن والطمأنينة إلى قلبه صوت المؤذن وهو ينادى : « الصلاة خير من النوم » . فهب الصبي مترفقاً ، وهب أخوه عنيفاً عجلا ، وما هى إلا دقائق حتى كانا يهبطان السلم ويجدّان

فى طريقهما إلى الأزهر ، ليسمع أحدهما درس الأصول ، وليسمع الآخر درس الحديث .

وجعل هذان الصوتان يوقظان الصبى كل يوم فى أول الثلث الأخير من الليل، وجعل الصبى يراع لهذين الصوتين ولا يعرف لهما مصدراً . ولا يجرؤ على أن يسأل أخاه أو غير أخيه عنهما . حتى كانت ليلة الجمعة، فأيقظه الصوتان وروّعاه كدأبهما فى كل ليلة، ورد المؤذن إليه الأمن والهدوء كدأبه فى كل صباح ، ولكن الصبى لم يهب مترفقاً، ولكن أخاه لم يهب عجلا عنيفاً ؛ فليس فى فجر الجمعة ولا فى صباحه دروس ، وليس الشيخ الفتى ولا الشيخ الصبى فى حاجة إلى أن يقطعا نومهما .

فأما نوم الصبى فقد قطعه هذان الصوتان . وأما أخوه فلم يسمعهما هذه الليلة كما لم يسمعهما من قبل . ولبث الصبى فى فراشه ضيقاً بهذا السكون ، عاجزاً عن الحركة ، مشفقاً أن يوقظ أخاه ، حتى صلِّيت الفجر وانتشر ضوء الشمس ونفذت أشعتها إلى الغرفة فاترة ، وإذا الصبى يسمع هذين الصوتين مرة أخرى ولكنه يسمعهما هادئين رفيقين . فأما العصا فتداعب الأرض مداعبة يسيرة ، وأما الصوت فيصافح الهواء مصافحة حلوة لا تخلو من فتور . والصبى يعجب لهذين الصوتين اللذين يعنفان حين يسكن الليل وينام الناس ويحسن الرفق ، واللذين يرقان ويلطفان حين ينشط النهار ويستيقظ الناس ويتاح للأصوات أن ترتفع

وأن تأخذ حظها من الحرية والنشاط . وهو مع ذلك مضطر إلى سكونه ، مشفق إن تحرك أن ينبه أخاه ، حتى تشتد حرارة الشمس على رأسه فيستوى جالساً فى أناة ، ويتزحزح من مكانه فى رفق حتى يبلغ مكاناً لا تلفحه حرارة الشمس فيستقر فيه دون أن يتحرك .

وهو بهذا ضيق ، وله كاره ، وعليه مكره ، وأخوه مغرق فى نومه لا يفيق ، ولكن الباب يطرق طرقاً عنيفاً وصوت من ورائه ينادى مرتفعاً ساخطاً صاخباً : « هلم يا هؤلاء ، هلم يا بهائم ، أفيقوا إلى متى تنامون ! أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ! طلاب علم ينامون حتى يرتفع الضحى لا يؤدون الصلاة لوقتها . هلم يا هؤلاء ! هلم يا بهائم ، أعوذ بالله من الكفر ، أعوذ بالله من الضلال ! » .

ويد هذا الصوت تقرع الباب وعصاه تقرع الأرض ، ومن حوله ضحكات ترافقه . وقد هب الشيخ الفتى لأول نبأة ، ولكنه ظل فى مكانه ساكناً ثابتاً يُغرق فى ضحك مكتوم مكظوم كأنه يستحب ما يسمع ويستزيد منه ويريد أن يتصل . فأما الصبى فقد عرف هذا الصوت وعرف هذه العصا . إنه الصوت الذى كان يضطرب فى الليل ، وإنها العصا التى كانت تقرع الأرض لتوقظها من نومها . من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ وما عسى أن تكون عصاه ؟ وما هذا الضحك الذى يتبعه ؟ وقد نهض الفتى جاهراً بضحكه

فسعى إلى الباب ففتحه ، واندفع منه هذا الرجل صاخباً : « أعوذ بالله من الكفر ! أعوذ بالله من الضلال ! اللهم اصرف عنا الأذى . أعذنا من الشيطان الرجيم ، أناس أنتم أم بهائم ! أمسلمون أنتم أم كفار ، أتتعلمون على شيوخكم هدى أم ضلالا ! » .

وقد اندفع معه الشباب من أصحاب الفتى وهم يجأرون بالضحك ويغرقون فيه . وهنالك عرف الصبي هذا الرجل ، وهو عمِّى الحاج على .

وكان عمِّى الحاج على رجلا شيخاً قد تقدمت به السن حتى جاوز السبعين ، ولكنه احتفظ بقوته كلها : احتفظ بقوة عقله فهو ماكر ماهر ظريف لبق ، واحتفظ بقوة جسمه فهو معتدل القامة ، شديد النشاط ، متين البنية ، عنيف إذا تحرك ، عنيف إذا تكلم ، لا يعرف الهمس ، ولا يحسن أن يخافت صوته ، وإنما هو صائح دائماً . وكان عمِّى الحاج على فيما مضى من دهره — كما علم الصبي فيما بعد — رجلا تاجراً ، قد ولد فى الإسكندرية وشب فيها ، واحتفظ بما لأهل الإسكندرية من قوة وعنف ، ومن صراحة وظرف . وكان يتجر فى الأرز ، ومن أجل ذلك سمى عمى الحاج على الرزاز . فلما تقدمت به السن أعرض عن التجارة أو أعرضت التجارة عنه . وكان له بيت فى القاهرة يغل عليه شيئاً من مال ، فاتخذ لنفسه غرفة فى هذا الربع الذى لم يكن يسكنه من غير المجاورين إلا هذا الرجل وهذان الفارسيان اللذان ذكرا فى بعض هذا الحديث .

ولم يكد عمى الحاج على يستقر فى غرفته تلك فى آخر الربع عن شمال إذا صعدت السلّم حتى لفت إليه هؤلاء الشباب من طلاب العلم ، أضحكهم وراقوه ، فاتصلت بينه وبينهم مودة حلوة متينة نقية ، فيها ظرف كثير ، وفيها رقة وتحفظ يؤثران فى القلوب حقّا . فقد كان هذا الشيخ يعرف من هؤلاء الشباب حبهم للعلم ، وجِدّهم فى الدرس ، وصدوفهم عن العبث ، وكان يحب منهم ذلك . فإذا بدأ أسبوع العمل لم يسع إليهم ، ولم يعرض لهم ، حتى كأنه لا يعرفهم إلا أن يسعوا هم إليه ، أو يلحوا هم عليه فى أن يشهد معهم طعاماً أو يشاركهم فى الشاى . فإذا كان يوم الجمعة لم يمهلهم ولم يخل بينهم وبين أنفسهم ، وإنما انتظر بهم حتى يتقدم النهار ، وحتى يعلم أنهم قد أرضوا نفوسهم من النوم والراحة . هنالك يخرج من غرفته فيبدأ بأقرب غرف هؤلاء الشباب إليه ، فيوقظ صاحبها فى هذا العنف والضجيج اللذين رأيتهما ، ثم ينتقل إلى الغرفة التى تليها ومعه صاحبه الذى أيقظه ، وما يزال كذلك حتى يبلغ غرفة أخى الصبى فيوقظه على هذا النحو والشباب من حوله فرحون مرحون ، يستقبلون يوم راحتهم مبتهجين ، قد ابتسموا للحياة وابتسمت لهم الحياة .

وإلى هذا الشيخ كان تدبير طعامهم ولهوهم البرىء فى يوم الجمعة ؛ فهو الذى يقترح عليهم طعام الإفطار وقد يعده لهم فى غرفته أو فى غرفة أحدهم . وهو الذى يقترح عليهم طعام

العشاء ، ويشير عليهم بما ينبغى أن يصنعوا لإعداده ، ويشرف على هذا الإعداد ، ويقوِّم منه ما يمكن أن يعوج ، يصحبهم صباحهم ، ثم يفارقهم ليصلى الجمعة ، ثم يصحبهم ، حتى إذا وجبت العصر فارقهم لحظة ، ثم يعود إليهم فيشاركهم فى عشائهم وفيما يكون بعده من الشاى ، ثم إذا وجبت المغرب أمهم فى صلاتهم ، فإذا وجبت العشاء فارقهم ليعدُّوا الدروس التى سيسمعونها من الغد .

وكان عمى الحاج على يتكلف التقوى والورع ، ويظهر ذلك إلى أقصى ما يظهر الناس تكلفهم وتصنعهم . يبدأ بهذه الغزوة التى يجددها فى الثلث الأخير من كل ليلة ، فيخرج من غرفته صاخباً صائحاً بذكر الله والتسبيح بحمده ، ضارباً الأرض بعصاه حتى يبلغ مسجد سيدنا الحسين ، فيقرأ فيه ورد السحر ، ويشهد فيه صلاة الفجر ، ثم يعود متمتماً مهمهماً مداعباً الأرض بعصاه فيستريح فى غرفته . فإذا وجبت الصلوات أداها فى غرفته وقد فتح بابها وجهر بالقراءة والتكبير ليسمعه أهل الربع جميعاً . فإذا خلا إلى أصحابه الشباب على طعامهم أو على شايهم أو فى بعض سمرهم ، فهو أسرع الناس خاطراً ، وأظرفهم نكتة ، وأطولهم لساناً ، وأخفهم دعابة ، وأشدهم تتبعاً لعيوب الناس ، وأعظمهم إغراقاً فى الغيبة ، لا يتحفظ فى لفظ ، ولا يتحرج من كلمة نابية ، ولا يتردد فى أن يُجرى على لسانه المنطلق دائماً وبصوته المرتفع دائماً أشنع

الألفاظ ، وأشدها إغراقاً فى البذاء ، وأدلها على أبشع المعانى وأقبح الصور .

وكان أولئك الشباب يحبونه على ذلك ، أو يحبونه من أجل ذلك، أو قل إنهم يحبون ذلك منه أشد الحب ، ويَكْلَفون به أعظم الكلف ، كأنه كان يخرجهم من أطوارهم ، ويريحهم من جِدّ العلم والدرس، ويفتح لهم باباً من اللهو ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يخلون إلى أنفسهم . بل ما كانوا يستطيعون أن يلجوه حين كانوا يلتفّون حول هذا الرجل الشيخ . وحين كان يصب عليهم هُراءه هذا بغير حساب . كانوا يسمعون ذلك منه ويضحكون له ، حتى إن جنوبهم لتكاد تنقدّ من الضحك ، ولكنهم على ذلك لم يكونوا يعيدون على الشيخ كلمة من كلماته البذيئة أو لفظاً من ألفاظه النابية ، فكأنما كانوا يرون شيئاً يعجبهم ويلهيهم فيستمتعون به من بعيد ، ولا يبيحون لأنفسهم أو لا تبيح لهم ظروفهم أن يدنوا منه أو يسعوا إليه .

ولم يكن ذلك يدل على أقل من هذه الصفة الغريبة الخليقة بالإعجاب والرحمة معاً ، والتى كان هؤلاء الشبان يمتازون بها من كثير من زملائهم وأقرانهم ، وهى كظم الشهوات وأخذ النفس بألوان من الشدة تمكنهم من المضى فى الدرس على وجهه ، وتردهم عن التورط فيما كان كثير من زملائهم يتورطون فيه من هذا العبث السهل الذى يفلّ الحد ويفتّر العزائم ويفسد الأخلاق .

وكان الصبي يسمع لهذا كله فيفهم ويحفظ ويعجب ، ويسأل نفسه: كيف يجتمع طلب العلم وما يحتاج إليه من الجد مع هذا التهالك على الهزل والتساقط على السخف فى غير تحفظ ولا احتياط ؟ ! وكان يعاهد نفسه على أنه إذا شب وبلغ طور هؤلاء الطلاب الذين يُكبرهم ويقدِّر ذكاءهم فلن يسير سيرتهم ولن يتهالك على العبث كما يتهالكون عليه .

وكان يوم الجمعة يوم البطون فى حياة هؤلاء الطلاب وفى حياة صديقهم الشيخ . فكانوا إذا أصبحوا اجتمعوا إلى إفطار غزير دسم صاخب ، قوامه الفول والبيض ثم الشاى ، وما كانوا قد ادّخروا من هذه الفطائر الجافة التى كانت أمهاتهم يزوِّدنهم بها ويضعن فى صنعها وفى تعبئتها قلوبهن الساذجة وما يملؤها من حب وعطف وحنان . وكم ذكر الصبي جهد أبيه فى كسب ما لم يكن بد من كسبه من النقد لتستطيع أمه أن تهيئ لابنيها زادهما ، وجِدّ أمه فى صنع هذا الزاد وتكلفها الفرح وهى تهيئه ، وحزنها الصامت وهى تعبئه ، ودموعها المنهمرة وهى تسلِّم أحماله إلى من سيذهب به إلى القطار .

كم ذكر الصبي هذا كله حين كان هؤلاء الشباب يلتهمون هذا الزاد التهاماً، يغمسونه فى الشاى كما كان يوصيهم الشيخ ، أو يقضمونه بأسنانهم وأضراسهم قضما ، ثم يعبون فى أكواب الشاى ليبلّوه فى أفواههم ولتسيغه حلوقهم بعد ذلك سهلا هيناً ، وهم فى أثناء

ذلك يتضاحكون من دعابة الشيخ وفكاهته ، لا يذكرون آباءهم وما جدّوا ، ولا يذكرون أمهاتهم وما احتملن من كد وما ذرفن من دموع .

وكان الشيخ وأصدقاؤه الطلاب يدبِّرون عشاءهم أثناء الدورة الثانية والثالثة من الشاى الذى يُقبلون عليه بعد الإفطار . وكان تدبيرهم لهذا العشاء يقبض نفس الصبي ويملؤها خجلا ، فلما فكر فيه بعد أن تقدمت به السن وجد لذكراه حناناً وإعجاباً . كانوا يتداولون ويتشاورون ، ولم يكن ميدان مداولاتهم ومشاوراتهم واسعاً ولا عريضاً ، وإنما هما لونان من ألوان الطعام لم يشذوا عنهما قط : فإما البطاطس فى خليط من اللحم والطماطم والبصل ، وإما القرع فى خليط من اللحم والطماطم والبصل وشىء من الحمص . وكانوا يتفقون على أقدار ما يشترون من هذه الأصناف كلها ، ثم يقدرون ثمن ما سيشترون ، ثم يخرج كل منهم حصته من هذا الثمن إلا الشيخ فكانوا يخرجونه من هذه الغرامة . فإذا اجتمع لهم ما يحتاجون إليه من نقد ، ذهب أحدهم فاشترى لهم طعامهم . فإذا عاد بما اشترى نهض أحدهم إلى موقده فأوقد فيه ناره من هذا الفحم البلدى ، حتى إذا صَفَتْ جذوته أقبل على الطعام يهيئه وأصحابه ينظرون إليه مجتمعين أو متفرقين ، والشيخ يلقى إليه نصائحه بين حين وحين . حتى إذا تم له من تهيئة الطعام ما أراد خلّى بينه وبين هذه النار تنضجه على مهل ، واجتمع

القوم إلى صديقهم الشيخ يعبثون ، أو إلى أنفسهم يدرسون، وطاهيهم يخطف نفسه بين حين وحين ليلقى نظرة على هذا الطعام مخافة أن يحترق أو يفسد ، وليلقى عليه بين حين وحين قطرات من ماء . وكلهم يتنسم هذه الرائحة الذكية التى تبعثها النار من هذا الطعام كلما تقدمت به إلى الإنضاج ، وكلهم يجد فى تنسم هذه الرائحة مقدمة لذيذة لعشاء لذيذ . ومن المحقق أنهم لم يكونوا وحدهم يصطنعون هذا الطعام ، وإنما كان لهم فى الربع زملاء يصطنعون مثله ويتنسمون رائحته مثلهم . ومن المحقق أيضاً أن قد كان لهم فى الربع زملاء تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يصنعوا لأنفسهم من الطعام مثل ما كانوا يصنعون . ومن المحقق أيضاً أن هؤلاء العمال الذين كانوا يسكنون الدور السفلى من الربع كانت تقصر بهم ذات أيديهم عن أن يُطرفوا أنفسهم وأبناءهم ونساءهم بمثل هذا الطعام . وأكبر الظن أنهم كانوا يجدون من نسأئهم لهذا الحرمان همًّا ثقيلا . وأكبر الظن أن هؤلاء المحرومين من الطلاب والعمال كانوا يجدون فى هذه الروائح التى كانت تملأ الربع يوم الجمعة لذة مؤلمة أو ألماً لذيذاً .

وكانت نار هذا الفحم البلدى بطيئة طويلة البال ، فكان ذلك يطيل لذة قوم ويمد ألم آخرين . حتى إذا صلّيت العصر ودعيت الشمس إلى الغروب كان الطعام قد نضج ، فاجتمع القوم حول مائدتهم وأقبلوا على طعامهم فى نشاط يشبه الجد الهازل أو الهزل

الجاد . كلهم حريص على أن يستوفى حظه من هذا الطعام ، وكلهم يراقب أصحابه أن يسبقوه أو يشتطوا عليه ، وكلهم يستحيي أن يظهر هذا الحرص أو يبدى هذه المراقبة . ولكن الشيخ معهم ، فصراحته تغنى عن صراحتهم ، وهزله يفضح ما أسروا من الجد ، فهو يراقبهم جميعاً ، وهو يقسم الطعام بينهم بالعدل ، وهو يصد أحدهم إن همّ أن يجور على أصحابه ، لا يخفى ذلك ولا يتحفظ فيه ، وإنما يعلنه صاخباً كعادته ، منبهاً هذا إلى أنه يخدع نفسه عن قطعة البطاطس بقطعة اللحم ، ومنبهاً ذاك إلى أنه يسرف على نفسه وعلى أصحابه بما يغترف فى لقمته الغليظة من جامد الطعام أو سائله ، مرسلا ألفاظه إلى هذا وذاك فى هزل يخف على أسماعهم ويحسن موقعه من نفوسهم ، ويضحكهم ، ولا يؤذيهم فيما ينبغى لهم من الحياء .

والصبى فى أثناء هذه المعركة الضاحكة خجل وجل ، مضطرب النفس مضطرب حركة اليد ، لا يحسن أن يقتطع لقمته ، ولا يحسن أن يغمسها فى الطبق ، ولا يحسن أن يبلغ بها فمه . يخيّل إلى نفسه أن عيون القوم جميعاً تلحظه ، وأن عين الشيخ خاصة ترمقه فى خفية ، فيزيده هذا اضطراباً ، وإذا يده ترتعش ، وإذا بالمرق يتقاطر على ثوبه ، وهو يعرف ذلك ويألم له ولا يحسن أن يتقيه . وأكبر الظن بل المحقق أن القوم كانوا فى شغل عنه بأنفسهم . وآية ذلك أنهم يفكرون فيه ويلتفتون إليه ويحرّضونه على أن يأكل ويقدمون إليه ما لا تبلغه يده ، فلا يزيده ذلك إلا اضطراباً

واختلاطاً ، وإذا هذه المعركة الضاحكة مصدر ألم لنفسه وحزن لقلبه ، وكانت خليقة أن تسره وأن تضحكه ، ولكنها إن آذته فى أثناء الطعام فقد كانت تسره وتسلّيه وتضطره أحياناً إلى أن يضحك وحده إذا خلا إلى نفسه بعد أن يشرب الجماعة شايهم وينتقلوا إلى حيث يدرسون أو يسمرون .

وكذلك أنفق هؤلاء الشباب أعواماً طويلة مع هذا الشيخ . وشبّ الصبى فى هذه الحياة الضاحكة بفضل الشيخ على رغم ما كان يعترض طريقها من أسباب الحزن والألم والأسى .

ثم تفرقت الجماعة ، وذهب كل من هؤلاء الشباب لوجهه ، وتركوا الربع واستقروا فى أطراف متباعدة من المدينة ، وقلّت زيارتهم للشيخ ، ثم انقطعت ، ثم تناسوه ، ثم نسوه .

وفى ذات يوم حمل إلى أفراد هذه الجماعة نعى الشيخ ، فحزنت قلوبهم ولم يبلغ الحزن عيونهم ، ولم يرسم آياته على وجوههم . وأخبر المخبر الصادق أن آخر كلمة نطق بها الشيخ وهو يُحتَضَرُ إنما كانت دعاءه لأخ الصبى .

فرحم الله عمى الحاج على ! لقد كان ظله على الصبى ثقيلا وإن ذكره ليملأ قلبه بعد ذلك رحمة وحناناً .

٧

ولم يكن هؤلاء الشباب يستمدون فرحهم ومرحهم من ذلك الشيخ وحده ، وإنما كان لفرحهم ومرحهم مصدر آخر فى بعض الأحيان . ولكن فرحهم كان مقتصداً ومرحهم كان هادئاً إذا جاءهم من هذا المصدر الآخر . كانوا يفرحون بمقدار ، ويمرحون من وراء ستار ، إذا لقوا صاحبهم ذاك الذى كان يسكن غرفة فى أقصى الربع من يمين ، كما كان الشيخ فى أقصى الربع من شمال . وكان صاحب الغرفة اليمنى رجلا متوسط السن قد جاوز الأربعين من غير شك ولكنه لم يبلغ الخمسين . وكان طالب علم ، وقد أنفق فى الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يظفر بدرجة العالمية بعدُ ولم يستيئس من الظفر بها ، ولكنه لم يقصر عليها جهده ولم يقف عليها حياته ، وإنما كان يطلبها ويطلب معها أشياء أخرى هى التى يطلبها الناس فى حياتهم . فقد كان له زوج وكان له بنون . وكان يمنح زوجه وأبناءه من وقته إجازة الصيف وإجازة الصوم ، وهذه الإجازات القصار التى كانت تتخلل دراسة الأزهريين أحياناً . وكان أهله يقيمون فى القرية قريباً من القاهرة ؛ فلم يكن الانتقال إليهم والارتحال عنهم يكلفان الرجل جهداً ثقيلا أو نقداً كثيراً . وكان ككثير من أهل إقليمه يملك

قطعة أو قطعاً صغيرة من الأرض ، وقد أصهر إلى رجل يملك قطعة أو قطعاً من الأرض أيضاً . فلم يكن فقير الحال كما كان يقال فى ذلك الوقت ، ولكنه لم يكن عظيم اليسار ؛ وكان قبل كل شيء مقتصداً يوشك اقتصاده أن يبلغ البخل .

وكان حبه للعلم معتدلا ، وكانت رغبته فى العلم متواضعة ، وكان إقباله على الدرس ضئيلا جدًّا ، وكان ذكاؤه أضأل من إقباله على الدرس ، واستعداده لفهم العلم أقل من إقباله عليه . وكان مع ذلك يرى نفسه ذكيًّا ، ويرى نفسه مظلوماً ؛ لا لأنه تقدم لنيل الدرجة فرُدّ عنها واشتطت عليه اللجنة فى الامتحان ، فقد أنفق فى الأزهر أكثر من عشرين سنة ولم يتقدم للامتحان ، وكان يستطيع أن يتقدم بعد اثنتى عشرة سنة ، ولكنه لم يفعل لأنه كان يرى الأزهر من وراء منظار قاتم أو شاحب .

كان يسيء الظن بالطلاب ، وكان يرى مخطئاً أو مصيباً — وأكبر الظن أنه كان مخطئاً — أن الدرجات لا تنال فى الأزهر بالذكاء والبراعة ، ولا بالجد والتحصيل ، وإنما تنال من جهة بالحظ والمصادفة ، ومن جهة أخرى بالتملق وحسن الحيلة والمهارة فى التوسل إلى الممتحنين . وكان يرى أن الحظ قد ظلمه وتحوّل عنه لسبب مجهول ، وأنه مخفق إن تقدم إلى الامتحان ؛ فالخير فى ألا يتقدم .

وكان يبتدئ عامه الأزهرى مصمماً على أن يتأهب للامتحان ،

فيتفق مع جمـــاعة من أصدقائه على أن يقرأ معهم طائفة من الكتب التى لم يكن بد من إتقانها قبل التقدم للامتحان . ثم لا يمضى شهر أو شهران حتى يشعر بأن الحظ لا يواتيه . فيهمل ثم يكسل ثم ينصرف عن الدرس إلى غيره من شؤون الحياة . وكان يعتقد أن الحظ قد ظلمه مرة أخرى ، فلم يمنحه من نباهة الذكر ومن هذا الذكاء الخداع ما يلفت إليه الشيوخ ، كما منح فلاناً وفلاناً من أصدقائه ، مع أنه فى حقيقة الأمر ليس أقل من أصدقائه فهماً للعلم ، ولا قدرة على التصرف فيه .

ولم يكن يُخفى إذا تحدث إلى أصدقائه الشباب أنه كان يعرف الطريق المأمونة المضمونة إلى الدرجة ، وأنه كثيراً ما راود نفسه عن سلوكها ، ولكن نفسه لم تطب قط عن بيع قيراط أو قيراطين ليظفر بهذه الدرجة التى تمنحه لقب العالم ، وتزيد جرايته أرغفة ، وتغلّ عليه آخر الشهر خمسة وسبعين قرشاً .

وكان من أجل هذا كله ينتظر أن تصفو له الأيام . ويبتسم له وجه الحظ ، كما ابتسم لصديقه ومواطنه فلان فى العام الماضى . فقد أقام صديقه هذا طالباً للعلم ربع قرن ، وكان ذكيًّا بارعاً . ثم تقدم فجأة إلى الامتحان فلم يَجُزْه ناجحاً فحسب ، ولكنه ظفر بالدرجة الثانية لا بالدرجة الثالثة ، ولو أنه أحسن التقرب إلى فلان من أعضاء اللجنة لظفر بالدرجة الأولى .

فلينتظر إذن كما انتظر صديقه ، ولعل الحظ أن يواتيه كما واتى

صديقه . فالأمر كله إلى الحظ أيها الأصدقاء ؛ فقد درست كما تدرسون وتعبت كما تتعبون ، وأنا أتمنى أن يكون حظكم خيراً من حظى وإن كنت لا أثق بذلك ولا أطمع فيه .

وكان هؤلاء الشباب يسمعون من صاحبهم هذه الأحاديث فيحفظونها ويثبتون فى أنفسهم طريقته فى إلقائها . وكانت طريقته طريفة حقًّا ؛ فقد كان يتحدث فى هدوء شديد وصوت هو إلى الخفوت أقرب منه إلى الجهر . وكان يعتمد على ألفاظه كأنما يريد أن يثبتها فى آذان سامعيه . وكان يفصل بين أحاديثه هذه بكثير من الفكاهات والنوادر التى كان يراها غريبة مضحكة ، فيضحك لها ويطيل الضحك ، وقد مرت على أصدقائه فلم تضحكهم ولم تلفتهم ، ولكنهم رأوه يضحك فوجموا ، ثم رأوا ضحكه متصلا فضحكوا ، ثم رأوا إغراقه فى الضحك فأغرقوا فيه . وكان ضحكه غريباً مضحكاً حقًّا إن جاز هذا التعبير ؛ فقد كان يبدؤه عالياً ثم يقطعه ويضحك صامتاً لحظة ، ثم يستأنفه عالياً ثم يقطعه ويمضى فيه صامتاً ، ثم يستأنفه ، وهكذا .

وكان الطلاب إذا خلوا إلى أنفسهم أعادوا أحاديثه ، ورددوا ألفاظه ، وقلدوا ضحكه وقضوا فى ذلك ساعة مسلية سارة .

ولكن الذى كان يعجب هؤلاء الشباب من صديقهم هذا شىء آخر ؛ فقد كان صاحب لذة بل صاحب إغراق فى اللذة وتهالك عليها . وكان يحب الحديث عن لذاته ، ويستمتع بتفصيل

هذا الحديث كما يستمتع بلذاته نفسها أو أكثر مما يستمتع بلذاته نفسها . وكانت اللذات التى يمعن فيها ويتحدث عنها بريئة إن شئت ، وآثمة إن شئت أيضاً . كان يذكر لذاته إذا خلا إلى أهله ويفصِّل ذلك تفصيلا منكراً يقطعه بضحكه الغريب . وكان يذكر لذاته إذا جلس إلى طعامه الدسم فى القرية وإلى طعامه الخشن فى المدينة ، ويفصل ذلك بفكاهاته النادرة الفاترة وضحكه المتقطع المتصل.

وكان يذكر لذاته إذا سعى فى شوارع المدينة وفى حاراتها ، وإذا وقف فى الربع نفسه يستنشق الهواء وألقى عينيه إلى الطبقة السفلى ، فلم يكن يرى امرأة فى الشارع أو الحارة أو الربع إلا فصّلها بعينه تفصيلا ، وحللها فى نفسه تحليلا ، وجردها من ثيابها تجريداً . ووجد فى هذا الجهد الآثم لذة لا تقل عنه إثماً . ولم يكن يسمى المرأة امرأة ولا سيدة ولا أنثى ، ولا شيئاً مما تعوّد الناس أن يسموها ، وإنما كان يسميها فخذاً . ولم تكن المرأة النحيلة تعدل عنه شيئاً ، وإنما المرأة كل المرأة من ضخمت حتى اكتظت أعضاؤها بالشحم واللحم ، وكان يشبهها بالوسائد حيناً وبالحشايا حيناً آخر .

وكان يستدل على مذهبه هذا بقول كعب بن زهير فى صاحبته سعاد :

هيفاءُ مقبلةً عجزاء مدبرةً
لا يُشْتَكَى قِصَر منها ولا طول

وكان يقول لأصدقائه : ألا ترون أنه لم يكد يذكر أن صاحبته كانت هيفاء إذا أقبلت حتى استدرك أمره وقوّم رأيه فذكر أنها عجزاء إذا أدبرت ! ثم يمضى بعد ذلك فى ألوان شنيعة من التفصيل ، ثم يقص الفكاهات وينثر النوادر ، ويرسل الضحك ثم يمسكه ، وقد ملك على هؤلاء الشباب أمرهم بما يلقى إليهم من حديث. وأى شىء أبلغ أثراً فى نفوس الشباب المحرومين هذه اللذات بريئها وآثمها من هذا الحديث !

وكان الصبى يسمع ذلك وهو فى ركنه منحن مطرق كأنه ليس مع القوم ، وما يفوته من حديث القوم لفظ وما تشذ عنه من أصوات القوم نبرة . وكان يقول فى نفسه : لو عرف هؤلاء الرجال مقدار ما أسمع لهم وما آخذ عنهم لاجتنبوا أن يديروا مثل هذه الأحاديث بمحضر من الصبية الناشئين .

وقد أنفق هذا الرجل منذ عرفه الصبى أعواماً فى الربع اختلفت عليه فيها شؤون كانت كلها تضحك فى ظاهر الأمر ، ولكنها تحزن وتثير الأسى عند الرويّة والتفكير .

كان فلاحاً بأدق ما تؤدى هذه الكلمة من معانى الحب للأرض ، والحرص على المال ، والجزع كل الجزع أن يُغلبَ فى بيع أو تأجير أو شراء . وكان المال ، والمال وحده ، يسيطر على أمره كله إذا ذهب إلى قريته أو فكر فيها أو لقى أحداً من أهلها . وكان صاحب لذة بأدق ما تؤدى هــذه الكلمة من معانى

الاستجابة للحس والطلب لهذه المُتَع القريبة التى لا تحتاج إلى رقة نفس ولا إلى دقة عاطفة ولا إلى صفاء ذوق . وكان طلبه للعلم وانتظاره للدرجة وسيلة من وسائله أو قل غاية من غاياته . يستريح إليها إذا جد فى تحصيل المال حتى أعياه الجِدّ ، وإذا تهالك على الاستمتاع باللذة حتى أضناه الاستمتاع . هنالك يعود إلى ربعه ويستقر فى غرفته ، ويفكر فى زملائه وشيوخه ودرجته . ويتحدث إلى أصدقائه هؤلاء ، ويشاركهم فى بعض الطعام ويشاركهم فى بعض الشاى . ولكنه كان على هذا كله مؤمناً شديد الإيمان . له نزعات صوفية غريبة تخرجه بين حين وحين عن أطواره هذه كلها ، وترده زاهداً متقشفاً يأخذ نفسه بالشدة والعنف ، ويفرض عليها عذاب الحرمان والجوع .

وقد اختلف مع حَمِيه ذات يوم فى بعض الأمور ، وزهد فى زوجه الفلاحة ، وطمح إلى أن يتخذ لنفسه زوجاً من أهل القاهرة ، ويُصهر إلى أسرة متحضرة متأنقة ، فطلق امرأته . وكان يتحدث بآماله هذه إلى أصدقائه مفصلا لهم فى أصرح الألفاظ وأبشعها ما يكون من الفروق بين نساء المدينة ونساء الريف . ولكنه أصبح ذات يوم وقد صُرِف عن المال وصرف عن نساء المدينة ونساء الريف ، وصرف عن لذة الطعام والشاى ، لأنه أحس أن الحظ سيواتيه إن تقدم للامتحان . فلا بد إذنْ من أن يتقدم . ولا بد إذن من أن يتهيأ لهذا الصراع بينه وبين الشيوخ . وأمامه

أشهر يستطيع أن يستعد فيها ، فليعبئ أصدقاءه وزملاءه القدماء والمحْدَثين ، وليفرغ للأصول والفقه وللبلاغة والنحو والتوحيد ، ولهذه المواد التي كان يتألف منها « التعيين » . وقد فعل ، وتقدم للامتحان وكان يوم امتحانه يوماً مشهوداً .

أقبل على اللجنة مع الصباح وانصرف عنها عند المساء ، فأتعبها وأتعبته . وكان قد دبر لنفسه حيلة طريفة يستريح بها من اللجنة إن اشتطت عليه ، فاشترى بطيخة أو جماعة من البطيخ وتركها قريباً من غرفة الامتحان ، وزعم للجنة حين أدخل عليها أنه مريض بسَلَس البول ، واستأذنها في أن ينصرف كلما اضطرته علته إلى الانصراف . وقد رحمته اللجنة وأذنت له أن ينصرف كلما دعته علته إلى ذلك . فكان يأخذ في تقرير الدرس ويأخذ في محاورة الممتحنين إن ألقى عليه أحدهم هذا السؤال أو ذاك ، ثم يقطع تقريره أو حواره فجأة ويستأذن في الخروج ، فإذا خرج لم يذهب إلى حيث يرضي حاجة أو يشفي علة ، وإنما ذهب إلى حيث يصيب مقداراً من البطيخ يبرد به قلبه ويشحذ به ذهنه ويسترد به خاطره كما كان يقول ، ثم عاد إلى اللجنة فاستأنف التقرير أو الحوار من حيث قطع التقرير أو الحوار . وما زال باللجنة وما زالت اللجنة به حتى انقضى أكثر النهار ، وعاد إلى غرفته سعيداً موفوراً ؛ فقد أتيح له النجاح وظفر بالدرجة الثالثة وأصبح من العلماء .

وتفرق عنه أصدقاؤه مع الصيف . فلما لقوه من الخريف كان قد فارق غرفته فى الربع وحقق آماله تلك ، فأصهر إلى أسرة من المدينة ، وأقام معها غير بعيد من مسكنه القديم .

وقد أخذته نزعته الصوفية ذات يوم، فاعتزم أن يعتكف فى المسجد أياماً يروض نفسه فيها على الصلاة والصوم وذكر الله . وقد فعل ، فلزم الخلوة أياماً لا أدرى كم عددها ولكنها لم تكن قليلة ؛ فقد خرج من الخلوة نحيلا منهوكاً . فلما عاد إلى أهله أنكروه ، ولعلهم سخروا من رجولته . فعادت إليه نفسه الفلاحة المتهالكة على اللذات ، وأدركته حميته الريفية ، فخرج مع الصباح حتى أتى مطعماً أو قهوة فأسرف على نفسه أشد الإسراف فيما التهم من فول وزيت وخبز وبصل ، ثم أسرف على نفسه أشد الاسراف فيما أطفأ به نار هذا الإفطار من شاى ، ثم أضاف إلى كل ما ألقى فى جوفه من سائل وجامد شيئاً من هذه الأشياء التى كان أمثاله يشيرون إليها ولا يسمونها ؛ فلما استقر هذا كله أو اضطرب فى جوفه عاد إلى أهله فائراً ثائراً ، فأنكروا قوته واتقوه ، وانتهى أمره إلى أن همّ بأن يثب من النافذة لولا أن أدركه بعض أعضاء الأسرة فردوه عن ذلك بعد جهد وأوثقوه ، وإذا هو مجنون قد ذهب عقله .

وما ينسى الصبى ذلك الصوت الذى كان يصل إليه ذات ليلة بعد أن صلِّيت العشاء ، والذى وقف له أولئك الشباب من

الطلاب واجمين محزونين تريد دموعهم أن تنهل فلا يمسكها إلا الحياء . وكان ذلك الصوت صوت ذلك الرجل الذى أخذه الجنون وأطلق لسانه فهو يتغنى بأبشع الهذيان . فلما أصبح ذهب به أصهاره إلى المستشفى هناك حيث يداوى أمثاله . وقد أقام فى هذا المستشفى أسابيع ، ثم خرج منه وقد تغيرت حاله كل التغيير ؛ فانخفض صوته أكثر مما كان منخفضاً ، وهدأت حركاته وانقطع ضحكه ، وأصبح يبعث فى نفس من يلقاه شيئاً غريباً من الخوف منه والإشفاق عليه .

وقد مضت الأيام بما تمضى به من الأحداث ، وتفرّق عن هذا الرجل أصدقاؤه الشباب ، وذهب كل منهم لوجه من وجوه الحياة ، وقلّ لقاؤهم لهذا الرجل ثم انقطع ، وجعلت أخباره تصل إليهم متقطعة ، ثم انقطعت هى أيضاً . وأنبأ المنبئ ذات يوم بأنه قد مات .

فسمع أصدقاؤه هذا النبأ فحزنت نفوسهم لحظة ، ولكن عيونهم لم تذرف دمعة ، ولكن وجوههم لم تنقبض إلا قليلا ، وإنما انطلقت ألسنتهم بهذه الآية الكريمة التى نتلوها دائماً كلما انتهى إلينا النعى : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

٨

وغرفة أخرى من غرفات هذا الربع كانت تقوم فيه غير بعيد عن شمالك إذا صعدت السلم . وكانت مصدر فكاهة ودعابة ولهو لهؤلاء الشباب أيضاً .

كان يسكنها شاب لعله كان أكبر من هؤلاء الطلاب شيئاً ، وقد كان أقدم منهم عهداً بالأزهر ، ولكنه كان من جيلهم ومن طبقتهم على كل حال . كان نحيف الصوت ، يكفى أن تسمعه لتضحك من صوته . وكان ضيق العقل لم يأذن الله للون من ألوان العلم أن يستقر فى رأسه لأن عقله كان محدوداً محصوراً . وكان قصير الذكاء لم يأذن الله لذهنه أن ينفذ إلى أقرب شىء وراء ما كان يقرأ فى الكتب على اختلافها . وكان مع ذلك واسع الثقة بنفسه بعيد الطمع فى مستقبله مطمئنًّا فى غير تكلف إلى أنه كأصحابه هؤلاء الذين يعيش معهم ويشاركهم فى أكثر ما يختلفون إليه من الدروس .

كان يشهد معهم درس الفقه ودرس البلاغة ودرس الأستاذ الإمام ، ولم يكن يخف لدرس الأصول؛ لأن هذا الدرس كان يقتضيه أن يخرج من غرفته مع الفجر ، وقد كان لراحته مؤثراً وبها ضنيناً . وكان يشارك أصحابه فى بعض مطالعاتهم ، وكان

يشاركهم بنوع خاص فى هذه المطالعات التى لا تتصل بالدروس المنظمة ولا بالكتب التى كان الشيوخ يقرءونها .

فقد كان هؤلاء الشبان يضيقون بكتب الأزهر ضيقاً شديداً ، يتأثرون فى ذلك برأى أستاذهم « الإمام » فى كتب الأزهر ومناهجه . وكانوا يسمعون من الأستاذ الإمام حين يشهدون درسه أو حين يزورونه فى داره أسماء كتب قيمة فى النحو والبلاغة والتوحيد والأدب أيضاً وكانت هذه الكتب القيمة بغيضة إلى شيوخ الأزهر لأنهم لم يألفوها ، وربما اشتد بغضهم لهذه الكتب لأن الأستاذ الإمام قد دل عليها ونوّه بها . وكان الذين ينافسون الأستاذ الإمام من الشيوخ الأعلام يحاولون أن يذهبوا مذهبه فيدلون طلابهم على كتب قيمة أخرى ، لا تقرأ فى الأزهر لأن الأزهريين لم يألفوا قراءتها . وكان هؤلاء الطلاب لا يكادون يسمعون اسم كتاب من هذه الكتب حتى يسرعوا إلى شرائه إن وسعهم ذلك ، وربما كلفوا أنفسهم فى هذا الشراء جهداً ثقيلا وحرماناً شديداً . فإن أعياهم ذلك استعاروه من مكتبة الأزهر ، ثم أقبلوا عليه ينظرون فيه . ثم اتفقوا على أن يقرءوه جماعة . ويتعاونوا على فهمه .

كان يدفعهم إلى ذلك حبهم الصادق للأستاذ الإمام ورغبتهم الصادقة فى العلم والاطلاع . وربما دفعهم إلى ذلك مع هذه العاطفة شيء من غرور الشباب ؛ فقد كانوا يفخرون بتلمذتهم

للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت وللشيخ أبى خطوة وللشيخ راضى ، وكان يملئون أفواههم بأنهم تلاميذ هؤلاء الأئمة وبأنهم من تلاميذهم المقربين المصطفين . ولم يكونوا يكتفون بالاختلاف إلى هؤلاء الشيوخ فى دروسهم ، وإنما كانوا يزورون شيوخهم فى بيوتهم ، وربما شاركوهم فى بعض البحث ، وربما استمعوا منهم دروساً خاصة فى يوم الخميس بعد أن تصلّى الظهر أو بعد أن تصلى العشاء . وكانوا لا يكرهون أن يعرف عنهم زملاؤهم هذا كله ، وأن يتحدث عنهم زملاؤهم بأنهم يقرءون فيما بينهم هذا الكتاب أو ذاك فى هذا الفن أو ذاك . وكانوا قد وصلوا بهذا كله إلى شىء ظاهر من الامتياز بين زملائهم ، حتى عرفوا فى الأزهر كله بأنهم أنجب طلاب الأزهر وأخلقهم بالمستقبل السعيد . فكان من المعقول أن يسعى إليهم الأوساط من زملائهم يلتمسون التفوق فى الاتصال بهم والامتياز حين يعرف الناس أنهم من أصدقائهم وأصفيائهم ، ويلتمسون بذلك الوسيلة إلى أن يتصلوا بكبار الشيوخ وأئمة الأساتذة . وكان صاحبنا من هؤلاء الطلاب الأوساط ، قد اتصل بهذه الجماعة من الطلاب ، ليقول زملاؤه إنه واحد منهم ، وليستطيع بحكم هذه الصلة أن يصحبهم فى زياراتهم للأستاذ الإمام أو الشيخ بخيت .

وكان غرور الشباب يحبب إلى هذه الجماعة هذا النوع من الامتياز ، ويهوّن عليها قبول هؤلاء الطفيليين فى العلم من ضعاف

الطلاب وأوساطهم ، ثم يتيح لهم بعد ذلك ، حين يخلون إلى أنفسهم وقد أحصوا على هؤلاء الزملاء جهالاتهم وسخافاتهم وأغلاطهم الشنيعة ، أن يعيدوا ذلك وأن يضحكوا منه ملء أفواههم وملء جنوبهم أيضاً . وأكبر الظن أن صاحبهم هذا قد عرفهم فى بعض الدروس، فما زال يدنى نفسه منهم حتى اتصل بهم فزارهم ، ثم أعجبه ربعهم وأعجبه جواره لهم فى هذا الربع ، فاتخذ فيه غرفة وأصبح واحداً منهم، يشاركهم فى الدرس ، ويشاركهم فى الشاى ، ويشاركهم فى الزيارات ، ويشاركهم فى بعض الشهرة ، ولكن الله لم يفتح عليه قط بأن يشاركهم فى العلم والفهم ، وفى الإبانة والإيضاح . ويظهر أنه كان أوسع منهم يداً ، وأكثر منهم مالا ، أو قل إنه كان يقتر على نفسه إذا خلا إليها ، فإذا اتصل بأصحابه يسّر على نفسه وأنفق عن سعة . وربما كان يشعر بحاجتهم إلى النقد لشراء كتاب، أو لأداء دين عاجل ، أو لإرضاء حاجة ملحة ؛ فيقدم إليهم من ذلك ما يريدون رفيقاً بهم متلطفاً لهم . وكانوا يعرفون ذلك له ويحمدونه ، ولكنهم لم يكونوا يطيقون جهله ، وربما لم يملكوا أنفسهم فضحكوا من هذا الجهل بمحضر منه ، وردوا عليه سخفه ردًّا عنيفاً فيه كثير من الازدراء القاسى . ولكنه كان يقبل ذلك راضياً ، ويتلقاه باسماً . وما أظن أنهم قد عرفوا فى وجهه الغضب يوماً على كثرة ما كانوا يثقلون عليه بالغض منه والازدراء له . وكان أجمل ما كانوا يتندرون به عليه

علمه بالعروض أو جهله بالعروض فكلاهما سواء . كان يطالع معهم كتاباً فى النحو ، فلا يكاد يعرض لهم شاهد — وما أكثر ما تعرض الشواهد فى كتب النحو ! — حتى يكون أسرعهم إلى رد هذا الشاهد إلى بحر من أبحر العروض ، لم يكن يختلف قط وإنما كان «البسيط» دائماً . وقد يكون البيت من « الطويل » وقد يكون من « الوافر» ، وقد يكون من أى بحر من أبحر الشعر ولكنه كان « بسيطاً » دائماً .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بالإسراع إلى إعلان أن هذا البيت من البسيط ، وإنما كان يسرع فيأخذ فى تقطيع البيت يرده إلى البسيط ، مهما يكن وزنه ، فيقطَع على الجماعة درسهم ، ويدفعهم إلى بحر من الضحك لا يكاد يعرف له حد . وقد كثر منه ذلك حتى أغرى به أصحابه وأطمعهم فيه . فكانوا كلما عرض لهم بيت من الشعر أظهروا العجز عن رده إلى وزنه حتى ينبئهم صاحبهم بأنه من البسيط . فإذا فعل أظهروا العجز عن تقطيع البيت حتى يأخذ صاحبهم فى تقطيعه فيرده إلى البسيط ، وهناك يستأنفون الضحك ، ويستأنفون الاستهزاء ، ويلقاهم هو بهذه الابتسامة الراضية التى لا تعرف الغضب ولا الغيظ .

وقد أقام هذا الشاب على ذلك مع أصدقائه أعواماً طوالا لم يغاضبهم ولم يغاضبوه . وكأنه أحس آخر الأمر أنه ليس من تلك الحلبة ، وأنه لا يستطيع أن يجرى فى ذلك الميدان ؛ فأخذ

يتخلف قليلا قليلا عن الدروس ، ويتكلف التعلات والمعاذير ، لا يشارك القوم فى مطالعتهم ، ويكتفى بالمشاركة فى الشاى والطعام أحياناً ، والزيارات دائماً .

وقد تقدمت السن بالصبى فى أثناء ذلك ، وتقدّم به الدرس أيضاً، وإذا هذا الشاب يظهر العطف عليه والقدر له ، وإذا هو يعرض عليه أن يقرأ معه الكتب ، ويُعرض عن مشاركة أقرانه وأنداده إلى مشاركة هذا الغلام الناشئ . ويأخذ الغلام فى أن يقرأ معه كتباً فى الحديث وأخرى فى المنطق وأخرى فى التوحيد ، ولكنه لا يجد عنده غناء . وليس الغلام فارغاً للضحك منه والتندر به ، وليس هو قادراً على ذلك ولا راغباً فيه ، وإذا هو يحتال فى التخلص منه والمضى لشأنه .

وإذا هذا الرجل يترك العلم أو يتركه العلم ، ولكنه يظل محسوباً على الأزهر طالباً فيه مشاركاً لأصحابه فى الناحية الاجتماعية من حياتهم . وقد ارتقت حياتهم بعض الشىء ؛ رقّاها ذكاؤهم وجدهم وتفوقهم ورضا الأستاذ الإمام عنهم وتقريبه إياهم، وإذا هم يتصلون بفلان وفلان من أبناء الأسر الغنية الثرية الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر إذ ذاك ، وإذا الزيارات تتصل بينهم وبين هؤلاء الشبان الأغنياء الأثرياء ، وصاحبهم معهم يزور ويزار ، وترتقى حياته الاجتماعية كما ارتقت حياة أصحابه . ولكن أصحابه لا يحسون هذا الارتقاء ولا يكادون يشعرون به . وهم إذن

لا يتحدثون به ولا يتمدحون بزياراتهم لتلك البيوت الممتازة وجلوسهم إلى أصحابها النابهين ، وإنما يرون ذلك شيئاً طبيعيًّا مألوفاً . فأما صاحبهم فهو الذى يراه المجد كل المجد ، ويستمدُّ منه الغبطة كل الغبطة والغرور كل الغرور ، ويستغله لبعض منافعه المادية أحياناً ، ويتحدث به دائماً إلى من أراد أن يسمع له ومن لم يرد .

وتمضى الأيام ويتفرق هؤلاء الطلاب ، وقد أخذ كل واحد منهم طريقه فى الحياة . ولكن هذا الرجل لا ينساهم ولا يسمح لهم أن ينسوه . قد عجز عن تتبعهم فى العلم فليتتبعهم فى غيره مما تمتلئ به الحياة ، يزورهم وإن لم يزوروه ، ويلقاهم فى زياراتهم عند فلان أو فلان من أصحاب المنزلة والثراء .

وقد خرج الأستاذ الإمام من الأزهر فى تلك المحنة السياسية المعروفة ، وإذا صاحبنا متصل بالأستاذ وشيعته ، متصل بخصوم الأستاذ الإمام وشيعتهم أيضاً . وقد أخذ الأزهر يضطرب ، ودخلت السياسة فى ذلك الاضطراب ، واختصمت فيه السلطتان ، وإذا صاحبنا يتصل بالمضربين مشاركاً لهم فى الإضراب ، ويتصل بخصوم الإضراب مفشياً لهم أسرار المضربين . ويتكشف الأمر ذات يوم ، ويا له من يوم ! عن أن صاحبنا قد كان متصلا بالمحافظة ، فتقطع الصلة قطعاً عنيفاً بينه وبين أصدقائه ، ويُرَدُّ عن البيوت التى كان يسعى إليها ويستقبل فيها ، ويقبع فى غرفته تلك فى الربع قد خسر الناس جميعاً ولم يخسره أحد . وقد قصرت به همته

عن درجة الأزهر فهو ينفق حياته الخاملة وحيداً بائساً محتملا خموله على مضض مكتسباً عيشه فى مشقة .

ثم ينبئ المنبئ ذات يوم بأنه قد مات . أمات من علة ؟ أمات من حسرة ؟ أم مات من الحرمان ؟ ولكن أصدقاءه يسمعون النعى فلا يأخذهم وجوم ، ولا يمس نفوسهم حزن ، وإنما يتلون هذه الآية الكريمة التى نتلوها دائماً حين ينعى إلينا الناس :

« إنا لله و إنا إليه راجعون » .

٩

وكان الربع خالياً أو كالخالى حين أقبل الصبى عليه لأول مرة ، لم يكن أهله قد عادوا إليه بعد إجازة الصوم . وقد عرف الصبى بعد ذلك أن طلاب الأزهر كانوا يستحِبون الإبطاء فى العودة إلى القاهرة بعد هذه الإجازة خاصة . ففى هذا الوقت كانت تبدأ السنة الأزهرية . وكأن الطلاب والعلماء كانوا يجدون شيئاً من المشقة والجهد فى مفارقة أهلهم وأوطانهم ، فكانوا يطيلون إجازتهم يومين أو أياماً ، وربما أطالوها أسبوعاً أو أكثر من أسبوع . ولم يكن عليهم من ذلك بأس ؛ فقد كان الأزهر حينئذ فى آخر أيامه السعيدة التى لم يكن النظام يحصى فيها على الأساتذة والطلاب أيام العمل وأيام الراحة ، والتى لم يكن فيها النظام يأخذ الأساتذة والطلاب بهذه المواظبة القاسية على الدرس فى جميع أيامه وفى جميع أوقاته، وإنما كان الأمر هيناً سهلا ، تعين المشيخة آخر الإجازة وأول العمل ، والأساتذة أحرار يبدءون متى أرادوا أو متى استطاعوا . والطلاب أحرار يُقبلون على الدروس متى أحبوا أو متى أتاحت لهم ظروفهم أن يقبلوا عليها .

كان الأمر هيناً سهلا ، وكان يعتمد على الرغبة والإرادة أكثر مما يعتمد على الدقة المقررة والنظام المحتوم . وكان أجدر أن يميز

أصحاب الجد والعمل من أصحاب الكسل والعبث ، وأن يدفع الطلاب إلى العلم حبًّا فيه وطموحا إليه لا طاعة للأمر ولا إشفاقاً من العقاب .

وكان الأساتذة والطلاب يستمتعون بهذه الحرية الحلوة السمحة فى قصد واعتدال . فكان الأسبوعان الأولان من أيام الدرس أسبوعى حرية وسعة ، كما كانا أسبوعى مودة وتعارف وبر . يُقبل الطلاب من بلادهم على مهل ، فإذا أقبلوا تزاوروا وبر بعضهم بعضاً . ثم سعوا إلى دروسهم على مهل أيضاً . ويقبل الأساتذة من بلادهم فى أناة وريث ، فإذا أقبلوا هيئوا منازلهم للإقامة الطويلة ، ثم سعى بعضهم إلى بعض بالتحية والود ، ثم بدءوا دروسهم لا معجلين ولا مرهقين . على أن كثيراً من الأساتذة والطلاب كانوا يؤثرون العلم على أهلهم وأوطانهم . فمنهم من يقيم فى القاهرة أثناء الإجازة دارساً فى بيته أو فى الأزهر نفسه أو فى غيره من المساجد ، ومنهم كان يتعجل العودة إلى القاهرة متى سنحت له الفرصة وسمحت له الظروف ، ليأخذ من الدرس الحر الخاص نصيباً قبل أن يبدأ فى الدرس المنظم المشترك .

من أجل هذا كله كان الربع خالياً أو كالخالى حين أقبل عليه الصبى وأخوه . لم يكن يعمره إلا عمى الحاج على وزميلان من زملاء الشيخ الفتى وهذان الفارسيان . ثم لم يكد الصبى يستقر فى الربع يوماً ويوماً ، حتى أخذ أهله يعودون إليه منفردين

ومجتمعين مع الصباح ومع المساء ، وحتى أخذ الربع يمتلئ بالحركة والنشاط ، وترتفع فيه الأصوات من يمين وشمال ، ويأخذ شكل المكان المزدحم بأهله أشد الازدحام . وقد كان مزدحماً بأهله حقًّا : فقد كان بعض غرفاته يكتظ بالطلاب على نحو غريب ، حتى لقد كان يسكن غرفة من هذه الغرفات عشرون طالباً .

كيف كانوا يجلسون ؟ كيف كانوا يدرسون ؟ كيف كانوا ينامون ؟ هذه أسئلة ألقاها الصبى على نفسه ولكنه لم يجد لها جواباً . وإنما عرف أن أجر الغرفة لم يكن يزيد على خمسة وعشرين قرشاً ، وربما نزل إلى العشرين فى كل شهر ، فكان الطالب يسكن بقرش واحد فى الشهر على هذا النحو .

وهذا يصور حال هـــذه الجماعات الضخمة من أبناء الريف التى كانت تفد على القاهرة لتدرس العلم والدين فى الأزهر ، فتصيب من العلم والدين ما تستطيع ، ولكنها تصيب معها ألواناً من علل الأجسام والأخلاق والعقول أيضاً . وكانت الغرفة التى تلى غرفة الصبى من جهة اليمين خالية أثناء الأسبوع الأول ، لم يسمع الصبى من قِبَلها صوتاً أو حركة. ثم انقضى الأسبوع وأقبل أسبوع آخر . فلم تشغل الغرفة ولم تأت من قِبَلها حركة أو صوت ، حتى أخذ الطلاب يتساءلون عن الشيخ الذى كان يسكنها قبل الصوم : ما خطبه ؟ ويقول بعضهم لبعض : لعله تحول عن هذا الربع

إلى مكان آخر . ولكن الصبي استيقظ فى ليلة من ليالى الجمعة على صوت عمى الحاج على يشق الليل وعلى صوت عصاه تضرب الأرض ، ففكر كما كان يفكر ، وانتظر صوت المؤذن كما كان ينتظره ، وأذّن مع المؤذّن فى نفسه كما كان يفعل . وانقطع الصوت، وجعلت نفس الصبى تتبع المصلين فى المسجد وهم يقبلون على صلاتهم ، منهم المتعجل النشيط ومنهم المتثاقل المتبلد . وإذا صوت غريب مرتفع يشق الحائط من وراء الصبى ويبلغ أذنه ، فيبعث فى جسمه رعدة تجرى فيه من رأسه إلى قدميه . ولم ينس الصبى قط هذا الصوت ، ولم يذكره قط إلا ضحكت له نفسه وإن شغل الجدشفتيه عن الابتسام . كان صوتاً غريباً، ملأ الصبى رعباً أول الأمر ، ثم دفعه إلى ضحك مرتفع لم يستطع أن يملكه على ما كان يخاف من إيقاظ أخيه: ال .. ال . .ال .. الله الله أك .. ال .. ال .. الله أك . الله أك . الله أكبر . . .

كذلك وصل الصوت إلى الصبى، فأنكر أوله وأنكر تردده ، وعرف آخره . ولكن الصوت لم ينقطع عند انتهاء التكبيرة ، وإنما استؤنف بعد ذلك مرة ومرة ، حتى استقر آخر الأمر وقد أخذت حروف التكبير مواضعها من فم المصوت بها ومن الهواء ومن أذن الصبى ونفسه أيضاً . ومضى الصوت من وراء الحائط بعد ذلك يقرأ الفاتحة ، فعرف الصبى أنه صوت رجل يصلى . ومضى الصوت يقرأ الفاتحة حتى بلغ قول الله تعالى : « إياك نعبد

وإياك نستعين » ، فوقف عند السين ولم يستطع أن يتقدم ، وإذا هو يستأنف التكبير على نحو ما بدأه : ال . . ال . . ال . . الله أك . ال . ال . هنالك لم يملك الصبي نفسه فاندفع فى ضحك مرتفع متصل استيقظ له أخوه فزعاً ، وسأل الصبى ما به ؟ فلم يستطع الصبى جواباً . ولكن أخاه لم يحتج إلى هذا الجواب فقد سمعه من وراء الحائط ، فاندفع هو أيضاً فى ضحك مكظوم ، ثم قال للصبي فى صوت خافت : مهلا ؛ فهذا جارنا الشيخ فلان قد عاد وهو يصلى الصبح وهو شافعى .

واستأنف الشيخ الفتى صمته وهدوءه يدعو إليه النوم . وضبط الصبي نفسه وتتبع صوت الشيخ من وراء الحائط حتى أتم صلاته بعد جهد ثقيل . ولكن سؤالا قد استقر فى نفس الصبى : ما بال هذا الشيخ الشافعى يكلف نفسه هذا الجهد وهذا العناء ولا يتم صلاته إلا بعد هذه المشقة التى لا تطاق ؟ فلما أصبح سأل أخاه متشجعاً ، فعرف منه أن الشيخ موسوس بعض الشيء ، وأنه يريد أن يحقق نية الصلاة ، وأن يخلص قلبه ونفسه وضميره لله إذا أقبل على صلاته وفى أثناء مضيه فيها . فإذا رأيته يتردد ويعود من حيث بدأ ويقطع الصلاة ليبتدئها ، فاعلم أنه قد أحس عارضاً من أمور الدنيا عرض لنفسه فصرفها عما ينبغى أن تخلص له من ذكر الله .

وكان هذا الشيخ هادئاً أشد الهدوء ، لا يكاد يسمع له صوت

ولا تكاد تسمع له حركة إلا إذا صلّى الفجر . وقد احتاج الصبى إلى أيام وأيام ليعوّد نفسه هذا الصوت وليسمعه دون أن يضحك منه أو يرثى لصاحبه من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجِنَّة والناس .

ولم يبق فى نفس الصبى من هذا الشيخ بعد أن مضت الأعوام إلا ذكرى هذا الصوت وذكرى قصتين شهد إحداهما بنفسه وتحدث إليه بالأخرى الرواة . فأما الأولى فقد كانت للصبى مع الشيخ حين تقدمت به السن وحين تقدم به الدرس وحين بدأ يسمع دروس البلاغة . فقد ذهب يحضر درس الشيخ وسمعه يفسر الجملة المشهورة فى التلخيص « ولكل كلمة مع صاحبتها مقام » . وما أكثر ما يقال حول هذه الجملة من كلام فى « المختصر » و « المطول » و « الأطول » وفى الشروح والحواشى والتقارير ، وهى على ذلك واضحة جلية لا تعمية فيها ولا غموض . وكان الشيخ كغيره من شيوخ الأزهر يُقبل على تفسير هذه الجملة وتقرير ما يقال حولها من كلام كثير ، مجهوداً مكدوداً قد بُحَّ صوته وخارت قواه وتصبب جبينه عرقاً . وأمانة العلم كما تعرف ثقيلة جداًّ لا ينهض بها إلا الأقوياء ، وقليل ما هم .

فأخذ الغلام يناقش الأستاذ فى بعض ما كان يقول كدأبه مع أساتذته جميعاً ، ولكن الشيخ رد عليه فأفحمه وألجمه وملأ قلبه فى وقت واحد غيظاً وازدراء وخجلا . قال الشيخ للغلام

دع عنك هذا يا بنى ؛ فإنك لا تحسنه وإنما تحسن هذه القشور التى تـُقبل عليها فى الضحى ، فأما اللباب فلم تخلق له ولم يخلق لك . وضحك الشيخ وتضاحك الطلاب ، واستحيا الغلام أن يقوم عن الدرس قبل تمامه ، فأقام على مضض حتى انصرف مع غيره من الطلاب . وكانت القشور التى عرّض بها الشيخ والتى كان الغلام يقبل عليها فى الضحى دروس الأدب وكتاب الكامل للمبرد خاصة . ومنذ ذلك الوقت سقط الشيخ فى نفس الغلام وبغّض إليها . وقد كان الغلام يحبه ويكبره . وأصبح الشيخ موضوعاً من موضوعات الفكاهة التى كان الغلام يلهو بها مع أترابه فى الضحى قبل درس القشور ، وعند الظهر بعد درس القشور . وجاءت القصة الأخرى من قصتى الشيخ ، فلم تزد الغلام إلا عبثاً به وتندراً عليه وتفكهاً مع أترابه بقول الشعر فيه . ومع ذلك فقد كانت قصة يسيرة لا غرابة فيها . ولكن أى شىء أيسر من ضحك الشباب !

كان للشيخ ابن لا يظهر عليه الذكاء ولا يدل شىء من أمره على أنه قد خلق لطلب العلم . ولكنه مع ذلك كان يطلب العلم ، وكان يعيش مع أبيه فى غرفته هادئاً كأبيه ، صامتاً كأبيه ، حسن الحوار كأبيه . وأقبل ذات يوم أو ذات ليلة على أبيه نفر من أصدقائه يزورونه ، فطلب القهوة إلى ابنه وقدمت القهوة بعد لحظات ، وأقبل الشيوخ على فناجينهم فى شره إليها كعادتهم ،

فعبُّوا فيها أو قل مَصُّوها مصًّا طويلا له صوت طويل ، ولكنهم لم يكادوا يبلغون حلوقهم بما مصوا حتى ردته حلوقهم ردًّا عنيفاً ، وإذا هم جميعاً يسعلون وينحنحون متحرِّفين لذلك يريدون أن يبرئوا حلوقهم مما أصابها ، وقد جرت القهوة واللعاب على لحاهم وصدورهم وهم يسعلون ويضطربون اضطراباً شديداً . ذلك لأنهم لم يشربوا قهوة البن ، وإنما شربوا قهوة النشوق . أخطأ الفتى علبة البن ، وأخذ مكانها علبة النشوق .

وكانت لقصة الغلام مع الشيخ فى درس البلاغة عواقبها ؛ فقد انصرف عن الشيخ إلى شيخ آخر كان مجاوراً له فى الربع ، وكانت غرفته تلى غرفة الشيخ الموسوس، وكان شافعيًّا مثله ولكنه لم يكن موسوساً . وكان أهدأ الناس وأرزن الناس وأطيبهم قلباً وأقلهم كلاما . لم يسمع الصبى صوته إلا حين كان يلقى السلام عليه أو على من يمر به من أصحابه . فلما انصرف الغلام عن درس الشيخ الأول ذهب من غده إلى درس الشيخ الثانى ، وكان يلقى درسه فى تلك القبة من جامع محمد بك أبى الذهب ، وكان الغلام يعرف هذا الجامع حق المعرفة . سمع دروس النحو والمنطق فى جميع أماكنه وزواياه ، وكانت له قصص قد نلمّ بها فى هذا الحديث .

فأقبل الغلام إذن مع الظهر مُنْصَرِفَه من درس القشور ، فصعد هذه الدرجات التى كان يألفها ، ثم خلع حذاءه ومشى فى هذا

الممر بين حلقتين من حلقات الدرس طالما عرفهما ، وتخطى عتبة القبة وجلس فى حلقة الشيخ ، فلم ينتظر إلا قليلا ، حتى أقبل الشيخ هادئاً كعادته ، فحمد الله وصلى على نبيه وأخذ يقرأ قول المؤلف فى تنكير المبتدأ وفى نُكَتِه ومزاياه . ثم مضى حتى وصل إلى استشهاد المؤلف بالآية الكريمة « ورِضْوانٌ من الله أكبر » فجعل يعلل مع المؤلف والشارح والمحشى والمقرر تنكير الرضوان بكلام لم يعجب الغلام ولم يقع من نفسه ، ولم يستطع الغلام أن يصبر على ما كان يسمع ، فأخذ يجادل الشيخ ، ولكنه لم يكد يفعل حتى قطع الشيخ عليه كلامه وقال فى صوته الهادئ المطمئن :

« اسكت يا بنى فتح الله عليك وغفر لك ووقانا شرك وشر أمثالك . اتق الله فينا ولا تشاركنا فى هذا الدرس فتفسد علينا أمرنا ، وانصرف إلى ما أنت فيه من هذه القشور الضالة المضلة التى تُقبل عليها فى الضحى » .

وتضاحك الطلاب ، ووجم الغلام ، واستأنف الشيخ قراءته وتفسيره فى صوته الهادئ المطمئن الرزين . وأقام الغلام على مضض حتى انصرف الطلاب ، فانصرف معهم ثائراً محزوناً وقد أعرض عن دروس البلاغة وأنفق بقية عامه يخرج من درس القشور إذا كان الظهر فيمضى إلى دار الكتب فى باب الخلق فيمكث فيها إلى أن يحين إغلاقها قبيل الغروب .

أكان اتفاق الشيخين على رد الغلام عن علمهما مصادفة

أم كان أمراً مدبراً ؟ لم يعرف الغلام ذلك . ولكن ذكرى هاتين القصتين الآن تعجلٌ للحوادث دعا إليه الاستطراد . فالخير أن نعود إلى الربع ومن كان فيه ، وما كان فيه ، حين أقبل عليه الصبي لأول عهده بطلب العلم .

١٠

وفى زاوية الربع من يمين كانت تقوم غرفة سكنتها أسرة لم يعرف الصبى قط كيف صعدت إلى هذا الربع ، ولا كيف استقرت فيه ، يأخذها العلم وطلابه من جانبيها ، وكان حقها أن تستقر فى الطبقة السفلى بين سكان هذه الطبقة من الباعة والعمال . ولكنها صعدت إلى حيث العلم وطلابه وأساتذته ، فأقامت بين هذا كله لم تؤذ أحداً ولم يؤذها أحد ، ولم يتصل الود أو لم تتصل المعرفة بينها وبين أحد .

كانت غريبة فى هذا الربع ، كما كانت غريبة فى القاهرة . فقد كانت لهجتها إذا تحدثت تدل على أنها قد هبطت من الصعيد ، بل من أقصى الصعيد . ولعل غربتها هى التى صعدت بها إلى هذه الطبقه الثانية من الربع ولم تقف بها عند الطبقة الأولى . فقد كان سكان الطبقة الثانية كلهم غرباء ، شيخ من الإسكندرية وفارسيان وطلاب وأساتذة قد أقبلوا من أقطار مصر على اختلافها . فلا بأس على هذه الأسرة الغريبة أن تقيم بين هؤلاء الغرباء . فأما الطبقة الأولى من الربع فقد كان العمال والباعة الذين يسكنونها جميعاً من أهل القاهرة أو من الذين بعد عهدهم بها حتى أصبحوا من أهلها وورثوا لغتها وعاداتها .

كانت هذه الأسرة تتألف من عضوين اثنين : امرأة قد تقدمت بها السن حتى جاوزت الستين ، وأصبح من العسير بل من المستحيل أن تتخذ لغة القاهرة وتصطنع عاداتها ، وابن لها شاب قد نيف على العشرين ولم يبلغ الثلاثين بعد ، فهو حرى إذا مضى عليه الزمن أن يلوى لسانه بلغة القاهرة ، وأن يأخذ نفسه بعادات أهلهـــا . وكانت الأم لا تصنع شيئاً كما ينبغى لأمثالها حين يتركن الصعيد ويَقَرْن فى غرفة من غرفات هذا الربع فى مدينة القاهرة .

لم تكن تصنع شيئاً لتكسب حياتها ، إنما قسم الأمر بينها وبين ابنها قسمة عدلا ، فعلى الفتى أن يجدّ فى الشارع طول النهار ويعود بالقوت مع الليل ، وعلى أمه أن تعنى بالغرفة وتهيئ الطعام لابنها ولنفسها .

وكان الفتى بائعاً متجولا ، يصنع ما يبيعه فى غرفته ، يبدأ فى صنعه مع الصبح ، فإذا ارتفع الضحى وكاد النهار ينتصف خرج إلى الشارع بما أعد ، فجعل يتغنى به متنقلا متجولا فى حيث تدفعه قدماه إليه من الشوارع والحارات ،يبعد حيناً ويقرب حيناً ، ولكنه لا يعود حتى يبيع ما يحمل . وكان يحمل فى الشتاء هذا اللون من ألوان الحلوى الذى يسمى « غزل البنات » ، وكان يحمل فى الصيف هذا اللون الآخر من ألوان الحلوى الذى كان يسمى مرة « جيلاتى» ومرة « دندورمة » .

وكان الفتى يصنع هذا اللون أو ذاك فرحاً مرحاً متغنياً أو متكلفاً للفرح والمرح والغناء . فإذا أتم صناعته حملها ومر أمام غرفاتنا هادئاً صامتاً مستأنياً ، حتى إذا انحرف إلى السلم وهبط منه إلى الحارة ارتفع صوته فجأة بغناء حلو رقيق ، يمدح فيه ما كان يحمل من طعام ، ويدعو إليه طلابه من الصبية والنساء . وكأن الفتى كان يستبيح لنفسه الغناء ما أقام فى غرفته ، ويحظر على نفسه الغناء إذا مر بغرفات أهل الوقار والجد من العلماء والطلاب . فإذا هبط إلى الطريق العام استباح لنفسه ما يستبيح لها الباعة جميعاً، فغنى طعامه ودعا الناس إليه . وكأن الفتى كان يشعر فى نفسه بأن ليس هناك خير فى أن يتغنى ما كان يحمل من حلوى أو يدعو إليه أمام هذه الغرفات ؛ فأهلها أصحاب جد لا يحفلون بالحلوى ولا ينشطون لها ، وإنما يحفلون بالعلم وينشطون للعلم . وأكبر الظن أن الفتى كان مخطئاً فى هذا التقدير ، فقد كان بين أهل الربع من غير شك من كانوا يحبون غناءه ويتشوقون إلى غزل البنات أو إلى الدندورمة ، ويودون أن يقف وأن يكونوا أول من يفتح عليه ، ولكنهم لم يكونوا يفعلون ، يمنعهم من ذلك الحياء حيناً وضيق ذات اليد أحياناً .

وفى ذات يوم انقطع غناء الفتى وانقطع صوت أدواته التى كان يحرك بها ألوان الحلوى . وقام مقام هذا الغناء وهذه الأصوات

غناء آخر وأصوات أخرى ؛ فقد جعل نسوة يختلفن إلى هذه الغرفة متصايحات متضاحكات أول الأمر ، ثم مزغردات متغنيات ناقرات على الطبول ، حتى أصبحت حياة الطلاب والعلماء عناء ثقيلا . ولكن حياة الصبى رقّت لذلك وراقت وامتلأت لذة وحبوراً . ذكر ريفه بهذه الطبول وهذه الزغاريد وهذا الغناء ، وقد كان يحب هذا كله أشد الحب ويجد فيه لذة ومتاعاً لا يقلان عما كان يجد من اللذة والمتاع حين كان يستمع لشيوخه وهم يتغنون بما كانوا يلقون فى دروسهم من علم ، وإن اختلف نوع اللذة والمتاع اختلافاً شديداً .

ثم أضيفت إلى أصوات النساء هذه أصوات أخرى ساعة من نهار ، أصوات الحمالين الذين أخذوا يصعدون سلم الربع ويزحمون طرقه بما كانوا يحملون إلى هذه الغرفة من متاع وهم يتصايحون ويتشاتمون جادين مرة ومازحين مرة أخري ، والنساء يلقينهم ويتلقين أمتعتهم بنقر الطبول ورفع الزغاريد وإرسال الغناء . وربما ابتهجت امرأة من أهل الطبقة السفلى لبعض ما كانت تسمع وترى ، فذكرت يوم زفافها أو استحضرت يوم زفاف ابنها أو بنتها الذى لم يأت بعد ، وإذا هى تزغرد مع المزغردات وقد تغنى مع المغنيات على غير معرفة بأصحاب العرس وعلى غير مودة بينها وبينهم . ولكن الفرح كثير الشيوع كما أن الحزن كثير الشيوع ، ما أسرع ما تنتقل به العدوى بين المصريين !

وقد جاء اليوم الأكبر يوم الخميس بعد أن لقى العلماء وطلاب العلم من هذا الاضطراب شرًّا عظيماً أزعج أصحاب الجد منهم عن غرفاتهم وعن الربع كله ، فذهبوا يلتمسون الهدوء الذى يحتاج إليه الدرس عند أصحابهم أو فى المساجد . أقبـــل يوم الخميس فاشتد الاضطراب حتى تعدى حـــده المألوف وتجاوز الربع إلى الحارة ، فضُرب السرادق ، وجعلت الموسيقى تعزف من العصر ، وأقبل ناس من غير أهل الحى فابتهجوا وطعموا وحيا بعضهم بعضاً واستمعوا للغناء . والصبى رابض عند نافذته لا يفوته من هذا كله شىء ، قد نسى العلم والعلماء والأزهر وأهل الأزهر ، ونسى طعامه وشايه وفنى فى هذه الموسيقى التى كان يسمعها فى القاهرة لأول مرة ، كما فنى فى هذه الألوان المختلفة من الأغانى ، أغانى الشعب فى أول الليل ، وأغانى الشيخ المحترف حين تقدَّم الليل .

فأما أخوه وأصحابه فقد هجروا الربع فى هذا اليوم هجراً غـــير جميل . وأما هو فلم يتحول عن مكانه حتى تقدم الليل ، وكاد عمى الحاج على يخرج من غرفته فيشق الليل بصوته ويضرب الأرض بعصاه ، ولكنه لم يفعل . ولو قد فعل لما سمع صوته أحد ولا أحس عصاه أحد . وأين كان يقع صوته وعصاه من هذه الضوضاء المنعقدة التى طردت النوم عن الحى كله ، وهذا صياح فظيع ينبعث طويلا ممتدًّا ، وهذه الزغاريد تحيط به وترقص حوله إن صح

أن ترقص الزغاريد ، وهذا الفرح والابتهاج يرقصان من حول الألم والعذاب ؛ فقد أدخل الفتى على أهله . ثم يسعى الليل هادئاً بطيئاً رزيناً، فيمس بيده المظلمة العريضة هذه الأشياء وهؤلاء الأحياء، وإذا المصابيح قد أطفئت ، وإذا الأصوات قد سكتت ، وإذا النوم قد أقبل رفيقاً كأنه اللص فضم بين ذراعيه أهل الحى جميعاً إلا هذا الصبى الذى لم يتحول عن نافذته ولم ينقطع تفكيره فى هذا الألم الطويل الممتد . يرقص من حوله فرح عريض مضطرب ، ولكن الصبى يعود إلى نفسه لأن صوتاً يأتيه من قريب ينبئه بأن الليل قد انقضى وبأن الصلاة خير من النوم ، الصلاة خير من النوم ، ولكن الصبى لم ينم من ليلته ، وهو على ذلك ينهض ويتوضأ ، حتى إذا فرغ المؤذن من أذانه أدى الصبى صلاة الصبح ، ثم التف فى لحافه وامتد على بساطه القديم ، وذهل عن نفسه أو ذهلت نفسه عنه فلم تعرفه ولم يعرفها إلا حين أقبل عمى الحاج على حين ارتفع الضحى يطرق الباب طرقاً عنيفاً ويصيح صيحته المعروفة : « يا هؤلاء ، يا هؤلاء ! » .

١١

ولن يتم وصف الربع وتصوير البيئة التى عاش فيها الصبى لأول عهده بالقاهرة إذا لم يُذْكَرْ أشخاص كانوا يقيمون فى الربع وكأنهم ليسوا من أهله، وأشخاص آخرون كانوا يلمون بالربع بين حين وحين وكأنهم من أهله المقيمين فيه . فمن المقيمين النازحين ذلك الشيخ الذى تقدمت به السن حتى جاوز الخمسين ، والذى طلب العلم جادًّا فى طلبه ما استطاع والتمس الدرجة محتملا فى ذاتها ما أطاق ، فلم يحصل من العلم إلا قليلا ، ولم يتقـدم إلى الدرجة إلا رد عنها فيئس ولم ييأس ، وأقام جسمه فى الربع ونزحت نفسه عنه . استحيا أن يعود إلى بلده مخفقاً فأقام فى القاهرة وفى حيث كان يقيم أيام كان يطلب العلم جادًّا مجتهداً ، ودبر أمر أسرته فى الريف من بعيد يختطف نفسه إليها يوم الخميس إذا أمسى ليعود إلى الربع يوم السبت إذا أصبح . وله حظ من ثراء وفضل من نعمة ؛ فهو يعيش بين هؤلاء الطلاب عيشة الأغنياء من أهل الريف . قد أثث غرفته بمتاع ممتاز ، وأقام فيها مصبحاً وممسياً لا يفارقها إلا قليلا ، يخيـل إلى الناس أنه يقرأ ويدرس ، وأنه قد حفظ العلم ووعى أسفاره فليس هو فى حاجة إلى أن يختلف إلى الدروس ويسمع للشيوخ . ولو قد

أسعده الحظ وواتته الأقدار لكان شيخاً مثلهم يلقى الدروس ويختلف إليه التلاميذ ؛ فقد صحب أكثرهم حين كانوا طلاباً ، واستمع معهم للشيخ الإمبابى وزار معهم الشيخ الأشمونى ، ولكن الحظ وفى لهم وأخلفه ، فأصبحوا أساتذة وظل هو فى هذه المنزلة بين المنزلتين ، منزلة الطالب ومنزلة الأستاذ .

ولكنه على كل حال قد اتخذ أكثر خصال الأساتذة ؛ فهو لا يشارك أصدقاءه الشباب فى درس ولا يقرأ معهم كتاباً ، وإنما يلقاهم بين حين وحين مترفعاً عليهم شيئاً ، مترفقاً بهم قليلا ، يشهد طعامهم وشايهم ويدعوهم إلى طعامه وشايه . ويتحدث إليهم فى صوت هادئ ممتلئ وبحروف مضخمة مفخمة ، ولكنه لا يتحدث إليهم فى العلم وإنما يتحدث إليهم عن العلماء يعيب أكثرهم ويمدح أقلهم ، يغلو فى العيب ويقتصد فى الثناء ، ويتحدث إليهم عن المال وعن تدبيره ، وعن مكانته بين أهل القرية وصيته بين أهل المركز وارتفاع شأنه بين أهل الإقليم ، وعن إخوته الذين يشرفون على الحرث والزرع ، وأخيه النابه النجيب الذى عظم نصيبه من الذكاء وقل نصيبه من مواتاة الحظ ، فلم يفتح الله عليه بنيل الشهادة الابتدائية على تقدم سنه حتى كاد يبلغ العشرين ؛ لا لأنه كان مقصراً أو غبيًّا ، بل لأن الحظ كان يمانعه ويعاكسه . وقد قررت الأسرة أن تغالب الحظ ، وصمم الشيخ على أن يغلب الحظ على أخيه ، ويشب بهذا الفتى من الخمول إلى نباهة الذكر وارتفاع

الشأن ، فأزمع أن يدخله المدرسة الحربية ويجعل منه ضابطاً باسلا تزدان كتفه لا بالنجمة بل بالنجمتين بل بالنجوم .

ولكن الحظ كان أقوى من الشيخ ومن أسرته ، فرد الفتى عن المدرسة لأن هيأته لم تعجب الممتحنين . والشيخ ساخط على الحظ مصمم على مغالبته ، يتحدث بهذا كله حديثاً متقطعاً متصلا ، تقطعه قرقرة الشيشة التى كان صاحب القهوة يحملها إليه وجه النهار وآخره وحين يتقدم الليل ، والتى كان ربما أعدها لنفسه أو أعدها له خادمه الصغير ، والتى كانت تبهر هؤلاء الطلاب وتثير فى نفوسهم شيئاً من الإعجاب بثرائه يمازج ازدراءهم لجهله وتندرهم بغبائه .

وما ينسى الصبى أن هذا الشيخ الغنى أراد ذات يوم أن يتخفف من بعض أثاثه ويشترى خيراً منه وأرقى ، فعرض قديمه على هؤلاء الطلاب ، فكلهم نكل عن الشراء إلا أخا الصبى ، فإنه اشترى منه دولاباً يأتلف من قطعتين تقوم إحداهما على الأخرى ، فأما القطعة السفلى فقد كان لها بابان مُصْمَتان ، وقد خصص أعلاها لثياب الشيخ الفتى وخصص أسفلها لكتبه التى لم تجلد والتى لا يحسن أن ترى ، وخصص جزء منه لما كان الشيخ يحرص على ادخاره لنفسه من طيب الطعام . وكان فى أعلى هذه القطعة السفلى درجان خصصهما الشيخ الفتى لأوراقه المنثرة ولنقوده حين كانت تصل إليه أول الشهر ، فكان يضعها

فى أحد هذين الدرجين ويأخذ منها بمقدار بين يوم ويوم ، وقد حفظ مفتاحيهما فى جيبه . وأما القطعة العليا فكان لها بابان زجاجيان وقد خصصت للكتب المجلدة التى يبعث منظرها فى النفوس بهجة ورضا .

وقد غالى الشيخ بدولابه هذا وساوم فى ثمنه حتى تجاوز به الجنيه ؛ لأنه كان من خشب البندق، واشتراه الشيخ الفتى على ذلك . ومن المحقق أن شراءه قد جر على الشيخ الفتى وعلى أخيه أعباء ثقالا . فلم يكن بد من دفع هذا الثمن أقساطاً ، ومن أن تقتطع هذه الأقساط من وظيفة الشهر الضئيلة التى كانت تأتى من القرية . ثم لم يكن بد من أن تشترى الكتب ومن أن تجلد وترص لتبدو أعقابها مزدانة باسم الشيخ الفتى من وراء الزجاج . وكان هذا كله يقتطع من وظيفة الشهر ويضطر الطالبين إلى أن يقتّرا على أنفسهما فى الرزق . ثم عجزت وظيفة الشهر عن أن تنهض بهذه الأعباء ، فبدأت الاستدانة ، وقل ما كان يودع فى الدرج من نقود ، وكثر الإلحاح على الشيخ الوالد فى أن يزيد الوظيفة أو يضيف إليها شيئاً بين حين وحين .

ولكن شراء هذا الدولاب قد رفّه على الصبى وأثار فى نفسه كثيراً من الفرح والبهجة ؛ فقد كان للشيخ الفتى صندوق طويل عميق عرفه الصبى فى أثناء طفولته حين كانت أمه تخفظ فيه ثيابها ونفائس هذه الثياب خاصة . وكان لهذا الصندوق

غطاء مجوف قليلا يرفع فيتكشف عن عمق . كان الصبي يراه عظيماً ، ويتكشف عن درجين خفيين كانت أمه تحفظ فيهما حليها حين كان لها حلى . ثم افتقد الصبي هذا الصندوق فى مكانه من الدار ذات يوم فلم يجده ، وكان كثيراً ما يلعب عنده مع أخواته ، وكان كثيراً ما يجلس عليه متربعاً وتجلس أخواته بين يديه على الأرض متربعات وهو يقص عليهن أحاديثه ويسمع منهن أحاديثهن .

افتقد الصبي هذا الصندوق ذات يوم فلم يجده لأنه حمل إلى النيل حيث أودع سفينة ذاهبة إلى القاهرة ، وهناك تلقاه الفتى الشيخ فحفظ فيه ثيابه وكتبه التى لم يكن يجد لها مستودعاً . وقد حزن الصبي على هذا الصندوق حزناً شديداً ، واضطر إلى أن يجلس مكانه متربعاً على الأرض ليتحدث إلى أخواته ويسمع منهن .

فلما انتقل الصبي إلى القاهرة كان شديد الشوق إلى أن يمس الصندوق ويجلس عليه ويمسح بيده الصغيرة خشبه الأملس . ولكن الصندوق كان بعيداً من مجلسه ، قد وضع فى زاوية من زوايا الغرفة ، فلم يكن ذهاب الصبي إليه سهلا ولا ميسوراً . فلما اشترى الدولاب وانتقلت إليه ثياب الشيخ الفتى وكتبه ، سقط أمر الصندوق ، فانتقل من مكانه فى الغرفة إلى مكان مهمل فى الدهليز يكون عن شمال الصبي إذا دخل ، وقيل للصبي : ضع فى هذا

الصندوق ثيابك وما قد يكون لك من كتب إن اشتريت كتباً .
ومنذ ذلك الوقت هجر الصبي مجلسه ذاك من الغرفة أثناء النهار واستحيا أن يجلس على الصندوق فيضحك منه من يراه ، ولكنه جلس إلى جانبه مما يلى عتبة الغرفة مسنداً ظهره إلى الحائط معتمداً بيده على الصندوق ، متحيناً فرصة إن أتيحت له لينهض فيجلس على الصندوق ويداعبه . وقد يرفع غطاءه ويضع يده فى هذا الدرج ثم فى ذاك ، ولكنه لم يكن يجد فيهما شيئاً ، وربما انحنى على ثيابه القليلة التى كانت ملقاة فى أعماق هذا الصندوق يقلبها مستمتعاً بذلك كأنه يملك شيئاً ويتخذ له حرزاً لا يشاركه فيه غيره . ولكن الأيام قد مضت وتبعتها الأيام وامتلأ هذا الصندوق كتباً .

وشخص آخر كان يقيم فى الربع نازحاً عنه غريباً بين أهله وإن وصلت القرابة بينه وبين بعض هؤلاء الطلاب ، ووصل الود الخالص بينه وبينهم جميعاً . كان قصير النظر ، لا يكاد يبصر إلا عن قرب شديد ، وكان طويل الجسم ، طويل الإقامة على طلب العلم فى الأزهر ، طويل السكنى فى هذا الربع ، قد جد فى طلب العلم ما استطاع ، وجد العلم فى الهرب منه ما استطاع . فلم يكن غريباً بين الطلاب وحدهم وإنما كان غريباً بين الكتب التى كانت تملأ غرفته أيضاً . شهد الدروس وسمع من الشيوخ ، فلما استيأس من هذا كله قبع فى غرفته لا يكاد ينتقل

منها إلا إلى هـــذه الغرفة أو تلك من غرفات الربع ليتحدث إلى هذا الصديق أو ذاك . وقد كان أصدقاؤه منصرفين إلى علمهم ودرسهم فانقطع حتى عن زيارتهم . ولكنه كان طيب القلب ، سمح النفس ، عذب الحديث ، شديد الوفاء ، سريعاً إلى معونة أصدقائه ، منتظراً بهم إن تعسر الأداء .

فكانوا هم يذكرونه لأنهم كانوا يحبونه ، وكانوا هم يزورونه لأنهم كانوا يستمتعون بحديثه ويجدون اللذة فى محضره . ولم تطاوعه نفسه على فراق القاهرة ولا على ترك الربع . على أنه كان مستيئساً من العلم والدرجة ، فأقام حيث كان يدبر أمره أو يدبر له أمره وهو مقيم فى القاهرة ، لا هو بالطالب ولا هو بالفلاح ولكنه شىء بين ذلك . وما أكثر ما كان يزوره أقاربه وأهل قريته فيحملون إليه من طيبات الريف ما يسرع فيدعو أصدقاءه إلى المشاركة فيـــه ، أو يسرع فيحمله إليهم فى غرفاتهم . وقد أقام هؤلاء الطلاب ما أقاموا فى الربع لا يذكرون هذا الصديق إلا محبين له مثنين عليه . ثم تفرقوا وأخذ كل منهم طريقه ، وانقطعت عنهم أخباره ، ولكنهم ظلوا لا يذكرونه إلا أثنوا عليه .

وشخص آخر كان يقيم فى الربع ، ولكنه لم يكن يسكن فيه غرفة بعينها ولا يستقر منه فى مكان بعينه ، ولم يكن لقاؤه سهلا ولا التحدث إليه ميسوراً ، وإنما كان هؤلاء الشباب يتحدثون

عنــه بين حين وحين حديثاً مخطوفاً سريعاً مهموساً يتبعه شيء من الضحك السريع الخفيف الذى كان يقطعه التحفظ والحياء .

وكان هــذا الشخص يزور ولا يزار، وكان لا يزور وحده إنما يزور ومعه شخص آخر . وكان لا يزور فى النهار ولا فى أول الليل ، ولا يزور فى اليقظة وإنما يزور فى أوساط الليل وفى أثناء النوم العميق .

وكانت زيارته حلوة البدء مرة العاقبة . وكانت زيارته تكلف الذين يلم بهم عناء ثقيلا ، ربما آذاهم فى أنفسهم ، ولكنه كان يؤذيهم فى علمهم وفى أجسامهم دائماً ، وكان يعرضهم للعلة أحياناً وللزكام فى كثير من الوقت ولا سيما فى الشتاء .

وكان هذا الشخص يسمى بين هؤلاء الشباب أبا طرطور . ولم يكن هذا الشخص غير الشيطان الذى كان يلم بأحدهم إذا جنه الليل وشمله النوم ، فإذا انصرف عنه أفاق الفتى مذعوراً ضيق النفس متأثماً متحرجاً ، وانتظر حتى يدنو الفجر ، فهب من فراشه عجلا وجلا حريصاً على أن يَطَّهَّر ليدرك درس الفجر . فأما فى الصيف فقد كان الأمر يسيراً محتملا ، وأى شيء أيسر وأحب من أن يغمس الفتى نفسه فى الماء البارد فى هذا المغطس أو ذاك من هذا المسجد أو ذاك ، أو أن يصب الفتى على جسمه مقداراً من الماء البارد يعم جسمه ويحقق شرائط الغسل كما فرضتها كتب الفقه ! ولكن الجهد كل الجهد والعذاب كل العذاب حين يلمّ

أبو طرطور بالفتى فى ليلة من ليالى الشتاء . هنالك لا يجد الفتى الوقت لإسخان الماء ، ولايجد الوقت — وقد لايجد النقد — للذهاب إلى حمام من هذه الحمامات العامة . وحسب أبى طرطور أن يضيع على الفتى وقته فأما أن يضيع عليه نقده فلا .

ولا بد من الذهاب إلى الأزهر ، ولا بد من الاستماع إلى الدرس ، ولا بد من أن يكون الفتى طاهر النفس والجسم معاً . وإذاً فهو الماء البارد يصب على الجسم فى البيت صبًّا سريعاً ثم الخروج إلى الأزهر . والخير أن يغمس الفتى نفسه فى مغطس من مغاطس المساجد ؛ ذلك لا يكلفه شيئاً إلا البرد والرعشة . فالماء فى البيت يشترى ، وما ينبغى أن يُسْتَنْفَدَ فى غير الشرب إلا أن تقضى بذلك الضرورة . ولا بد من أن تحمل الضرورة نفسها على الاقتصاد .

وكان أبو طرطور ملحًّا فى زياراته على هؤلاء الشباب ، كأنما أقام فى أعلى سلَّم الربع مختفياً فى تلك الزاوية حيث لا يسمع ما كان الطـلاب يدرسونه من العلم ويقرءونه من الكتب . فإذا انصرف الطلاب عن علمهم أو كتبهم وخلوا إلى ذلك الشيخ الذى كان يسكن أقصى الربع من شمال أو ذلك الكهل الذى كان يسكن أقصى الربع من يمين ، وثب أبو طرطور فدخل عليهم غرفتهم من حيث لا يرونه ولا يسمعونه ولا يحسونه ، ثم انسلّ فمضى حتى ركب كتفى الشيخ أو كتفى الكهل أو تقمصه

وتحدث بصوته ولسانه إلى هؤلاء الشبان ، فأثار فى نفوسهم ورءوسهم هذه الخواطر المنكرة التى كانت تصرفهم عنها الكتب . فإذا تفرقوا عن شيخهم أو كهلهم ، وأووا إلى مضاجعهم وأغرقوا فى نومهم ، كان أبو طرطور قد اختار منهم فريسته فزاره زيارته المنكرة الآثمة .

وربما استخفى أبو طرطور فى زاويتـه تلك من أعلى السلم ، حتى إذا صعدت تلك الفتاة من الطبقة السفلى إلى الطبقة العليا تحمل إلى أحد هؤلاء الطلاب ثيابه غسيلة نظيفة ، أو تأخذ من أحد هؤلاء الطلاب ثيابه لتغسلها وتنظفها ، اعترضها أبو طرطور فسايرها لا يُرَى ولا يُسمع ولا يحس ، فلا تكاد تدخل على أحد هؤلاء الطلاب ، حتى يستحيل أبو طرطور نظرة تُلْقَى من طَرْف هذه الفتاة ، أو كلمة تجرى على لسانها ، أو ابتسامة ترتسم على شفتيها أو حركة تنبعث من أحد أعضائها .

ثم تنصرف الفتاة وينصرف معها أبو طرطور لم يُرَ ولم يسمع ولم يحس ، ولكنه مع ذلك قد ضرب للفتى موعداً حين يجنه الليل ويشمله النوم . وربما أمعن أبو طرطور فى البراعـة وغلا فى المكر والكيد ، فلم يكلف نفسه الصعود إلى أعلى السلم ، وإنما اندسَّ فى الطبقة السفـلى ، واختلط بأولئك النساء اللاتى كن يختصمن أحياناً ويتضاحكن أحياناً ، ويتحدثن بأصوات مرتفعة يشكّلنها أشكالا مختلفة على كل حال ؛ فيستحيل أبو طرطور

إلى جوهر لطيف يجرى فى صوت من هـــذه الأصوات ، أو حركة من هذه الحركات ، ويرتفع هـــذا الصوت أو هذه الحركة بأبى طرطور أو يرتفع هو بهذا الصوت أو بهذه الحركة ، حتى يبلغ الفتى فى الطبقة العليـــا ، وينصرف عنه لوقته وقد ألقى فى نفسه شرًّا خفيًّا وضرب له موعداً حين يجنه الليل ويشمله النـــوم .

وكذلك لم تكن حياة هؤلاء الطلاب فى ربعهم وفى أزهرهم صفواً كلها ، ولا علماً كلها ، ولم تكن حياة الصبى بين هؤلاء الطلاب صفواً خالصاً ، ولا علماً خالصاً ، وإنما كان يلم بهم أبو طرطور فيحمل إليهم عذاباً حلواً مرًّا ، ويسمع الصبى من أحاديثهم ما كان يدعوه إلى التفكير .

١٢

على هذا الربع أقبل الصبي ، وفى هذه البيئة عاش . وأكبر الظن أن ما اكتسب فيهما من العلم بالحياة وشؤونها والأحياء وأخلاقهم لم يكن أقل خطراً مما اكتسبه فى بيئته الأزهرية من العلم بالفقه والنحو والمنطق والتوحيد .

ولم يكد الصبي يستقر فى ربعه يومين أو ثلاثة ، حتى أسلمه أخوه إلى أستاذ كان قد ظفر بالدرجة أثناء الصيف ، وكان سيبدأ الدرس ويجلس مجلس الأستاذ من صغار التلاميذ لأول مرة فى حياته . وكان قد بلغ الأربعين أو كاد يبلغها . وكان معروفاً بالتفوق مشهوراً بالذكاء ، قد غالب الحظ فغلبه ، وإن لم يكن انتصاره على الحظ ملائماً لحقه فى الفوز ؛ فقد ظفر بالدرجة الثانية ، وعُدّ هذا انتصاراً ، وقصر عن الدرجة الأولى وعُدّ هذا ظلماً . وكان ذكاؤه مقصوراً على العلم ، فإذا تجاوزه إلى الحياة العملية فقد كان إلى السذاجة أدنى منه إلى أى شىء آخر . وكان يعرف بين أصدقائه الطلاب والعلماء بأنه محب لبعض لذاته المادية متهالك عليها ، يفرض عليه مزاجه ذلك ولا تفرضه عليه رذيلة أو فساد خلق مألوف . وكان كثير الأكل قد شهر بأنه يتهالك على اللحم ولا يستطيع أن ينقطع عن أكله والإسراف فيه

يوماً واحداً ، وكان ذلك يكلفه عناء كثيراً .

وكان إلى هذا غريب الصوت إذا تحدث . كان صوته متهدجاً متكسراً يقطّع الحروف تقطيعاً ، ويتراكم مع ذلك بعضه فوق بعض ، وتنفرج شفتاه عن كلامه أكثر مما ينبغى ، فلا يكاد يسمعه المتحدث إليه حتى يضحك ، ولا يكاد يمضى فى الحديث معه حتى يقلد فتور صوته وتكسره وانفراج الشفتين عنه .

ولم يكد يظفر بدرجة العالمية حتى أسرع إلى شارة العلماء فاتخذها ولبس « الفراجية » متعجلا لُبْسها ، ولم يكن العلماء يتخذون هذه الشارة إلا بعد أن يبعد عهدهم بالدرجة وتعرف لهم فى العلم سابقة وقُدْمة تيسر لهم حياتهم المادية شيئاً .

ولكن صاحبنا أسرع إلى «الفراجية » فلبسها وأضحك منه أصحابه من الطلاب وأساتذته من الشيوخ . وزادهم ضحكاً منه وتندراً عليه أنه كان يلبس الفراجية ويمشى حافياً فى نعليه ، إن صح هذا التعبير ، لا يتخذ الجوارب عجزاً منه عنها أو زهداً منه فيها . وكان إذا مشى فى الشارع تثاقل وتباطأ واصطنع وقار العلماء وجلال العلم ، فإذا خطا عتبة الأزهر ذهب عنه وقاره وفارقته أناته ولم يمش إلا مهرولا .

وقد عرف الصبى رجليه قبل أن يسمع صوته ؛ فقد أقبل على مكان درسه لأول مرة مهرولا كما تعوّد أن يمشى ، فعثر بالصبى وكاد يسقط من عثرته ، ومست رجلاه العاريتان اللتان خشن

جلدهما يد الصبي فكادت تقطع . ثم مضى حتى جلس وأسند لأول مرة ظهره إلى ذلك العمود الذي تمنى أن يسند ظهره إليه معلماً .

وكان كغيره من أقرانه فى ذلك الوقت بارعاً فى العلوم الأزهرية كل البراعة ، ساخطاً على طريقة تعليمها سخطاً شديداً . قد بلغت تعاليم الأستاذ الإمام قلبه فأثرت فيه ، ولكنها لم تصل إلى أعماقه ؛ فلم يكن مجدداً خالصاً ولا محافظاً خالصاً ، وإنما كان شيئاً بين ذلك . وكان هذا يكفى لينظر الشيوخ إليه شزراً وليلحظوه فى شيء من الريبة والإشفاق . ولم يكد يبدأ درسه الأول فى الفقه حتى أعلن إلى تلاميذه أنه لن يقرأ لهم كتاب « مراقى الفلاح على نور الإيضاح » كما تعود الشيوخ أن يقرءوا للتلاميذ المبتدئين ، ولكنه سيعلمهم الفقه فى غير كتاب بمقدار ما فى « مراقى الفلاح » . فعليهم إذاً أن يسمعوا منه ويفهموا عنه ، وأن يكتبوا ما يحتاجون إلى كتابته من المذكرات . ثم أخذ فى درسه فكان قيماً ممتعاً . وسار هذه السيرة فى درس النحو ، فلم يقرأ للتلاميذ « شرح الكفراوى » ، ولم يعلمهم الأوجه التسعة لقراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها ، وإنما هيأهم للنحو تهيئة حسنة ، وعرّفهم الكلمة والكلام والاسم والفعل والحرف ؛ فكان درسه سهلا ممتعاً أيضاً .

وسئل الصبي أثناء شاى العصر عما سمع من أستاذه فى الفقه والنحو ، فلما أعاد على أخيه وأصحابه ما سمع رضيت الجماعة عن الشيخ وعن منهجه وأقرت طريقته فى التعليم . وجعل الصبى

يختلف إلى هذين الدرسين لا يتجاوزهما أياماً لا يذكر عددها ، ولكنه كان يسأل نفسه متى ينتسب إلى الأزهر ويصبح طالباً مقيداً فى سجلاته ؛ فلم يكن فى هذه الأيام إلا صبياً يستمع إلى هذين الدرسين استماعاً منظماً محتوماً ، ويستمع إلى درس الحديث الذى كان يلقى بعد صلاة الفجر لا لشىء إلا لأنه كان ينتظر أن يفرغ أخوه من درس الأصول وأن يحين الوقت الذى يبدأ فيه درس الفقه .

وقد أقبل اليوم المشهود ، فأنبئ الصبى بعد درس الفقه أنه سيذهب إلى الامتحان فى حفظ القرآن توطئة لانتسابه إلى الأزهر . ولم يكن الصبى قد أنبئ بذلك من قبل ، فلم يتهيأ لهذا الامتحان . ولو قد أنبئ به لقرأ القرآن على نفسه مرة أو مرتين قبل ذلك اليوم ، ولكنه لم يفكر فى تلاوة القرآن منذ وصل إلى القاهرة . فلما أنبئ بأنه سيمتحن بعد ساعة خفق قلبه وجلا ، وسعى إلى مكان الامتحان فى زاوية العميان خائفاً أشد الخوف مضطرب النفس أشد الاضطراب ، ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة ، وامتلأ قلبه حسرة وألماً ، وثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط ؛ فقد انتظر أن يفرغ الممتحنان من الطالب الذى كان أمامهما ، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع :

« أقبل يا أعمى » .

ولولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه فى غير رفق وقاده إلى الممتحنين فى غير كلام ، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه ؛ فقد كان تعوّد من أهله كثيراً من الرفق به وتجنباً لذكر هذه الآفة بمحضره . وكان يقدر ذلك وإن كان لم ينس قط آفته ولم يشغل قط عن ذكرها . ومع ذلك فقد جلس أمام الممتحنين وطلب إليه أن يقرأ سورة الكهف ، فلم يكد يمضى فى الآيات الأولى منها حتى طلب إليه أن يقرأ سورة العنكبوت ، فلم يكد يمضى فى الآيات الأولى منها حتى قال له أحد الممتحنين : « انصرف يا أعمى فتح الله عليك » .

وقد دهش الصبى لهذا الامتحان الذى لا يصور شيئاً ولا يدل على حفظ . وقد كان ينتظر على أقل تقدير أن تمتحنه اللجنة على نحو ما كان يمتحنه أبوه الشيخ . ولكنه انصرف راضياً عن نجاحه ، ساخطاً على ممتحنيه ، محتقراً لامتحانهما . ولم يخرج من زاوية العميان قبل أن يعطف به أخوه على بعض أركانها ، فتلقاه هناك أحد الفراشين ، أو أحد « المشدين » بلغة ذلك الوقت ، فأخذ ذراعه اليمنى ، وأدار حول معصمه سواراً من الخيط جمع طرفيه بقطعة مختومة من الرصاص ، وقال له : انصرف فتح الله عليك .

ولم يفهم الصبى لهذا السوار معنى ، ولكن أخاه أنبأه بأن هذا السوار سيظل حول معصمه أسبوعاً كاملا حتى يمر أمام الطبيب الذى سيمتحن صحته ويقدر سنه ويطعمه التطعيم الواقى من الجدرى .

وقد كان الصبي خليقاً أن يبتهج بهذا السوار الجديد الذى كان يدل على أنه مرشح للانتساب إلى الأزهر . قد جاز المرحلة الأولى من مراحله ، لولا أنه ظل مشغولا عن السوار بدعوة الممتحن له وصرفه إياه . وأنفق أسبوعه كما تعود أن ينفق أيامه ، مستيقظاً على صوت عمى الحاج على ، ذاهباً إلى الأزهر مع الفجر . عائداً منه بعد درس الفقه ، ثم ذاهباً إلى الأزهر مع الظهر ، ثم راجعاً منه بعد درس النحو ، ثم مقيماً فى مجلسه ذاك ، فنائماً فى مجلسه ذاك ، فغادياً على الأزهر حين يسمع نداء المؤذن بأن الصلاة خير من النوم . وجاء يوم الامتحان الطبى ، فذهب إليه الصبى وفى نفسه شىء من الإشفاق أن يدعوه الطبيب كما دعاه الممتحن . ولكن الطبيب لم يدعه لأنه لم يكن يدعو أحداً ، وإنما دفعه أخوه إلى الطبيب دفعاً ، فأخذ ذراعه وخط فيها خطوطاً ، وقال : « خمسة عشر » . وانتهى الأمر عند هذا الحد . وأصبح الصبى طالباً منتسباً إلى الأزهر . ولم يكن قد بلغ السن التى ذكرها الطبيب والتى لم يكن بد منها لصحة الانتساب ، وإنما كان فى الثالثة عشرة من عمره . وقد حل السوار عن معصمه وعاد إلى غرفته وفى نفسه شك مؤلم لذيذ فى أمانة الممتحنين وفى صدق الطبيب .

١٣

وكانت هذه الحياة شاقة على الصبي وعلى أخيه معاً . فأما الصبي فقد كان يستقل ما كان يقدَّم إليه من العلم ويتشوق إلى أن يشهد أكثر مما كان يشهد من الدروس ، ويبدأ أكثر مما كان قد بدأ من الفنون . وكانت وحدته فى الغرفة بعد درس النحو قد ثقلت عليه حتى لم يكن يستطيع لها احتمالا ، وكان يود لو استطاع الحركة أكثر مما كا يتحرك والكلام أكثر مما كان يتكلم . وأما أخوه فقد ثقل عليه اضطراره إلى أن يقود الصبي إلى الأزهر وإلى البيت مصبحاً وممسياً . وثقل عليه أيضاً أن يترك الصبي وحده أكثر الوقت ، ولم يكن يستطيع أن يفعل غير هذا ؛ فلم يكن من الممكن ولا من الملائم لحياته ودرسه أن يهجر أصدقاءه ويتخلف عن دروسه ويقيم فى تلك الغرفة ملازماً للصبي مؤنساً له .

ولم يتحدث الصبي بذات نفسه إلى أحد ، ولم يتحدث أخو الصبي إليه بذات نفسه أيضاً . وأكبر الظن أنه تحدث بذلك إلى أصدقائه غير مرة . ولكن المشكلة بلغت أقصاها ذات ليلة

وانتهت إلى الحل بعد ذلك دون أن يقول الصبى لأخيه شيئاً أو أن يقول له أخوه شيئاً .

دعيت الجماعة ذات يوم إلى أن تسمر عند صديق لها سورى لا يسكن الربع ولا يسكن الحى . وقبلت الجماعة دعوة الصديق ، ومضى اليوم كما تعودت الأيام أن تمضى . وذهبت الجماعة إلى درس الأستاذ الأمام ثم عادت منه بعد صلاة العشاء ، ليتخفف كل واحد منها مما كان يحمل من محفظته وأوراقه .

وهيأ الشيخ الفتى أخاه الصبى لنومه كما كان يفعل كل ليلة ، وانصرف عنه بعد أن أطفأ المصباح كما كان ينصرف كل ليلة . ولكنه لم يكد يبلغ الباب حتى كان الحزن قد غلب الصبى على نفسه فأجهش ببكاء كظمه ما استطاع . ولكنه وصل فى أكبر الظن إلى أذن الفتى ، فلم يغير رأيه ولم يصرفه عن سمره ، وإنما أغلق الباب ومضى فى وجهه . وأرضى الصبى حاجة نفسه إلى البكاء ثم عاد إليه اطمئنانه شيئاً فشيئاً . ومثل قصته التى كان يمثلها فى كل ليلة ، فلم يستسلم إلى النوم إلا بعد أن عاد أخوه . ولكنه أصبح فإذا أخوه يقدم إليه بعد درس الفقه وبعد أن أفطر ألواناً من الحلوى كان قد اشتراها له فى طريقه إلى العودة من سمره . وقد فهم الصبى عن أخيه وفهم أخوه عنه ، فلم يقل أحدهما لصاحبه شيئاً .

ومضى يوم ويوم آخر ، وأخذ الشيخ الفتى كتاباً من الحاج فيروز ففضه ونظر فيه ثم قال لأخيه وقد وضع يده على كتفه ، وامتلأ صوته حناناً ورفقاً: « لن تكون وحدك فى الغرفة منذ غد ، فسيحضر ابن خالتك طالباً للعلم ، وستجد منه مؤنساً ورفيقاً » .

١٤

وكان ابن خالته هذا رفيق صباه، وكان له صديقاً وعنده أثيراً ، وكان كثيراً ما يهبط من بلدته فى أعلى الإقليم لزيارة الصبى ، فينفق معه الشهر أو الأشهر ، يختلفان معاً إلى الكتاب فيلعبان وإلى المسجد فيصليان ، ثم يعودان مع الأصيل إلى البيت فيقرآن فى كتب القصص والسمر ، أو يمضيان فى ألوان من العبث أو يخرجان للنزهة عند شجيرات التوت التى كانت تقوم على حافة الإبراهيمية . وكانا كثيراً ما أدارا بينهما ألواناً من الأمانى والأحلام . وكانا قد تعاهدا على أن يذهبا معاً إلى القاهرة ويطلبا العلم معاً فى الأزهر .

وكثيراً ما هبط ابن خالته من مدينته فى أعلى الإقليم فى آخر الصيف وقد أعطته أمه نقوداً وأعدت له زاداً وودعته على أنه سيذهب مع ابن خالته إلى القاهرة ليطلبا فيها العلم معاً . ولكنه كان يشارك صديقه فى الانتظار ثم فى الغضب ثم فى الحزن والبكاء ؛ لأن الأسرة رأت أو لأن الشيخ الفتى رأى أن الوقت لم يأن لذهابهما إلى القاهرة . ثم كانا يفترقان ويعود الصديق إلى أمه محزوناً كئيباً .

فلا غرابة فى أن يقع هذا الخبر من نفس الصبى موقعاً حسناً .

ولا غرابة فى أن يقضى الصبى مساءه راضياً مبتهجاً لا يفكر إلا فى غد . وقد أقبل الليل وملأ الغرفة بظلمته ، ولكن الصبى لم يسمع للظلمة فى تلك الليلة صوتاً ولا حديثاً . وأكبر الظن أن حشرات الغرفة قد لعبت كما كانت تفعل فى كل ليلة ، ولكن الصبى لم يسمع لها صوتاً ولم يحس لها حركة .

وقد أرِق الصبى ليلته كلها ، ولكنه كان أرقاً فرحاً مبتهجاً ، فيه كثير من تعجل الوقت واستبطاء الصبح . وقد ذهب الصبى إلى درس الحديث فسمع صوت الشيخ وهو يتغنى بالسند والمتن ، ولكنه لم يلق إلى الشيخ بالا ، ولم يفهم عنه شيئاً . وذهب بعد ذلك إلى درس الفقه فاستمع له لأنه لم يجد عن ذلك بدّاً ، فقد كان أخوه أوصى به الشيخ ، وكان الشيخ يحاوره ويناظره ويضطره إلى أن يسمع له ويفهم عنه . ثم عاد الصبى إلى الغرفة فى الضحى فأنفق وقته هادئاً قلقاً .

هادئاً فى ظاهر الأمر ؛ فقد كان يكره كل الكره أن يظهر أخوه أو أصحابه على أن شيئاً من أمره قد تغير قليلا أو كثيراً . وقلقاً فى دخيلة نفسه يتعجل الوقت ويستبطئ العصر الذى سيصل فيه القطار إلى محطة القاهرة .

وقد دعا المؤذن بصلاة العصر آخر الأمر ، ولم يبق بين الصبى وابن خالته إلا هذا الوقت القصير الذى تقطع فيه عربة من عربات النقل هذه المسافة بين المحطة وبين الحى ، سالكة باب

البحر فباب الشعرية منتهية إلى هذا الباب الذى ستنعطف نحوه ، فتمر بين دخان القهوة وقرقرة الشيشة .

وهاتان قدمان تضربان أرض الربع لا يتردد الصبى فى معرفتهما ، وهذا ابن خالته يقبل فيلقى عليه سلاماً ضاحكاً ، ثم يعتنقان ضاحكين ، وهذا سائق العربة يتبعه وقد حمل ما أرسلته الأسرة إلى الطالبين من الطُّرَف والزاد . ومن المحقق أن العشاء سيكون دسماً هذه الليلة ، وأن الأصدقاء جميعاً سيشاركون فيه ، وأن الصبيين لن يخلوا لأنفسهما وأحاديثهما إلا حين يذهب القوم ليشهدوا درس الأستاذ الإمام .

ولكن من المحقق أيضاً أن حياة الصبى قد تغيرت كلها منذ ذلك اليوم ، فذهبت عنه العزلة حتى رغب فيها أحياناً ، وكثر عليه العلم حتى ضاق به أحياناً أخرى .

١٥

وأيسر ما تغير من حياته المادية أنه هجر مجلسه من الغرفة على البساط القديم الذى بسط على الحصير البالى العتيق ، فلم يعرفه إلا حين كان يجلس للإفطار أو للعشاء ، وحين كان يأوى إلى مضجعه حين يتقدم الليل ؛ وإنما كان يقضى يومه كله أو أكثره فى الأزهر ، وفيما حوله من المساجد التى كان يختلف فيها إلى بعض الدروس . فإذا عاد إلى « الربع » لم يدخل الغرفة إلا ليتخفف من عباءته ، ثم يعود فيخرج منها ليجلس مع صاحبه على فراش ضيق من اللبد قد فرش أمامها وأخذ أكثر الطريق على المارة فلم يُخل لهم منه إلا موضع أقدام الرجل الواحد أو الرجلين .

وفى هذا المجلس كان الصبيان يلهوان بالحديث قليلا وبالقراءة كثيراً . وقد يفرغان لما كان يجرى فى الطبقة السفلى من حركة وحديث ، يسمع أحدهما ، ويرى الآخر ويفسر لصاحبه ما لا يرى .

وكذلك عرف الصبى الربع أكثر مما كان يعرفه ، وعرف من شؤون أهله أكثر مما كان يعرف ، وسمع من أحاديثهم أكثر مما كان يسمع ، عاش جهرة بعد أن كان يعيش سرًّا . ولكن حياته الخصبة الممتعة منذ أقبل عليه صديقه لم تكن فى الغرفة ولا فى

الربع ، وإنما كانت فى الأزهر نفسه . فقد استراح الصبى من درس الفجر وتلبَّث فى غرفته حتى يدنو درس الفقه . فكان يستمتع إذاً مع صديقه بصوت الشيخ الموسوس حين كان يقيم الصلاة فى كل يوم ، بعد أن كان لا يستمتع بهذا الصوت إلا يوم الجمعة من كل أسبوع .

فإذا حان وقت الدرس خرج مع صاحبه إلى الأزهر ، فسلكا الطريق نفسها التى كان يسلكها مع أخيه ، ولكنهما يسلكان هذه الطريق متحدثين بالجد مرة وبالهزل مرة أخرى . وقد ينحرفان عن حارة الوطاويط تلك القذرة ، إلى شارع خان جعفر ذلك النظيف ، ويخلصان على كل حال إلى شارع سيدنا الحسين . والغريب أن الصبى تعوّد منذ أقبل صديقه عليه ألا يمر بمسجد سيدنا الحسين ولا يدخله إلا قرأ الفاتحة . عوّده صديقه هذه العادة فدأب عليها . وقد تقدمت به السن واختلفت عليه أطوار الحياة ، وما يذكر أنه مر بمسجد سيدنا الحسين إلا قرأ فى نفسه هذه السورة الكريمة من سور القرآن .

وكان أخو الصبى قد خصص له ولصاحبه مقداراً يسيراً جدّاً من النقد ثمناً لإفطارهما ، على أن يأخذا بعد درس الفقه جراية الشيخ الفتى من رواق الحنفية ، وكانت أربعة أرغفة . فيأكلان منها رغيفين إذا أفطرا ويحفظان منها رغيفين للعشاء . ومع أن هـذا المقدار الذى خصص لهما من النقد قد كان يسيراً ضئيلا

لا يتجاوز القرش الواحد فى كل يوم ، فقد عرفا كيف يحتالان وكيف يقتصدان ليمتعا أنفسهما ببعض ما كانت نفوسهما تتوق إليه من طرائف الطعام والشراب . وما يمنعهما أن يغدوا ذات صباح مع الطير ، فإذا تجاوزا ذلك الباب المقفل من فجوته الضيقة ، واستدارا ليأخذا طريقهما نحو الأزهر ، وقفا عند بائع البليلة فأخذ كل منهما قدراً من هذا الطعام الذى كان يحبانه أشد الحب ، لكثرة ما أكلا منه فى الريف ، ولكثرة ما كان يوضع عليه من السكر الذى يختلط بحباته الغلاظ ويذوب فى مائه الشديد الحرارة جدًّا ، فلا يكادان يسيغانه حتى يطرد عنهما بقية النوم ، ويشيع فى جسميهما النشاط ويثير فى أفواههما وأجوافهما لذة كانا يقدرانها قدرها ، ويهيئهما تهيئة صالحة لدرس الفقه ، يسمعان لحديث الشيخ وقد عمرت بطونهما ورءوسهما معاً .

وما يمنعهما إذا كانا فى شارع سيدنا الحسين أن يعطفا على هذا البائع أو ذاك فيجلسا على مجلس ضيق من الخشب قد ألقى عليه حصير ضيق أحياناً ، ولم يلق عليه شىء أحياناً أخرى ، ولكنه كان وثيراً على كل حال ؛ لأن الجلوس عليه كان يصحبه انتظار لذة كان يحبانها ويقدرانها ، لذة هذا التين المرطب الذى يقدم إليهما فى إناء صغير ، فيلتهمانه التهاماً ثم يعبّان فى مائه عبًّا ، ثم يأكلان ما كان تحته من زبيب فى أناة وهدوء ! وما يمنعهما حين يعودان قبل العصر أو بعيده أن يجورا على ثمن العشاء فيقفا

عند بائع الهريسة أو بائع البسبوسة ويرضيا لذتهما البريئة إلى هذا اللون من الحلوى أو ذاك ! وليس على إفطارهما ولا على عشائهما بأس .

فأما الإفطار فقد كان أمره يسيراً جدًّا : زيارة لبائع من هؤلاء الباعة الذين كانوا يعرضون الفول النابت ، ومعهما رغيفاهما وهما يدفعان إلى هذا البائع مليمين ونصف مليم ، وقد اشتريا بنصف مليم حزمة أو حزمتين من كراث ، وهذا البائع يقبل عليهما بإناء ضخم عميق قد امتلأ مرقاً وسبحت فيه حبات من الفول وألقى عليه قليل من الزيت ، فهما يغمسان خبزهما فى المرق ، ويتصيدان ما تيسر من حب ، ويلتهمان ما تحمله يدهما اليسرى إلى أفواههما من الكراث . . . وما يبلغان آخر الرغيف وآخر الكراث حتى يبلغا حظهما من الطعام وقد امتلآ حتى كادا يكتظان . ولكن فى الإناء بقية من مرق ، فكان الصبي يستحيي أن يجيب صاحبه إلى ما يعرض عليه من شرب هذا المرق . وكان صاحبه يضحك منه ويرفع الإناء فيعب فيه حتى يرده إلى البائع نظيفاً .

فقد أفطرا إذاً ولم ينفقا أكثر من ثلاثة مليمات ، وقد غنما ما طعما قبل الدرس . وما عليهما الآن إلا أن يعودا إلى الأزهر ليرضيا عقولهما بعد أن رضيت أجسامهما . وكان الصبي قد حرص كل الحرص على أن يواظب على درس شيخه المجدد المحافظ

فى الفقه والنحو ، طاعة لأخيه من جهة وإرضاء لنفسه من جهة أخرى . ولكنه كان شديد الطمع فى أن يسمع لغير هذا الشيخ ، وأن يذوق غير هذين اللونين من ألوان العلم . وقد أتيح له ذلك فى غير مشقة ولا جهد بفضل هذه الدروس التى كانت تلقى فى الضحى بعد أن يفرغ الطلاب من إفطارهم . وقد قرر الصديقان أن يحضرا شرح الكفراوى وكان يلقى فى الضحى من كل يوم ، يلقيه شيخ جديد ولكنه قديم . جديد فى الدرجة ، قديم فى الصلة بالأزهر . قد تقدمت به السن وطال عليه الطلب حتى ظفر بدرجته ، وبدأ كما كان يبدأ أمثاله بقراءة « شرح الكفراوى » .

وكان الصبى يسمع من شيخه الأول ومن أخيه وأصحابه عبثاً كثيراً بشرح الكفراوى ، وسخطاً كثيراً عليه ، فكان ذلك يغريه به ويرغبه فيه .

وما هى إلا أن يحضر الدرس الأول ويسمع الأوجه التسعة فى قراءة بسم الله الرحمن الرحيم وإعرابها حتى يفتن بهذا اللون من العلم ويكلف به أشد الكلف ، وإذا هو يواظب مع صاحبه فى دقة على هذا الدرس من دروس النحو ، ويواظب فى دقة أيضاً على درسه القديم . وكان يرى أنه يتعلم النحو فى درسه القديم ، وأنه يلهو بالنحو فى درسه الجديد . وكان يلهو فى درسه الجديد حقاً ، يلهو بهذا الإعراب المتصل الذى ألح فيه الشارح على المتن إلحاحاً شديداً . ويلهو خاصة بالشيخ الذى كان يقرأ متنه

وشرحه ويفسر ما يقرأ فى صوت غريب مضحك حقًّا . لم يكن يقرأ وإنما كان يغنى . ولم يكن غناؤه يصعد من صدره، وإنما كان يهبط من رأسه . وكان صوته قد جمع بين خصلتين متناقضتين ، فكان أصم مكظوماً ، وكان ممتدًّا عريضاً .

وكان الشيخ على ذلك من أهل الصعيد أو قل من أقصى الصعيد ، وكان قد احتفظ بلهجته الإقليمية لم يغير منها شيئاً لا فى الكلام ولا فى القراءة ولا فى الغناء . وكان الشيخ على هذا كله غليظ الطبع ، يقرأ فى عنف ، ويسأل الطلاب ويرد عليهم فى عنف. وكان سريع الغضب ، لا يكاد يسأل حتى يشتم ؛ فإن ألح عليه السائل لم يُعْفِه من لكمة إن كان قريباً منه ، ومن رمية بحذائه إن كان مجلسه منه بعيداً . وكان حذاء الشيخ غليظاً كصوته جافياً كثيابه ؛ فلم يكن يتخذ العباءة، وإنما كان يتخذ « الدفية » . كان حذاء الشيخ غليظاً جافياً ، وكانت نعله قد ملئت بالمسامير ، وكان ذلك أمتن للحذاء وأمنع له من البلى . ففكّر فى الطالب الذى كانت تصيبه مسامير هذا الحذاء فى وجهه أو فيما يبدو من جسمه ! .

ومن أجل هذا أشفق الطلاب من سؤال الشيخ وخلّوا بينه وبين القراءة والتفسير والتقرير والغناء . ومن أجل ذلك لم يضع الشيخ وقته ولا وقت الطلاب . بدأ سنته الدراسية بشرح الكفراوى ، ولم تنته هذه السنة حتى كان قد أتم شرح الشيخ خالد .

فقرأ الطلاب فى سنة دراسية واحدة كتابين ، على حين لم يكن غيرهم يقرءون مع غير هذا الشيخ إلا كتاباً واحداً ، وعلى حين لم يكن ذلك الشيخ المجدد المحافظ قد تجاوز بطلابه القليلين الأبواب الأولى من النحو .

وكان لهذا كله أثره فى حياة الصبى النحوية ، إن صح هذا التعبير . فقد قضى إجازة الصيف وعاد إلى القاهرة ، فلم ير شيخه المحافظ المجدد ، وإنما سلك طريق غيره من الأزهريين ، فحضر فى الفقه شرح الطائى على الكنز ، وحضر فى النحو حاشية العطار على شرح الأزهرية . ولكن من الخير ألا نتعجل الحوادث وأن نبقى مع صاحبنا فى سنته الأولى .

كان إذن يفرغ من درس الضحى فينتقل إلى درس الظهر ، ثم يعود إلى غرفته فيقرأ مع صاحبه مطالعاً دروس غد كما كان يفعل أصحاب الجد من الطلاب ، أو متنقلا بين كتب مختلفة يفهم عنها أو لا يفهم . فإذا دعيت الشمس إلى غروبها أقبل الصديقان على عشائهما ، وكان يختلف رقة وغلظاً باختلاف ما بقى لهما من نقد . فإن كان قد بقى لهما نصف القرش قسماه نصفين ، فاشتريا بنصفه شيئاً من الحلاوة الطحينية وبنصفه الآخر شيئاً من الجبن الرومى ، وأقبلا على عشاء مترف لذيذ يجمعان فيه على اللقمة الواحدة قطعة من الجبن وقطعة من الحلاوة ،ويريان لهذا المزاج الغريب طعماً لذيذاً . وإن كانت البليلة أو التين قد أسرفا عليهما

فى نقدهما فلم يبق لهما منه إلا ربع القرش ، اشتريا بما بقى لهما شيئاً من الطحينة ثم صبّا عليه شيئاً من عسل أسود أو أبيض كان يأتيهما من الريف ، ثم أقبلا على عشاء ليس بالفخم . ولكنه لا بأس به .

فإن جارت البليلة أو التين أو كلاهما على نقدهما فلم يبقيا منه شيئاً ، فليس عليهما من بأس ، لقد حفظا رغيفيهما ، وفى الغرفة هذه الصفيحة أو تلك ، فى هذه العسل الأسود ، وفى تلك العسل الأبيض ، فليأخذا من هذا العسل شيئاً وليغمسا فيه رغيفيهما ، فذلك يجزئ عما كانا يجدان فى الحلاوة والجبن والطحينة من ترف .

وربما أباحا لأنفسهما على هذا البؤس شيئاً من ترف فغمسا رغيفهما الأول وقد اقتسماه فى العسل الأسود . ثم غمسا رغيفهما الثانى وقد اقتسماه أيضاً فى العسل الأبيض .

وقد جعلت الشمس تسرع إلى غروبها ، وكاد المؤذن يصعد إلى مئذنته ، فليسرع الصديقان إذاً إلى الأزهر ، فهما يحضران درساً بعد صلاة المغرب كما يفعل أولئك الطلاب الكبار . هما يحضران درساً فى المنطق ، يحضران متن السلّم للأخضرى . ومن الحق أنهما كانا يحضران هذا الدرس على شيخ كان يرى نفسه عالماً وإن لم يعترف له الأزهر بالعالمية . طال عليه الوقت ، واشتد إلحاحه فى طلب الدرجة فلم يظفر بها ، ولكنه لم ييأس منها ولم يرض بحكم الممتحنين فيه ، فجعل يطاولهم من جهة ، ويغيظهم من

جهة أخرى. يطاولهم بحضور الدرس والتقدم للامتحان، ويغيظهم بالجلوس إلى أحد الأعمدة إذا صليت المغرب ومن حوله جماعة من الطلاب وهو يقرأ لهم كتاباً فى المنطق كما يقرأ العلماء الممتازون؛ فلم يكن يهجم على تعليم المنطق إلا هؤلاء العلماء الممتازون .

ومن الحق أن ذلك الطالب الشيخ لم يكن بارعاً فى العلم ولا ماهراً فى التعليم ، وأن جهله وعجزه كانا يظهران حتى لهؤلاء التلاميذ المبتدئين . ومن الحق أنه كان من أقصى الصعيد ، وكان محتفظاً بلهجته كما عرفها قبل أن يقبل على الأزهر ، ولم يكن يغير منها شيئاً فى قراءته وحديثه .

ومن الحق آخر الأمر أنه كان سريع الغضب شديد الحدة ، ولكنه لم يكن يشتم التلاميذ ولا يضربهم ، أو لم يكن يجرؤ على شتم التلاميذ وضربهم ؛ فما ينبغى ذلك إلا للعالم حقّاً وصدقاً ، الذى نال الدرجة ، ونال معها الإذن الضمنى بشتم التلاميذ أو ضربهم .

كل هذا كان حقّاً، وكل هذا سمعه الصديقان من أولئك الطلاب الكبار ، ولكنه لم يمنعهما من حضور الدرس والمواظبة عليه ، ليقولا لأنفسهما إنهما يدرسان المنطق ، وليقولا لأنفسهما إنهما يذهبان إلى الأزهر بعد صلاة المغرب ويعودان منه بعد صلاة العشاء ، كما يفعل الطلاب الكبار المتقدمون .

وما أسرع ما انقضت السنة الأولى ! وما أسرع ما ختمت

دروس الفقه والنحو ! وما أسرع ما دعى التلاميذ إلى التفرق ثم إلى الرحيل إلى حيث ينفقون الصيف بين أهلهم فى المدن والقرى ! وما أشد ما كان الصبي يتشوق إلى هذه الإجازة و يتحرق حنيناً إلى الريف !

ولكن الإجازة قد أقبلت ، وإذا هو يريد أن يمتنع عن الرحيل وأن يبقى فى القاهرة . أكان صادقاً فى هذا التمنع ؟ أم كان متكلفاً له ؟ كان صادقاً وكان متكلفاً معاً .

كان صادقاً لأنه أحب القاهرة وكلف بها وشق عليه فراقها وقد كره الرحيل دائماً . وكان متكلفاً ، فقد كان أخوه يقضى أكثر إجازاته فى القاهرة ، وكانت الأسرة تكبر منه ذلك وتراه آية جد واجتهاد . وكان يريد أن يصنع صنع أخيه ، وأن يظن به ما كان يظن بأخيه . ولكن تمنُّعه لم يغن عنه شيئاً. وها هو ذا يركب مع صاحبه عربة من عربات النقل ومعهما ثيابهما قد لُفَّتْ فى حزمتين وقد بلغا المحطة . وأخذت لهما تذكرتان ثم دفعتا إليهما ، ثم وُضعا فى عربة مزدحمة من عربات الدرجة الثالثة ، ثم تحرك القطار ، ولم يكد يمضى قليلا و يبلغ محطة بعد القاهرة أو محطتين حتى نسى الصديقان أزهرهما وقاهرتهما وربعهما ، ولم يذكرا إلا شيئاً واحداً هو الريف . وما سيكون فيه من لذة ونعيم .

١٦

وكانت العشاء قد صليت حين نزل الصبيان من القطار ، فلم يجدا فى المحطة أحداً . فأنكرا ذلك شيئاً ، ولكنهما وصلا إلى الدار ، فإذا كل شىء كان يجرى فيها كما كانت تجرى الأمور فى كل يوم . قد فرغت الأسرة من عشائها منذ وقت طويل ، وأتم الشيخ صلاته ثم خرج كعادته فجلس مع أصحابه غير بعيد من الدار ، وتناوم الصبية . وجعلت أختهم الصغرى تحملهم واحداً واحداً إلى مضاجعهم . واضطجعت أم الصبى على فراش من اللبد تحت السماء تستريح ، والنوم يلم بها ثم يصرف عنها ، ومن حولها بناتها قد جلسن يتحدثن كعادتهن فى كل ليلة ، حتى يقضى الشيخ سمره القصير ثم يعود إلى الدار ، فتأوى الأسرة كلها إلى مضاجعها . ويشمل الدار سكون وهدوء لا يقطعهما إلا تنابح الكلاب وتصايح الديكة فى داخل الدار وفى أطراف القرية .

فلما دخل الصبيان وجمت الأسرة لدخولهما ولم تكن قد أنبئت بعودتهما ، فلم تعدّ لهما عشاء خاصًّا ، ولم تنتظرهما بالعشاء المألوف ، ولم ترسل أحداً لتلقيهما عند نزولهما من القطار .

وكذلك أضيع على الصبى ما كان يدير فى نفسه من الأمانى ،

وما كان يقدّر من أنه سيستقبل كما كان يستقبل أخوه الشيخ فى ابتهاج وحفاوة واستعداد عظيم . على أن أمه نهضت فقبلته ، ونهضت إليه أخواته فضممنه إليهن ، وقدّم إليه وإلى صاحبه عشاء كعشائهما فى القاهرة . وأقبل الشيخ فأعطى ابنه يده ليقبلها ثم سأله عن أخيه فى القاهرة . وأوت الأسرة كلها إلى مضاجعها ، ونام الصبى فى مضجعه القديم ، وهو يكتم فى صدره كثيراً من الغيظ وكثيراً من خيبة الأمل أيضاً .

ومضت الحياة بعد ذلك فى الدار والقرية كما كانت تمضى قبل أن يذهب الصبى إلى القاهرة ويطلب العلم فى الأزهر ، كأنه لم يذهب إلى القاهرة ولم يجلس إلى العلماء ولم يدرس الفقه والنحو والمنطق والحديث ، وإذا هو مضطر كما كان يضطر من قبل إلى أن يلقى « سيدنا » بالتحية والإكرام ، ويقبل يده كما كان يفعل من قبل ، ويسمع منه كلامه الفارغ الكثير كما كان يسمعه من قبل . وإذا هو مضطر إلى أن يذهب بين وقت وآخر إلى الكتاب لينفق الوقت ، وإذا التلاميذ يلقونه كما كانوا يلقونه قديماً ، لا يكادون يشعرون بأنه غاب عنهم ، ولا يكادون يسألونه عما رأى أو سمع فى القاهرة ، ولو قد سألوه لخبرهم بالكثير .

وأكثر من هذا كله أنه لم يقبل أحد من أهل القرية على الدار ليسلم على الصبى الشيخ بعد أن عاد إليها وقد غاب عنها سنة دراسية كاملة ، وإنما كان يلقاه منهم هذا الرجل أو ذاك ،

فيلقى عليه فى فتور وإعراض هذا السؤال : ها أنت ذا ؟ أعدت من القاهرة ؟ كيف أنت ؟ ثم يلقى عليه هذا السؤال الآخر معنيًّا به رافعاً به صوته : وكيف تركت أخاك الشيخ ؟

وقد استقر إذن فى نفس الصبى أنه ما زال ، كما كان قبل رحلته إلى القاهرة ، قليل الخطر ضئيل الشأن لا يستحق عناية به ولا سؤالا عنه . فآذى ذلك غروره ، وقد كان غروره شديداً ، وزاده ذلك إمعاناً فى الصمت وعكوفاً على نفسه وانصرافاً إليها .

ولكنه لم يكد يقضى أياماً بين أسرته وأهل قريته حتى غيَّر رأى الناس فيه ولفتهم إليه ، لا لفت عطف ومودة ، ولكن لفت إنكار وإعراض وازورار . فقد احتمل من أهل القرية ما كان يحتمل قديماً يوماً ويوماً وأياماً . ولكنه لم يطق على ذلك صبراً ، وإذا هو ينبو على ما كان يألف ، وينكر ما كان يعرف ، ويتمرد على من كان يظهر لهم الإذعان والخضوع . كان صادقاً فى ذلك أول الأمر ، فلما أحس الإنكار والازورار والمقاومة ، تكلف وعاند وغلا فى الشذوذ . سمع « سيدنا » يتحدث إلى أمه ببعض أحاديثه فى العلم والدين ، وببعض تمجيده لحفظة القرآن وحملة كتاب الله ، فأنكر عليه حديثه ورد عليه قوله ، ولم يتحرج من أن يقول : هذا كلام فارغ . فغضب « سيدنا » وشتمه ، وزعم أنه لم يتعلم فى القاهرة إلا سوء الخلق ، وأنه أضاع فى القاهرة تربيته الصالحة .

وغضبت أمه وزجرته، واعتذرت إلى « سيدنا » وقصت الأمر على الشيخ حين عاد، فصلى المغرب وجلس للعشاء . فهز رأسه وضحك ضحكة سريعة فى ازدراء للقصة كلها وشماتة « بسيدنا » ؛ فلم يكن يحب « سيدنا » ولا يعطف عليه .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لاستقامت الأمور . ولكن صاحبنا سمع أباه يقرأ دلائل الخيرات كما كان يفعل دائماً إذا فرغ من صلاة الصبح أو من صلاة العصر، فرفع كتفيه وهز رأسه ثم ضحك ، ثم قال لإخوته: إن قراءة الدلائل عبث لا غناء فيه.

فأما الصغار من إخوته وأخواته فلم يفهموا عنه ولم يلتفتوا إليه ، ولكن أخته الكبرى زجرته زجراً عنيفاً ورفعت بهذا الزجر صوتها ، فسمعها الشيخ ولم يقطع قراءته ، ولكنه مضى فيها حتى أتمها ، ثم أقبل على الصبى هادئاً باسماً يسأله ماذا كان يقول ؟ فأعاد الصبى قوله . فلما سمعه الشيخ هز رأسه وضحك ضحكة قصيرة وقال لابنه فى ازدراء : « ما أنت وذاك ! هذا ما تعلمته فى الأزهر ! » . فغضب الصبى وقال لأبيه : « نعم ، وتعلمت فى الأزهر أن كثيراً مما تقرؤه فى هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع ؛ فما ينبغى أن يتوسل إنسان بالأنبياء ولا بالأولياء ، وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة ، وإنما هذا لون من الوثنية » .

هنالك غضب الشيخ غضباً شديداً، ولكنه كظم غضبه واحتفظ

بابتسامته وقال فأضحك الأسرة كلها : « أخرس قطع الله لسانك ، لا تعد إلى هذا الكلام . وإنى أقسم لئن فعلت لأمسكنك فى القرية ، ولأقطعنك عن الأزهر ، ولأجعلنك فقيهاً تقرأ القرآن فى المآتم والبيوت » . ثم انصرف ، وتضاحكت الأسرة من حول الصبى ، ولكن هذه القصة على قسوتها الساخرة لم تزد صاحبنا إلا عناداً وإصراراً .

وقد نسيها الشيخ بعد ساعات ، وأقبل على عشائه ومن حوله أبناؤه وبناته كعادته ، وجعل يسأل الصبى عن الشيخ الفتى ماذا يصنع فى القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ وعلى من يختلف من الأساتذة ؟

وكان الشيخ يجد لذة عظيمة فى إلقاء هـــذه الأسئلة وفى الاستماع لأجوبتها . كان يلقيها على ابنه الشيخ الفتى إذا عاد إلى القرية ؛ فيجيبه متكلفاً أول مرة ، فإذا أعيدت أعرض الفتى عن أبيه وبخل عليه بالجواب . ولم يكن أبوه ينكر ذلك منه جهرة ، ولكنه كان يتأذى به ويشكو منه لزوجه إذا خلا إليها .

فأما الصبى فكان سمحاً طيعاً ، لا يعرض عن أبيه ولا يمتنع عن إجابته ، ولا يدركه السأم مهما تتكرر الأسئلة ومهما يكن موضوعها . وكان الشيخ من أجل ذلك يحب أن يسأله ويستمتع بالتحدث إليه فى أثناء العشاء وأثناء الغداء . ولعله كان يعيد على أصحابه بعض ما كان ابنه يقص عليه من زيارات الشيخ الفتى

للأستاذ الإمام وللشيخ بخيت ، ومن اعتراض الشيخ الفتى على أساتذته فى أثناء الدرس وإحراجه لهم ، وردهم عليه بالعنف وبالشتم وبالضرب أحياناً .

وكان الصبى يشعر بلذة أبيه لهذه الأحاديث ورضاه عنها ، فيتزيد ويتكثر ويخترع منها ما لم يكن ، ويحفظ ذلك فى نفسه ليقصه على أخيه إذا عاد إلى القاهرة .

وكان الشيخ بهذا كله سعيداً وله مغتبطاً وعلى تجديده حريصاً. فلما جلست الأسرة للعشاء فى تلك الليلة وجدد الشيخ أسئلته عن ابنه الفتى : ماذا يصنع فى القاهرة ؟ وماذا يقرأ من الكتب ؟ قال الصبى فى دهاء وخبث وكيد: إنه يزور قبور الأولياء ، وينفق نهاره فى قراءة دلائل الخيرات .

ولم يكد الصبى ينطق بهذا الجواب حتى أغرقت الأسرة كلها فى ضحك شديد شرِق له الصغار بما كان فى أفواههم من طعام وشراب ، وكان الشيخ نفسه أسرعهم إلى الضحك وأشدهم إغراقاً فيـــه .

وكذلك استحال نقد الصبى لأبيه فى قراءته للدلائل والأوراد موضوعاً للهو الأسرة وعبثها أعواماً وأعواماً . والظريف من هـــذا الأمر أن هذا النقد كان يحفظ الشيخ حقّاً ، ويؤذيه فى نفسه وفيما ورث من عادة واعتقاد . ولكن الشيخ على ذلك كان يدعو ابنه إلى هذا النقد ويغريه به ، ويجد فى هذا الألم لذة ومتاعاً .

ومهما يكن من شيء فإن شذوذ الصبى لم يلبث أن تجاوز الدار إلى مجلس الشيخ قريباً منها، وإلى دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، وإلى المسجد حيث كان الشيخ محمد أبو أحمد رئيس الفقهاء فى المدينة يقرئ القرآن للصبية والشباب، ويصلى بالناس فى أثناء الأسبوع ، ويفقههم فى دينهم أحياناً، وحيث كان الشيخ عطية — رجل من التجار الذين طلبوا العلم فى الأزهر أعواماً ، ثم عادوا إلى الريف فاشتغلوا بأمور الدنيا ولم ينصرفوا عن أمور الدين — يجلس للناس بعد صلاة العصر من حين إلى حين ، فيعظهم ويفقّهم، وربما قرأ لهم شيئاً من الحديث .

بل وصل شذوذ الصبى إلى المحكمة الشرعية ، فسمعه القاضى وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذى كان يكتب للقاضى ، ويرى أنه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين، وأحق منه بالقضاء، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التى تسمى درجة العالمية والتى تشترط لتولى منصب القضاء ، والتى تنال بالجد والاجتهاد قليلا وبالحظ والتملق فى أكثر الأحيان .

تسامع هؤلاء الناس جميعاً بمقالات هذا الصبى وإنكاره لكثير مما يعرفون ، واستهزائه بكرامات الأولياء ، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء . وقال بعضهم لبعض : إن هذا الصبى ضال مضل ، قد ذهب إلى القاهرة فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ، ثم عاد بها إلى المدينة ليضلل الناس .

وربما سعى بعضهم إلى مجلس الشيخ وأصحابه قريباً من الدار وطلبوا إلى الشيخ أن يريهم ابنه ذلك الشاذ الغريب. فيقبل الشيخ هادئاً باسماً حتى يدخل الدار ، فيرى ابنه آخذاً فى اللعب أو الحديث مع أخواته ، فيأخذ بيده فى رفق ويقوده إلى مجلسه ؛ فإذا سلم على القادمين أجلسه ، ثم أخذ بعض القادمين فى التحدث إليه رفيقاً أول الأمر ، فإذا اتصل الحديث ذهب الرفق وقام مقامه الحوار العنيف . وكثيراً ما كان محاور الصبى ينصرف غاضباً متحرجاً يستغفر الله من الذنب العظيم ، ويستعيذ به من الشيطان الرجيم.

وكان الشيخ وأصحابه من الذين لم يدرسوا فى الأزهر ولم يتفقهوا فى الدين يرضون عن هذه الخصومات ويعجبون بها ، ويبتهجون لهذا الصراع الذى كانوا يشهدونه بين هذا الصبى الناشئ وهؤلاء الشيوخ الشيب .

وكان أبو الصبى أشدهم غبطة وسروراً . ومع أنه لم يصدق قط أن التوسل بالأولياء والأنبياء حرام ، ولم يطمئن قط إلى عجز الأولياء عن إحداث الكرامات ، ولم يساير قط ابنه فيما كان يقول من تلك المقالات ، فقد كان يحب أن يرى ابنه محاوراً مخاصماً ظاهراً على محاوريه ومخاصميه ، وكان يتعصب لابنه تعصباً شديداً . وكان يسمع ويحفظ ما كان الناس يتحدثون به ويخترعونه أحياناً من أمر هذا الصبى الغريب ، ثم يعود مع الظهر أو مع المساء فيعيد ذلك كله على زوجته راضياً حيناً وساخطاً حيناً آخر .

وعلى كل حال فقــد انتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه ، وتغير مكانه فى الأسرة ، مكانه المعنوى إن صح هذا التعبير ؛ فلم يهمله أبوه ، ولم تُعرض عنه أمه وإخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والإشفاق ، بل على شيء أكثر وآثر عند الصبي من الرحمة والإشفاق .

وانقطع ذلك النذير الذى سمعه الصبي فى أول الإجازة بأنه قد يبقى فى القرية ويقطع عن الأزهر ويصبح فقيهاً يقرأ القرآن فى المآتم والبيوت . وآية ذلك أنه أصبح ذات يوم فنهض مع الفجر ونهضت الأسرة كلها مع الفجر أيضاً ، ورأى الصبي نفسه بين ذراعى أمــه وهى تقبله وتذرف دموعاً صامتة . ثم رأى الصبي نفسه فى المحطة مع صاحبه وأبوه يجلسه فى القطار رفيقاً به ، ثم يعطيه يده ليقبلها ، ثم ينصرف عنه وهو يسأل الله أن يفتح عليه .

ورأى الصبي نفسه يعبث مع صاحبه أثناء السفر ، ثم رأى الصبي نفسه ينزل من القطار فى محطة القاهرة ، وإذا أخوه يتلقاه مبتسماً له ، ثم يدعو حمالا ليحمل ما كان معه من متاع قليل وزاد كثير . فإذا تجاوز باب المحطة دعا عربة من عربات النقل فحمل عليها الزاد وصاحب أخيــه ، ثم عربة أخرى من عربات الركوب ، فأجلس فيها أخاه رفيقاً به ، وجلس عن يمينــه وأعطى السائق عنوان « الربع » .

١٧

وأقبل صاحبنا على دروسه فى الأزهر وغير الأزهر من المساجد . فأمعن فى الفقه والنحو والمنطق ، وأخذ يحسن « الفنقلة » التى كان يتنافس فيها البارعون من طلاب العلم فى الأزهر على المنهج القديم ، ويسخر منها المسرفون فى التجديد ، ولا يُعرض عنها المجددون المعتدلون . وإذا هو يدرس شرح الطائى على الكنز مصبحاً ، والأزهرية مع الظهر ، وشرح السيد الجرجانى على إيساغوجى ممسياً . وكان يحضر الدرس الأول فى الأزهر ، والدرس الثانى فى مسجد محمد بك أبى الذهب ، والدرس الثالث فى مسجد الشيخ العدوى على أستاذ من سلالة الشيخ العدوى نفسه . وربما ألمّ بدرس من دروس الضحى كان يقرأ فيه كتاب قطر الندى لابن هشام تعجلا للتعمق فى النحو والفراغ من كتب المبتدئين والوصول إلى شرح ابن عقيل على الألفية . ولكنه لم يكن يواظب على هذا الدرس . كان يستجهل الشيخ ، ويرى فى « فنقلة » الشيخ عبد المجيد الشاذلى حول الأزهرية وحاشية العطار ما يكفيه ويرضيه .

وقد بقيت فى نفسه آثار لا تمحى من درس الأزهرية هذا ؛ ففيه تعلّم « الفنقلة » حقّا ، وكان أول ذلك هذا الكلام الكثير والجدال العقيم حول قول المؤلف « وعلامة الفعل قد » ؛ فقد أتقن

صاحبنا ما أثير حول هذه الجملة البريئة من الاعتراضات والأجوبة ، وأتعب شيخه حواراً وجدالا حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط إلا ضحك منه ورق له : « الله حكم بينى وبينك يوم القيامة » . قال ذلك فى صوت يملؤه السأم والضجر ، ويملؤه العطف والحنان أيضاً . وآية ذلك أنه بعد أن أتم الدرس وأقبل الصبى ليلثم يده كما كان الطلاب يفعلون ، وضع يده على كتف الصبى ، وقال له فى هدوء وحب : « شد حيلك الله يفتح عليك » .

وعاد الصبى مبتهجاً بهذه الكلمات والدعوات ، فأنبأ بها أخاه وانتظر به أخوه موعد الشاى . فلما اجتمع القوم إلى شايهم قال للصبى مداعباً : قرر لنا « وعلامة الفعل قد » . فامتنع الصبى حياء أول الأمر ، ولكن الجماعة ألحت عليه ؛ فأقبل يقرر ما سمع وما وعى وما قال ، والجماعة صامتة تسمع له ، حتى إذا فرغ نهض إليه ذلك الكهل الذى كان ينتظر الدرجة فقبل جبهته وهو يقول : « حصّنتك بالحى القيوم الذى لا ينام » .

فأما الجماعة فأغرقت فى الضحك . وأما الصبى فأغرق فى الرضا عن نفسه ، وبدأ منذ ذلك الوقت يعتقد أنه أصبح طالباً بارعاً نجيباً .

وقوّى هذا الرأى فى نفسه أن زملاءه فى درس النحو التفتوا إليه وجعلوا يستوقفونه بعد الدرس ، أو يدنون منه قبل

الدرس ، فيسألونه ويتحدثون إليه ، ثم يعرضون عليه أن يعدّوا معه الدرس قبل الظهر . وقد أغراه هـذا العرض فترك درس القطر ، وجعل يطالع مع زملائه هؤلاء يقرءون له ويأخذون فى التفسير ، وجعل هو يسبقهم إلى هذا التفسير ويستبد به من دونهم ، فلا يقاومونه وإنما يسمعون منه ويصغون إليه . وجعل ذلك يزيده غروراً إلى غرور ، ويخيل إليه أنه قد بدأ يصبح أستاذاً .

واطّردت حياته فى ذلك العـام متشابهة لا جديد فيها إلا ما كان يفيده الصبى من العلم كلما أمعن فى الدرس ، وما كان يشعر به من الغرور إذا كان بين زملائه ، وما كان يُردّ إليه من التواضع إذا كان بين أولئك الطلاب الكبار فى الربع ، وإلا ما كان يفيده من العـلم بشؤون الأساتذة والطلاب فى الأزهر لما كان يسمع من حديث زملائه وأصدقاء أخيـه عن أولئك وهؤلاء .

فلم يكن شىء من هـذه الأحاديث ليحسن ظنـه بأولئك أو هؤلاء ، وإنما كان ظنه يزداد بهم سوءاً كلما مر عليه الوقت . فقـد كان يسمع بين حين وحين ثناء بالذكاء والبراعة على هذا الشيخ أو ذاك من صغار العلماء وكبارهم ، ولكنه كان يسمع دائماً عيباً لأولئك وهؤلاء بألوان من النقائص التى تتصل بالخلق أو تتصل بالسيرة أو تتصل بصناعة العلم نفسها ، والتى كانت تثير فى نفسه كثيراً من الغضب والازدراء وخيبة الأمل .

ولم يكن يسلم من هذه العيوب أحد . فأما هذا الشيخ فقد كان شديد الحقد على زملائه وأقرانه ، شديد المكر بهم والكيد لهم ، يلقاهم مبتسماً فلا يكاد يفارقهم حتى يقول فيهم أشنع القول ويسعى بهم أقبح السعى . وأما هذا الشيخ الآخر فقد كان رقيق الدين ، يظهر التقوى إذا كان فى الأزهر أو بين أقرانه ، فإذا خلا إلى نفسه وإلى شياطينه أغرق فى إثم عظيم .

وكان هؤلاء العائبون ربما سموا أولئك الشياطين الذين كان الشيخ يخلو إليهم ويشاركهم فى الإثم . وكان كبار الطلاب يتندرون على هذا الشيخ أو ذاك ؛ لأنه كان يعنى عناية خاصة بهذا الفتى أو ذاك ، ويلقى نظرات خاصة على هذا الفتى أو ذاك ، ولا يستقر على كرسيه إذا حضر من طلابه هذا الفتى أو ذاك .

وكانت الغيبة والنميمة أشيع وأشنع ما كان يُذْكَر من عيب الشيوخ . فكان الطلاب يذكرون سعى ذلك الشيخ بصديقه الحميم عند شيخ الأزهر أو عند الشيخ المفتى ، وكانوا يذكرون أن شيخ الأزهر كان أذناً للنمامين ، وأن الشيخ المفتى كان يترفع عن الاستماع لهم ويلقاهم بالزجر القاسى العنيف .

وقد تحدث الطلاب الكبار ذات يوم بقصة عن جماعة من كبار الشيوخ سموهم يومئذ ، فزعموا أن هؤلاء الشيوخ لاحظوا أنهم قد أسرفوا على أنفسهم فى الغيبة ، فاستعظموا ذلك وذكروا

قول الله عز وجل : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » ؛ فتناهـَوْا عن هذه الخطيئة الكبيرة ، وتعاهدوا على أن من أخذ منهم فى الغيبة فعليه أن يؤدى إلى أصحابه عشرين قرشاً .

وقد كفوا عن الغيبة يوماً أو بعض يوم ضنـًّا بهذا المبلغ من النقد . وإنهم لفى بعض حديثهم ، وإذا شيخ يمر بهم فيلقى عليهم تحية ، ويمضى فى طريقه . ولكنه لا يكاد يمضى حتى يخرج أحدهم قطعة من الفضة فيدفعها إلى أصحابه ويأخذ فى اغتياب هذا الشيخ .

فأما تحدث الطلاب كباراً وصغاراً بجهل شيوخهم وتورطهم فى ألوان الخطأ المضحك الذى كان بعضه يتصل بالفهم وبعضه يتصل بالقراءة ، فقد كان أكثر من أن يحصى وأعظم من أن يقدَّر . ومن أجل هذا كان صاحبنا سيئ الرأى فى العلماء والطلاب جميعاً . وكان يرى أن الخير كل الخير فى أن يجد ويجتهد ويحصل ما استطاع من العلم معرضاً عن مصادره التى كان يستقيه منها .

وازداد رأيه سوءاً حين استقبل السنة الثالثة من حياته فى الأزهر ، فالتمس لنفسه أستاذاً يقرأ فى الفقه شرح مُلاَّ مِسكين على الكنز ، فدُلَّ على أستاذ معروف بعيد الذكر ظاهر المكانة فى القضاء ، فذهب إليه وجلس فى حلقته ، ولكنه لم يكد ينفق دقائق حتى أحس حرجاً عظيما ، رأى نفسه مضطرًّا إلى أن يبذل جهداً شديداً لمقاومة الضحك . وذلك أن الشيخ رحمه الله قد كانت له لازمة غريبة ، كما كان

يقول الأزهريون . فلم يكن يقرأ جملة فى الكتاب أو يفسرها من عند نفسه إلا قال هذه الجملة مرتين : « قال قال ثم قال إيه » يعيد ذلك مرات فى الدقائق القليلة ، وصاحبنا يسمع له ويعنف على نفسه حتى لا يضحك فيأتى منكراً من الأمر .

وقد استطاع صاحبنا أن يضبط نفسه ، ولكنه لم يستطع أن يختلف إلى درس الأستاذ أكثر من ثلاثة أيام ؛ لأنه لم يجد عنده غناء ، وإنما وجد عنده عناء ، لم يفد منه شيئاً ، وإنما كان يكظم ضحكه كظما عنيفاً ، ويكلف نفسه من ذلك ما لم تكن تطيق . والتمس غيره من الأساتذة الذين كانوا يقرءون هذا الكتاب ، فلم يجد عندهم إلا هذه « اللوازم » التى كانت تختلف باختلافهم ، ولكنها كانت تدفع الغلام إلى الضحك وتضطره إلى أن يبذل فى ضبط نفسه من الجهد ما كان يشغله أحياناً عن الاستماع . وقيل له فى أثناء ذلك إن هذا الكتاب من كتب الفقه ليس بذى خطر ، وإن أستاذاً ممتازاً سموه له يقرأ كتاب الدرر ، والخير فى أن تحضر درسه ، فهو من أذكى العلماء وأبرع القضاة .

واستشار صاحبنا أخاه وأصحاب أخيه فلم يردوه عن ذلك، بل شجعوه عليه وأوصوا به الشيخ . وقد رضى الغلام عن أستاذه الجديد فى دروسه الأولى ، فلم يكن يلتزم جملة بعينها أو لفظاً بعينه أو صوتاً بعينه ، ولم يكن يتردد فى القراءة ولا فى التفسير ، وكان ذكاؤه واضحاً ، وإتقانه للفقه بيناً ، وحسن تصرفه فيه لا يتعرض للشك.

وكان الأستاذ رشيقاً أنيقاً حلو الصوت ممتازاً فى حركته وفى لقائه للطلاب وحديثه إليهم . وكان معروفاً بالتجديد ، لا فى العلم ولا فى الرأى ، ولكن فى السيرة . وكان كبار الطلاب يتحدثون بأنه يلقى درسه إذا أصبح ثم يمضى إلى محكمته فيقضى فيها ، ثم يروح إلى بيته فيطعم وينام . فإذا كان الليل خرج مع لداته فذهب إلى حيث لا ينبغى أن يذهب العلماء ، وسمع من الغناء ما لا ينبغى أن يسمع العلماء ، وأقبل من اللذات على ما لا ينبغى أن يقبل عليه رجال الدين ، وكانوا يذكرون « ألف ليلة وليلة » .

فيعجب الغلام لأنه كان يعرف أن « ألف ليلة وليلة » اسم كتاب طالما قرأ فيه ووجد فى قراءته لذة ومتاعاً . ولكنهم كانوا يذكرون هذا الاسم على أنه مكان يسمع فيه الغناء ، ويكون فيه اللهو ، وتطلب فيه بعض اللذات .

وكان الغلام يسمع عن شيخه هذه الأحاديث فلا يصدقها ولا يطمئن إليها ، ولكنه لم ينفق مع الشيخ أسابيع حتى أحس منه تقصيراً فى إعداد الدرس ، وقصوراً عن تفسير النص ، وضيقاً بأسئلة الطلاب ، بل أحس منه أكثر من ذلك ، فقد سأله ذات يوم عن تفسير بعض ما كان يقول فلم يجبه إلا بالشتم . وكان الشيخ أبعد الناس عن الشتم وأشدهم عنه ترفعاً .

فلما قص الغلام على أخيه وأصحابه من أمر الشيخ ما رأى ، أنكروا ذلك وأسفوا له ، وهمس بعضهم لبعض بأن العلم والسهر

فى « ألف ليلة وليلة » لا يجتمعان .

وكان حظ الغلام فى النحو خيراً من حظه فى الفقه ؛ فقد سمع القطر والشذور على الشيخ عبدالله دراز رحمه الله ، فوجد من ظرف الأستاذ وصوته العذب وبراعتـــه فى النحو ومهارته فى رياضة الطلاب على مشكلاته ما زاده فى النحو حبًّا .

ولكن حظه فى النحو لم يلبث أن ساء حين استؤنفت الدراسة فى العام الجـــديد . فقد أخذ الغلام يسمع عـــلى الشيخ عبدالله دراز شرح ابن عقيل . وبينما الأستاذ وطلابه ماضون فى درسهم ، راضون عن عملهم ، صـــدر الأمر إلى الأستاذ بالانتقال إلى معهد الإسكندرية .

فمانع فى ذلك ما استطاع ، ومانع طلابه ما استطاعوا ، ولكن المشيخة لم تسمع له ولا لهم . فلم يجد بدًّا من إنفاذ الأمر . ولم ينس الغلام ذلك اليوم الذى ودع الأستاذ فيه طلابه ، وإنه ليبكى مخلصاً ، وإنهم ليبكون مخلصين ويشيعونه باكين إلى باب المسجد .

ثم أقيم مقام الشيخ ، شيخ آخر ضرير ، وكان مشهوراً بالذكاء الحاد والتفوق الظاهر والنبوغ الممتاز ، وكان لا يذكر إلا أثنى عليه ذاكروه والسامعون لذكره بهذه الخصال .

أقبل هـــذا الشيخ ، فأخذ الدرس من حيث تركه الشيخ عبد الله دراز . وكانت حلقة الشيخ عبد الله دراز عظيمة تملأ رقعتها القبة من مسجد محمد بك أبى الذهب . فلما خلفه هذا الشيخ

ازدادت هذه الحلقة ضخامة واتساعاً حتى اكتظ بها المكان . وألقى الشيخ درسه الأول فرضى عنه الطلاب ، ولكنهم لم يجدوا عنده وداعة أستاذهم القديم ولا عذوبة صوته . ثم ألقى درسه الثانى والثالث ، وإذا الطلاب ينكرون منه رضاه عن نفسه وإعجابه بها ، وثقته بما كان يقول ، وغضبه الحاد على مقاطعيه .

ولم يكد يتقدم فى درسه الرابع حتى كانت بينه وبين صاحبنا قصة صرفت الغلام عن النحو صرفاً . كان الشيخ يفسر قول تأبط شرا :

فأبت إلى فهم وما كدت آئباً
وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

فلما وصل إلى قوله « تصفر » قال : إن العرب كانت إذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة وضعوا أصابعهم فى أفواههم ونفخوا فيها ، فكان لها صفير يسمع .

قال الغلام للشيخ : وإن فما مرجع الضمير فى قوله « وهى تصفر ؟ » وفى قوله « وكم مثلها فارقتها ؟ » . قال الشيخ مرجعه « فهم » أيها الغبى . قال الغلام : فإنه قد عاد إلى فهم والبيت لا يستقيم على هذا التفسير . قال الشيخ : فإنك وقح وقد كان يكفى أن تكون غبيًّا . قال الغلام : ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير . فسكت الشيخ لحظة ثم قال : « انصرفوا . فلن أستطيع أن أقرأ وفيكم هذا الوقح » .

ونهض الشيخ ، وقام الغلام ، وقد كاد الطلاب يبطشون به لولا

أن حماه زملاؤه وكانوا من أهل الصعيد . حموه بأن أحاطوا به وأشهروا نعالهم فتفرق الناس . وأى الأزهريين لم يكن يَفْرَقُ فى ذلك الوقت من نعال أهل الصعيد !

ولم يعد الغلام إلى درس النحو ، بل لم يحضر الغلام بعد ذلك درساً فى النحو ، بل ذهب من غده إلى درس كان يلقيه أستاذ معروف من أهل الشرقية ، وكان يقرأ شرح الأشمونى ، ولكنه لم يتم الاستماع للدرس . مضى الشيخ يقرأ ويفسر ، وسأله الغلام فى بعض الشىء ، فرد عليه الشيخ بما لم يقنعه . فأعاد السؤال ، فغضب الشيخ وأمره بالانصراف . فتوسط بعض أصدقائه عند الشيخ يستعطفونه ، فازداد غضب الشيخ وأبى أن يمضى فى الدرس حتى يقوم هـذا الغلام ومعه أصدقاؤه . ولم يكن لهم بد من أن ينصرفوا ؛ فقد أشهرت عليهم نعال الشرقية . ولم تكن نعال الشرقية بأقل خطراً من نعال الصعيد .

وذهب الغلام من غده مع أصحابه إلى حلقة أخرى كان يقرأ فيها شرح الأشمونى ، يقرؤه أستاذ مشهور من أساتذة الشرقية أيضاً . فوقف الغلام على الحلقة لحظة لا تتجاوز الدقائق الخمس ، ولكنه سمع فيها هذه اللازمة الغريبة يعيدها الشيخ كلما انتقل من جملة إلى جملة « اخص على بلدى » ، فضحك الغلام وضحك أصدقاؤه وانصرفوا . وأزمع الغلام وصديق له أن يدرسا النحو مستقلين ، وأن يدرساه فى مصادره الأولى ، فقرآ كتاب المفصَّل

للزمخشرى ، ثم كتاب سيبويه ، ولكن هذه قصة أخرى .

ولم يكن حظه فى المنطق خيراً من حظه فى الفقه والنحو . لقد أحب المنطق حبًّا شديداً حين كان يسمع شرح السيد على إيساغوجى من أستاذه ذاك الشاب فى العام الماضى . فأما فى هذا العام فقد جلس لأمثاله من أوساط الطلاب علم من أعلام الأزهر الشريف ، وإمام من أئمة المنطق والفلسفة فيه ، وكان معروفاً بين كبار الطلاب بهذا الذكاء الظاهر الذى يخدع ولا يغنى شيئاً ، وكان معروفاً بهذه الفصاحة التى تبهر الأذن ولا تبلغ العقل . وكان يؤثر عنه أنه كان يقول : « مما منَّ الله علىَّ به أنى أستطيع أن أتكلم ساعتين فلا يفهم أحد عنّى شيئاً ولا أفهم أنا عن نفسى شيئاً ». كان يرى ذلك مزية وفخراً . ولكن لم يكن بد للطالب الذى يقدِّر نفسه من أن يجلس إليه ويسمع منه . وقد جلس للطلاب بعد صلاة المغرب يقرأ لهم شرح الخبيصى على تهذيب المنطق . وذهب إليه صاحبنا وسمع منه درساً ودرساً ، وكانت حلقته عظيمة حقًّا تكتظ بها القبة فى جامع محمد بك . وكان الغلام يسبق صلاة المغرب فيجلس فى أقرب مكان من كرسى الأستاذ . وكان الأستاذ جَهْوَرِى الصوت قد احتفظ بلهجة الصعيد كاملة . وكان شديد النشاط كثير الحركة . وكان إذا سأله طالب رد هو عليه ساخراً منه ؛ فإن ألح الطالب فى السؤال ثار هو به وجعل يقول له فى حدة : « اسكت يا خاسر ، اسكت يا خنزير ! » وكان يفخم الخاء

فى الكلمتين إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم .

وقد استقام للشيخ وللطلاب أمرهم حتى أتموا قسم التصورات . فلما بلغوا من كتابهم المقصد الثانى فى التصديقات لقى الغلام من نفسه ومن شيخه بلاء عظيما ، فاضطر إلى أن يختار له من الغد مكاناً بعيداً عن الشيخ ، وما زال يتأخر يوماً بعد يوم فى مجلسه حتى بلغ باب القبة ، فخرج منه ذات ليلة ، ولم يدخله بعد ذلك .

لقى الغلام بلاء من نفسه لم يذكره قط إلا ضحك منه ضحكاً شديداً ، وأضحك منه أخاه وأصدقاءه جميعاً . فقد جلس الشيخ على كرسيه وأخذ فى القراءة ، فقال : « المقصد الثانى فى التصديقات » يقلقل القاف ، ويفخم الصاد ، ويمد الألفات والياءات مدًّا متوسطاً . ثم يعيد هذه الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويطيل مد الألفات والياءات . ثم يعيد الكلمات نفسها فيقلقل القاف ويفخم الصاد ويمد الألف والياء فى « الثانى » ولكنه لا يقول « فى التصديقات » ، وإنما يقول « فى مين ؟ » فلا يرد عليه أحد . فيرد على نفسه ويقول « فى التصديقات » . ثم يعيد الكلمة نفسها على هذا النحو نفسه ، فإذا انتهى إلى قوله « فى مين ؟ » ولم يرد عليه أحد ، ضرب بظهر يده فى جبهة الغلام وهو يقول : « ردوا يا غنم ، ردوا يا بهائم ، ردوا يا خنازير ! » . يفخم الغين والخاء إلى أقصى ما يستطيع فمه أن يبلغ من التفخيم ، فيقول الطلاب جميعاً « فى التصديقات » .

لقى الغلام من نفسه عناء شديداً ؛ فقد كان هذا كله خليقاً أن يضحكه ، وكان يخاف أن يضحك بين يدى الأستاذ . ولقى من شيخه بلاء عظيماً بهذه الضربات التى كانت تتوالى على جبهته بين حين وحين . ومهما يكن من شىء فقد تحول الغلام عن هذا الدرس ولم يتجاوز بالمنطق عند هذا الشيخ باب القضايا .

تحول عن هذا الدرس فى أثناء العام ، وقرر أن يحضر مكانه درساً فى التوحيد كان يلقيه شيخ جديد حديث الظفر بدرجة العالمية . وكان أصدقاؤه من كبار الطلاب يذكرونه بالظرف الشديد والذكاء المتوسط وحلاوة الصوت وحسن الإلقاء ، ويقولون : إن علمه يخدع من حدّثه أو سمع عنه ، فإذا تعمقه لم يجد عنده شيئاً . وكان يقرأ شرح الخريدة ومتنها للدردير . فسمع الغلام منه درساً وأعجب بصوته وإلقائه وظرفه ، وجعل ينتظر أن يعجب بعلمه وفنقلته . ولكن الشيخ صُرِف عن الدرس لأنه نقل من القاهرة وأرسل إلى مكان بعيد تولى فيه منصب القضاء ، فلم يتح للغلام أن يعلم علمه ، ولا أن يقضى فى أمره بشىء إلا أنه كان لبقاً ظريفاً حلو الصوت عذب الحديث .

وإذاً فقد ضاعت السنة فى حقيقة الأمر على الغلام ، ولم يحصل فيها أو لم يكد يحصل فيها من العلم شيئاً جديداً ، إلا ما كان يقرؤه فى الكتب ويسمعه من أولئك الطلاب الكبار وهم يطالعون أو يتناظرون .

فلما عاد إلى الأزهر من قابل ، عاد إليه ضيق النفس به ، شديد الزهد فيه ، حائراً فى أمره لا يدرى ماذا يصنع : لا يستطيع أن يقيم فى الريف ، وماذا يفعل فى الريف ! ولا يجد نفعاً من إقامته فى القاهرة واختلافه إلى الشيوخ . وفى هـذا العام اتصل بدرس الأدب . ولكن لحديث هذا الدرس ساعة

* من الدهر ما حانت ولا حان حينها *

كما تقول بثينة فى سلوّها عن جميل .

١٨

وفى الحق أن إقبال الفتى على درس الأدب لم يصرفه عن علومه الأزهرية أول الأمر ؛ فقد كان يظن أنه يستطيع الملاءمة فى نفسه بين هذين اللونين من ألوان المعرفة . وهو لم يرسل إلى القاهرة ولم ينسب إلى الأزهر ليكون أديباً ينظم الشعر أو ينشئ النثر ، وإنما أرسل إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر ليسلك طريقه الأزهرية الخالصة ، حتى يبلغ الامتحان ويظفر بالدرجة ، ويسند ظهره إلى عمود من الأعمدة القائمة فى ذلك المسجد العتيق ، ويتحلق الطلاب من حوله فيسمعوا منه درساً فى الفقه أو فى النحو أو فيهما جميعاً .

كذلك كان يتمنى أبوه ، وبذلك كان يتحدث إلى الأسرة فى شيء من الأمل والإعجاب بابنه هـــذا الشاذ الغريب . وكذلك كان يريد أخوه ، وكذلك كان يريد هو . وماذا كان يمكن أن يريد غير ذلك وقد فرضت الحياة على أمثـــاله من المكفوفين الذين يريدون أن يحيوا حياة محتملة إحدى اثنتين : فإما الدرس فى الأزهر حتى تنال الدرجة وتضمن الحيـــاة بهذه الأرغفة التى تؤخذ فى كل يوم ، وبهذه القروش التى تؤخذ آخر الشهر لا تزيد عن خمسة وسبعين قرشاً إن كانت الدرجة

الثالثة ، ولا عن مائة قرش إن كانت الدرجة الثانية ، ولا عن خمسين ومائة قرش إن كانت الدرجة الأولى . وإما أن يتجر بالقرآن فيقرأه فى المآتم والبيوت كما أنذره بذلك أبوه فى وقت من الأوقات .

فلم يكن للفتى بد إذن من أن يمضى فى طريقه الأزهرية حتى يبلغ غايتها . وكانت هذه الطريق تنشعب إلى شعبتين إذا قضى الطالب ثلاثة أعوام أو أربعة فى الأزهر : إحداهما علمية وهى الاختلاف إلى الدروس والتنقل فى مراحل العلم . وكان الفتى ماضياً فيها ، أقبل عليها مشغوفاً بها ، ثم فترت همته ، ثم ازدراها وانصرفت عنها نفسه حين استيأس من الأساتذة وساء ظنه بالشيوخ .

والثانية مادية وكانت تتألف من مراحل ثلاث : مرحلة المنتسب ، ومرحلة المنتظر ، ومرحلة المستحق . أما مرحلة المنتسب فهى المرحلة التى يبدأ الطالب بها حياته الأزهرية بعد أن يتم تقييده فى سجلات الأزهر . ولم يكن له بد من أن ينتسب إلى أحد الأروقة . وقد انتسب صاحبنا كما انتسب أخاه إلى رواق الفشنية . وأما مرحلة المنتظر فقد كانت المرحلة الثانية ، ينتقل إليها الطالب بعد أن يقيم أعواماً فى الأزهر ، وسبيله إلى ذلك ورقة يكتبها ويرفعها إلى شيخ الرواق يعين فيها ما أنفق فى الأزهر من عام وما حضر فيه من درس ، ويشهد على صدقه فيما سجل فيها شيخان من شيوخه ، ويطلب إلى شيخ الرواق أن يقيد اسمه بين

أسماء المنتظرين ، حتى إذا خلا مكان بين المستحقين للجراية ارتقى إليه فبلغ المرحلة الثالثة ونال جرايته رغيفين أو ثلاثة أو أربعة ، على اختلاف بين الأروقة فى ذلك .

فلم يكن بد لصاحبنا من أن يرقى إلى مرحلة المنتظرين . وقد كتب الورقة وختمها بالجملة التى كانت شائعة إذ ذاك « جعلكم الله ملجأ للقاصدين » .

وشهد شيخان أنه لم يقل فى هذه الورقة إلا حقاً . وذهب إلى الشيخ فى داره ، فرفع إليه الورقة بعد أن قبل يده وانصرف . فانتظر وطال الانتظار ، ولم يظفر بالجراية قط فى هذا الرواق . ولكن ارتقاءه إلى مرحلة المنتظرين أرضى أباه وملأ فمه فخراً على كل حال .

وبينما كان ينتظر فى طائل أو فى غير طائل خرج الأستاذ الإمام من الأزهر فى تلك القصة المعروفة ، وبعد تلك الخطبة المشهورة التى ألقاها الخديوى على بعض العلماء .

وكان الفتى يظن أن تلاميذ الشيخ ، وكانوا كثيرين يكتظ بهم الرواق العباسى فى كل مساء ، سيحدثون حدثاً ، وسينبئون الخديوى بأن شباب الأزهر قد تغيروا ، وبأنهم سيذودون عن شيخهم ، وسيبذلون فى سبيل ذلك لا أوقاتهم وحدها بل أرواحهم أيضاً .

ولكن الشيخ ترك الأزهر واتخذ داراً للإفتاء : فلم يزد تلاميذه

على أن حزنوا وتحدثوا بالأسف فيما بينهم وبين أنفسهم ، وزار قليل منهم الشيخ فى داره بعين شمس ، وانصرف عنه أكثرهم ، وانتهى الأمر عند هذا الحد . فامتلأت نفس الفتى حزناً وغيظاً ، وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ ، ولم يكن مع ذلك قد عرف الأستاذ الإمام أو قُدِّم إليه .

وبعد ذلك بقليل توفى الأستاذ الإمام ، فاضطربت مصر لوفاته . وكانت البيئة الأزهرية أقل البيئات المصرية اضطراباً لهذا الحادث الجلل . وأسف تلاميذ الشيخ ، ولعل قليلا منهم سفحوا بعض الدموع ، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم ، كأن الشيخ لم يمت ، أو كأن الشيخ لم يكن ، لولا أن الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونه بالخير بين حين وحين .

وكذلك عرف الفتى فى ألم لاذع ولأول مرة فى حياته الناشئة أن ما يقدم إلى عظماء الرجال من ألوان الإكبار والإجلال وضروب التملق والزلفى لغو لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وأن وفاء الناس ينحل فى أكثر الأحيان إلى كلام لا يفيد .

وزاد سوء الظن بالناس فى نفس الفتى قوة ما لاحظه فى بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصة للاتجار باسمه ، واستغلال الصلة به ، يتوسلون إلى ذلك بالشعر حيناً وبالنثر حيناً آخر ، وبالإعلان فى الصحف والمجلات دائماً .

ولكن الفتى أحس شيئاً آخر زاد به انحرافاً عن الأزهر وانصرافاً

عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم ، وإنما كانوا من أصحاب الطرابيش ، فوجد فى نفسه ميلا خفيًّا إلى أن يقرب من أصحاب الطرابيش هؤلاء ، وإلى أن يتصل ببيئاتهم بعض الاتصال . ومن له بذلك وهو فتى ضرير قد فرضت عليه الحياة الأزهرية فرضاً فلم يجد عنها منصرفاً ! .

وكان الأستاذ الإمام شيخاً لرواق الحنفية ، فلما خرج من الأزهر أو لما خرج من الحياة أصبح خلفه على الإفتاء خلفاً له على الرواق أيضاً .

وكان ابن المفتى الجديد أستاذاً لصاحبنا الفتى ، سمع عليه فى صباه شرح السيد الجرجانى على إيساغوجى فى المنطق ، وكان يقوم عن أبيه بأمر الرواق . فأغرى الفتى بالانتساب إلى رواق الحنفية والانتظار فيه . وكانت الجراية فى رواق الحنفية أيسر منالا وأكثر عدد أرغفة منها فى غيره من الأروقة . ولم يكن الانتساب إلى رواق الحنفية فى أيام الأستاذ الإمام سهلا ولا يسيراً وإنما كان الامتحان سبيلا إليه . وقد احتفظ المفتى الجديد بهذه السنة . وكان ابنه هو الذى يمتحن المتقدمين للانتساب فى موعد يعينه من العام . فقيل لصاحبنا الفتى مالك لا تنتسب إلى هذا الرواق وقد انتسب إليه أخوك من قبل وأصحابه النجباء أيام الأستاذ الإمام ، وهم يأخذون منه جراياتهم أربعة أرغفة لكل

واحد منهم فى كل يوم ؟ وزين ذلك له وحثه عليه أخوه وأصحابه . وأرسل إلى الامتحان ذات مساء ومعه كتاب إلى الممتحن . فلما أدخل الفتى على الممتحن حياه وأخذ منه الكتاب فنظر فيه ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ أو صواباً لم يدر ، ولكن الممتحن قال له : « انصرف يا علامة » فانصرف راضياً . ولم يمض إلا وقت قليل حتى أصبح الفتى مستحقًّا ونال رغيفين فى كل يوم ، فكثر الخبز فى الغرفة ، وفرحت الأسرة فى الريف .

على أن الفتى لم ينل رغيفين فحسب ، وإنما نال معهما خزانة فى الرواق كانت آثر عنده من الرغيفين . فقد كان يستطيع إذا دخل الأزهر مع الصبح أن يذهب إلى خزانته فيضع فيها نعليه ورغيفيه أو أحدهما ، ويقضى نهاره حرًّا لا يعنى بهاتين النعلين اللتين كان يبذل جهداً غير قليل لحمايتهما من عدوان الخاطفين والسارقين . وما أكثر ما كانت تسرق النعال فى الأزهر ! وما أكثر ما كانت تلصق على جدران الأزهر من حول الصحن أوراق يعلن فيها أصحابها أن نعالهم قد ضاعت ، وأن من ظفر بها فردها إلى صاحبها فى مكان كذا ، أو رواق كذا ، فله الأجر والثواب ، ومن احتفظ بها متعدياً قطعه الله من هذا المكان !

كان الفتى إذن سعيداً بخزانته ورغيفيه ، ولكنه لم يكن سعيداً بما كان يحصّل من العلم أو يسمع من الدرس . وقد كان يكره

نفسه إكراهاً على أن يسمع بعد الفجر درساً فى التوحيد كان يلقيه الشيخ راضى رحمه الله ، وكان يقرأ كتاب المقاصد ، ويسمع فى الصبح درس الفقـــه على الشيخ بخيت وكان يقرأ كتاب الهداية ، ويسمع فى الظهر درس البلاغة على الشيخ عبد الحكم عطا وكان يقرأ شرح السعد .

وكان درس الفقه يسلّى الفتى ويلهيه بما كان يسمع فيه من غناء الشيخ إذا خلّى الطلاب بينه وبين الغناء ، وحدة الشيخ ونكته الأزهرية إذا قطع الطلاب عليه غناءه فجادلوه فى بعض ما كان يقرأ أو كان يقول . وربما كان الشيخ ينشد طلابه أحياناً من شعره إذا صفا وطابت نفسه للإنشاد . وقد حفظ عنه الفتى بيتاً من الشعر لم ينس قط صوت الشيخ وهو يتغنى به مترنحاً :

كأن عمتـــه من فوق هامتـــه

شنف من التبن محمول على جمـــل

وقد روى الفتى هذا البيت لأخيه وأصحابه فتضاحكوا وتذاكروا شعر الشيخ وتناشدوا بعضه . وروى الفتى إلى البيت السابق بيتاً آخر ليس أقل منه طرافة وظرفاً ، وهو مطلع قصيدة قالها الشيخ رحمه الله فى رثاء بعض العلماء ، وهو :

خطب جليـــل بعد موتك يا نبى

فقـــد الأئمة كالإمـــام المغربى

وقد روى المصريون جميعاً عن الشيخ بعد ذلك العهـــد بأعوام

طوال بيتاً آخر لم ينسه ظرفاؤهم بعدُ ، وقد سار فيهم كما تسير الأمثال ، وهو :

إنا مع الأمرا والوفـــد والوزرا

على وفاق له فى القلب تأييـــد

وكان الفتى ربما جادل الشيخ فأطال الجدال . وقد أسرف الجدال مرة فى الطول حتى تأخر الدرس عن إبانه ، وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى بالشيخ أن حسبك فقد نفد الفول . فأجابهم الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون . ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ؛ فقـــد كان هو أيضاً حريصاً على أن يدرك الفول قبل أن ينفد .

وكان درس البلاغة أثيراً عند الفتى ، لا لما كان يحصل فيـــه من علم ؛ فقد مضى منذ وقت طويل إقبال الفتى على الدروس فى الأزهر لتحصيل العلم ، وإنما كان يقبـــل عليه أداء للواجب وقطعاً للوقت والتماساً للفكاهة . وكان درس البلاغة أثيراً عنده لأنه كان يجد فيه هذه الفكاهة ، ولأن الشيخ ، نضر الله وجهه ، كان سمح النفس رضى الخلق مخلصاً فى درسه للعلم وللطلاب . ولأنه بعد ذلك كان يكلف نفسه فى الفهم والإفهام جهداً عظيماً وعناء ثقيلا . وكان إذا بلغ منه الجهد رفّه على نفسه بهذه الجملة يوجهها إلى طلابه بين حـــين وحين ، فى لهجة منياوية عذبة مضحكة « فاهمين يا سيادى ؟ » .

وكان إذا انتصف الدرس أشفق على نفسه وعلى الطلاب فقطع القراءة والتفسير وأقام دقائق صامتاً لا ينطق ، وأقبل على نشوقه فالتهم منه بأنفه ما استطاع فى تؤدة وروية وأناة . وكان الطلاب ينتهزون هذه الفرصة ليطفئوا ما كان يتأجج فى بطونهم من نار الفول والطعمية والكراث بقدح من أقداح الشراب الذى كان يطوف به الباعة عليهم فى أثناء الدروس ، ويدعونهم دعاء لطيفاً بهذا النقر الخفيف الذى كان يمس به الزجاج فيبعث إلى الآذان صوتاً خفيفاً ظريفاً .

وفى ذات يوم كان الفتى يستريح مع بعض أصحابه أثناء هذه السكتة ، وكان الشيخ مقبلا على نشوقه والطلاب على شرابهم ، وإذا أحد المشدين يأتى فيدعـــو الفتى وصاحبيه فى رفق إلى غرفة شيخ الجامع .

ولكن هذه قصة لم يأت وقتها بعدُ ، وإن كان الناس قد عرفوها منذ وقت بعيد . وقد قام الفتى وصاحباه عن الدرس ثم لم يعودوا إليه بعد ذلك .

وفى هذا الوقت أو قريباً من هذا الوقت ، وقعت قصة دخل فيها الفتى ومضى فيها إلى غايتها ، ولكنها قضت فى نفسه على كل أمل فى أن يظفر بنجاح فى الأزهر قليل أو كثير .

غضب القصر على شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، فمنع الشيخ من إلقاء دروسه ، ورأى الناس فى هذا المنع ظلماً للشيخ وعدواناً

على حقوق الأزهر ، ولكنهم لم يصنعوا شيئاً ، وكان الأزهريون أشدهم فتوراً وخضوعاً . ولكن صديقاً من أصدقاء الفتى — كانت له فيما أقبل من الأيام مواقف مشهورة يحمدها له الناس — أقبل عليه ذات يوم فقال له : ألست ترى فيما حل بشيخنا ظلماً وعدواناً ؟ قال الفتى : بلى وأى ظلم وأى عدوان ! قال له الصديق : ألا تشاركنى الاحتجاج على هذا الظلم ؟ قال الفتى : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال الصديق : نجمع نفراً من أصدقائنا الذين كانوا يسمعون دروس الشيخ ونسعى إليه نتمنى عليه أن يمضى فى إلقاء دروسه علينا فى بيته ، فإذا قبل انتفعنا بالدرس وأعلنا ذلك فى الصحف فعرف الظالمون للأزهر أن بين الأزهريين من لا يقرون الظلم ولا يذعنون له . قال الفتى : هذا حسن .

واجتمع نفر من طلاب الشيخ فسعوا إليه بما أرادوا ، وأجابهم إلى ما طلبوا ، فأعلنوا ذلك فى الصحف ، وأعلنوا أن الشيخ سيقرأ لهم « سلم العلوم » فى المنطق « ومسلم الثبوت » فى الأصول ، يقسم الأسبوع بين هذين الكتابين .

وبدأ الشيخ دروسه فى بيته ، وكثر الطلاب المقبلون على هذه الدروس حين علموا بها ، ورضى هؤلاء الشباب عن أنفسهم وعن شجاعتهم ، وعاد إلى الفتى شىء قليل من الأمل .

ولكنه فى ذات يوم جادل الشيخ فى بعض ما كان يقول . فلما طال الجدال غضب الشيخ وقال للفتى فى حدة ساخرة :

« اسكت يا أعمى ما أنت وذاك ! » . فغضب الفتى وأجاب الشيخ فى حدة : « إن طول اللسان لم يثبت قط حقًّا ولم يمح باطلا » . فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة ، ثم قال الشيخ لطلابه : « انصرفوا اليوم فهذا يكفى » .

ولم يعد الفتى منذ ذلك اليوم إلى دروس الشيخ ، بل جهل كل ما كان من أمرها .

وكذلك عاد الفتى إلى يأســـه من الأزهر ، ولم يبق له أمل إلا فى درس الأدب الذى آن الوقت للتحدث عنه وعن آثاره البعيدة فى حياة هذا الشاب .

١٩

لم يكد الصبى يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع ذكر الأدب والأدباء ، كما سمع ذكر العلم والعلماء . سمع حديث الأدب بين هؤلاء الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطى ، رحمه الله ، وحماية الأستاذ الإمام له وبره به . وقد وقـــع هذا الاسم الأجنبى من نفس الصبى موقعاً غريباً . وزاد موقعه غرابة ما كان الصبى يسمعه من أعاجيب الشيخ وأطواره الشاذة وآرائه التى كانت تضحك قوماً وتغضب قوماً آخرين .

كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريباً للشيخ الشنقيطى فى حفظ اللغـــة ورواية الحديث سنداً ومتناً عن ظهر قلب . وكانوا يتحدثون بحدته وشدته وسرعتـــه إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول . وكانوا يضربونه مثلا لحدة المغاربة . وكانوا يذكرون إقامته فى المدينة ورحلته إلى قسطنطينية ، وزيارته للأندلس ، وربما تناشدوا شعره فى بعض ذلك . وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنيـــة بالمخطوط والمطبوع فى مصر وفى أوربا ، وأنه لا يقنع بهذه المكتبه وإنما ينفق أكثر وقتـــه فى دار الكتب قارئاً أو ناسخاً . ثم كانوا يذكرون بعد ذلك متضاحكين قصته الكبرى تلك التى شغلته بالناس وشغلت الناس

به ، وعرضته لكثير من الشر والألم ، وهى رأيه فى أن « عمر » مصروف لا ممنوع من الصرف .

وكان الصبى يسمع حديث « عمر » هذا فلا يفهم منه شيئاً أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن فهمه فى وضوح حين تقدّم فى درس النحو وعرف المصروف والممنوع من الصرف ، وعرف غير المتمكن ، والمتمكن ، والمتمكن الأمكن من الأسماء . وكان أولئك الشباب يذكرون مناظرات الشيخ مع جماعات من علماء الأزهر فى صرف « عمر » هذا أو منعه من الصرف ، ويتحدثون ضاحكين بأن العلماء اجتمعوا للشيخ ذات يوم فى الأزهر يرأسهم شيخ الجامع ، فطلبوا إليه أن يعرض عليهم رأيه فى صرف عمر . فقال الشيخ فى لهجته المغربية المتحضرة : لا أعرض عليكم هذا الرأى حتى تجلسوا منى مجلس التلاميذ من الأستاذ . فتردد الشيوخ ، ولكن واحداً منهم ماكراً ماهراً نهض عن مجلسه وسعى حتى كان بين يدى الشيخ فجلس على الأرض متربعاً ، وأخذ الشيخ فى عرض رأيه فقال : أنشد الخليل :

يا أيها الزارى عـــلى عُمَرٍ

قـــد قلت فيـــه غير ما تعلم

قال الشيخ الجالس مجلس التلميذ بصوته الماكر النحيف : لقد رأيت الخليل أمس فأنشدنى البيت على هـــذا النحو : « يا أيها الزارى على عُمَرَ » . ولم يدعه الشيخ الشنقيطى يتم إنشاده ،

وإنما قطع عليه الإنشاد محتدًّا وهو يقول: « كذبت ! كذبت ! لقد مات الخليل منذ قرون طويلة فكيف يمكن لقاء الموتى ! » ، وجعل بعد ذلك يشهد الشيوخ على تعمد صاحبهم للكذب ، وعلى جهله بالنحو والعروض . وضحك القوم وتفرق المجلس دون أن يقضى فى أمر عمر أممنوع من الصرف كما يقول النحاة أم مصروف كما يقول هذا الشيخ الغريب . وكان الصبى يسمع هذا الكلام فيحفظه ، ويجد اللذة فيما فهم منه ، ويعجب بما لم يفهم .

وكان الشيخ يقرأ لبعض الطلاب هذه القصائد التى تعرف بالمعلقات . وكان أخو الصبى وبعض أصدقائه يسمعون هذا الدرس فى يوم الخميس أو فى يوم الجمعة من كل أسبوع ، وكانوا يعدّون هذا الدرس كغيره من الدروس . وكذلك سمع الصبى لأول مرة :

قِفَا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وما أسرع ما انصرف هؤلاء الطلاب الكبار عن هذا الدرس الذى لم يسيغوه ! ولكن أخا الصبى حاول أن يحفظ المعلقات ، فحفظ منها معلقة امرئ القيس ومعلقة طرفة . كان يردد الأبيات بصوت مرتفع والصبى يسمع فيحفظ ، ثم لم يلبث أن أشرك الصبى معه فى الحفظ . ولكنه لم يتجاوز هاتين المعلقتين وانصرف إلى دروسه الأزهرية الأخرى . واستقرت المعلقتان فى نفس الصبى يحفظهما ولا يفهم منهما إلا قليلا .

وكان هؤلاء الطلاب يتحدثون عن درس آخر كان يلقى فى الأزهر ليعلم الأزهريين صناعة الإنشاء . وكان يلقيه شيخ سورى من خاصة الأستاذ الإمام ، وقد اختلف إليه هؤلاء الطلاب فاشتروا الدفاتر وكتبوا موضوعات الإنشاء ، ولكنهم عدلوا عنه بعد قليل كما عدلوا عن درس الشنقيطى . وأقبل أخو الصبى ذات يوم ومعه مقامات الحريرى ، فجعل يحفظ بعضها رافعاً صوته بالقراءة والصبى يحفظ صامتاً ، ثم أشركه فى الحفظ كما أشركه فى حفظ المعلقات ، ومضيا فى ذلك حتى حفظا عشر مقامات . ثم انصرف الشيخ الفتى إلى الأصول والفقه والتوحيد ، كما انصرف عن المعلقات ودرس الإنشاء .

وأقبل مرة أخرى ومعه كتاب ضخم يسمى نهج البلاغة فيه خطب الإمام علىّ وقد شرحها الأستاذ الإمام نفسه . فجعل يحفظ من هذه الخطب ويحفظ الصبى معه ، ثم أعرض عن هذا الكتاب كما أعرض عن غيره بعد أن حفظ الصبى طائفة من الخطب .

وصنع الشيخ الفتى هذا الصنيع نفسه بمقامات بديع الزمان الهمذانى . ولم ينس الصبى قط قصيدة أبى فراس :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر
أما للهوى نهى عليك ولا أمر

فقد أقبل بها أخوه وقد طبعت مشطرة أو مخمسة ، شطرها أو خمسها بعض الأزهريين ، فجعل يقرأ فى هذه القصيدة ، ثم لم يلبث

أن أعرض عن تشطير الأزهرى أو تخميسه وأخذ فى حفظ القصيدة نفسها مع أخيه .

وإنما ذكر الصبي هذه القصيدة لأنه صادف فى أثنائها بيتاً كان يقع فى أذنه موقعاً غريباً ، وهو قول أبى فراس :

بدوت وأهلى حاضرون لأننى
أرى أن داراً لسْتِ من أهلها قفر

فقد قرأه الشيخ الفتى وحفظه وأحفظه أخاه :

. . . . لأننى أرى أن دار السِّتِّ من أهلها قفر

وكان الصبي يسأل نفسه عن معنى هذا البيت ، كما كان يرى غريباً أن تأتى كلمة « الست » فى بيت من الشعر . فلما تقدمت به السن وتقدمت به المعرفة أيضاً قرأ البيت على وجهه ففهمه ، وعرف كذلك أن كلمة « الست » ربما جاءت فى شعر المحدثين من العباسيين ونثرهم أيضاً .

وكذلك اتصل صاحبنا بالأدب على هذا النحو المضطرب المختلط ، وجمع فى نفسه أطرافاً من هذا الخليط من الشعر والنثر . ولكنه لم يقف عند شىء من ذلك ولم يفرغ له ، وإنما كان يحفظ منه ما يمر به حين تتاح له الفرصة ، ثم يمضى لشأنه وفناقله .

وفى ذات يوم من أول العام الدراسى أقبل أولئك الشباب متحمسين أشد التحمس لدرس جديد يلقى فى الضحى ، ويلقى فى الرواق العباسى ، ويلقيه الشيخ سيد المرصفى فى الأدب ، وسموا ديوان الحماسة .

وكانوا قد فُتنوا بهذا الدرس حـــين سمعوه فلم يعودوا إلى غرفاتهم حتى اشتروا هذا الديوان ، وأزمعوا أن يحضروا الدرس وأن يعنوا به وأن يحفظوا الديوان نفسه . وأسرع أخو الصبى كعادته دائماً ، فاشترى شرح التبريزى لديوان الحماسة وجلده تجليداً ظريفاً ، وزين به دولابه ذاك ، وإن كان قد نظر فيه بين حين وحين . وقد جعل أخو الصبي يحفظ ديوان الحماسة ويحفظه لأخيه ، وربما قرأ عليه شيئاً من شرح التبريزى . وكان يقرؤه على نحو ما كان يقرأ كتب الفقه والأصول ، ويتفهمه على نحو ما يتفهم هذه الكتب .

وكان الصبي يحس أن هذا الكتاب لا ينبغى أن يقرأ عـــلى هذا النحو ولا أن يفهم على هذا النحو . كان الشيخ الفتى وأصحابه يرون ديوان الحماسة متناً ، وكتاب التبريزى شرحاً ، وكانوا يأسفون على أن أحداً لم يكتب على هذا الشرح حاشية . وكانوا كثيراً ما يقصّون حديث الشيخ إليهم وعبثه بهم وتندره على أساتذتهم وعلى كتبهم الأزهرية .

يقصون ذلك ضاحكين منه معجبين به ، ماضين على الرغم منه فى درسهم الأزهرى لا يفتُرون عنه ولا يقصرون فيه .

وكان صاحبنا يسمع أحاديثهم ، فيبتهج لها أشد الابتهاج ، ويشتاق إلى هذا الدرس أشد الشوق . ولكن أولئك الشباب لم يلبثوا أن أعرضوا عن هذا الدرس كما أعرضوا عن غيره من دروس الأدب ؛

لأنهم لم يروه جدًّا ، ولأنه لم يكن من الدروس الأساسية فى الأزهر ، وإنما كان درساً إضافيًّا من هـــذه الدروس التى أنشأها الأستاذ الإمام ، والتى كانت تسمى دروس العلوم الحديثة ؛ وكانت منها الجغرافيا والحساب والأدب . ولأن الشيخ كان يسخر منهم فيسرف فى السخرية ، ويعبث بهم فيغلو فى العبث .

ساء ظنه بهم ، فرآهم غير مستعدين لهذا الدرس الذى يحتاج إلى الذوق ولا يحتمل الفنقلة . وساء ظنهم به ، فرأوه غير متمكن من العلم الصحيح ولا بارع فيه ، وإنما هو صاحب شعر ينشد وكلام يقال ، ونكت تضحك ثم لا يبقى منها شىء .

وكانوا مع ذلك حراصاً على أن يحضروا هذا الدرس ؛ لأن الأستاذ الإمام كان يحميه ، ولأن الشيخ كان مقرباً من الأستاذ الإمام ، ينتهز كل فرصة لينشئ فى مدحه قصيدة يرفعها إليـــه ثم يمليها على الطلاب ، ويأخذ بعضهم بحفظها على أنها من جيد الشعر ورائعه . وكانوا يرونها جيدة رائعة لأنها كانت فى مدح الأستاذ الإمام .

وقد بذلوا ما استطاعوا من الجهد للمواظبة على هذا الدرس ، ولكنهم لم يطيقوا عليه صبراً ، فانصرفوا عنه وعادوا إلى شايهم يستمتعون به فى الضحى على مهل . وانقطع عن صاحبنا ذكر الأدب بعد أن حفظ من ديوان الحماسة جزءاً صالحاً . ثم أشيع ذات يوم أن الشيخ المرصفى سيخصص يومين من أيام الأسبوع

لقراءة المفصل للزمخشرى فى النحو . فسعى صاحبنا إلى هـــذا الدرس الجديد . ولم يسمع للشيخ مرة ومرة حتى أحبه وكلف به ، وحضر درس الأدب فى أيامه من الأسبوع ، ولزم الشيخ منذ ذلك الوقت .

وكان الصبى قوى الذاكرة ، فكان لا يسمع من الشيخ كلمة إلا حفظها ، ولا رأياً إلا وعاه ، ولا تفسيراً إلا قيده فى نفسه . وكثيراً ما كان يعرض البيت وفيه كلمة قد مضى تفسيرها أو إشارة إلى قصة قد قصها الشيخ فيما قدم من درسه ، فكان صاحبنا يعيد على الشيخ ما حفظ من قصصه وتفسيره وما قيـــد من آرائه وخواطره ونقده لصاحب الحماسة وشراحها ، وتصحيحه لرواية أبي تمام ، وإكماله للمقطوعات التى كان أبو تمام يرويها .

وإذا الشيخ يحب الفتى ويكلَف به ، ويوجه إليه الحديث فى أثناء الدرس ، ويدعوه إليه بعد الدرس فيصحبه إلى باب الأزهر ثم يدعوه إلى أن يصحبه فى بعض الطريق . وقد دعاه ذات يوم إلى أن يُبْعِدَ معه فى السير ، حتى انتهى الشيخ وتلميذه هذا وتلاميذ آخرون إلى قهوة فجلسوا فيها ، وكان هذا أول عهد الفتى بالقهوات . وقد طال المجلس منذ صليت الظهر حتى دعا المؤذن إلى صلاة العصر . وعاد الفتى سعيداً مغتبطاً قوى الأمل شديد النشاط .

ولم يكن للشيخ حديث إلى تلاميذه إذا تجاوز درس الأدب إلا الأزهر وشيوخه وسوء مناهج التعليم فيه . وكان الشيخ قاسياً

إذا طرق هذا الموضوع . وكان نقده لاذعاً وتشنيعه على أساتذته وزملائه أليماً حقًّا . ولكنه كان يجد من نفوس تلاميذه هوى ، وكان يؤثر فى نفس هذا الفتى خاصة أبلغ تأثير وأعمقه .

وإذا الفتى يؤثر هذا الدرس على غيره من الدروس شيئاً فشيئاً ، ويختص اثنين من التلاميذ المقربين إلى الشيخ بمودته ثم بوقته . وإذا هم يلتقون إذا كان الضحى فيسمعون للشيخ ، ثم يذهبون إلى دار الكتب فيقرءون فيها الأدب القديم ، ثم يعودون إلى الأزهر بعد العصر فيجلسون فى هـذا الممر بين الإدارة والرواق العباسى ، يتحدثون عن شيخهم وعما قرءوا فى دار الكتب ، ويعبثون بشيوخهم الآخرين ، ويعبثون بالداخلين والخارجين من الشيوخ والطلاب . فإذا صليت المغرب دخلوا الرواق العباسى فسمعوا درس الشيخ بخيت الذى كان يقرأ فى تفسير القرآن مكان الأستاذ الإمام بعد أن توفى .

ولكن الفتية لم يكونوا يسمعون للشيخ الذى يقرأ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب ، وإنما كانوا يسمعون له ليضحكوا منه وليقيدوا عليه أغلاطه ، وكانت كثيرة ولا سيا حين كان يعرض للغة والأدب . وليشنعوا عليه بهذه الأغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا هذه الأغلاط من الغد على شيخهم المرصفى ، فيقدموا إليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيوخ .

وقد كانت نفوس هؤلاء الفتية ضيقة بالأزهر ، فزادها الشيخ

ودرسه به ضيقاً . وكانت نفوسهم شيقة إلى الحرية ، فحط الشيخ ودرسه عنها القيود والأغلال .

وما أعرف شيئاً يدفع النفوس ، ولا سيما النفوس الناشئة ، إلى الحرية والإسراف فيها أحياناً كالأدب ، وكالأدب الذى يدرس على نحو ما كان الشيخ المرصفى يدرسه لتلاميذه حين كان يفسر لهم الحماسة أو يفسر لهم الكامل بعد ذلك . نقد حر للشاعر أولا ، وللراوي ثانياً ، وللشرح بعد ذلك ، وللغويين على اختلافهم بعد أولئك وهؤلاء . ثم امتحان للذوق ورياضة له على تعرف باطن الجمال فى الشعر أو النثر ، فى المعنى جملة وتفصيلا ، وفى الوزن والقافية وفى مكان الكلمة بين أخواتها . ثم اختبار للذوق الحديث فى هذه البيئة التى كان يلقى فيها الدرس ، وموازنة بين غلظة الذوق الأزهرى ورقة الذوق القديم ، وبين كلال العقل الأزهرى ونفاذ العقل القديم ، وانتهاء من هذا كله إلى تحطيم القيود الأزهرية جملة ، وإلى الثورة على الشيوخ فى علمهم وذوقهم وفى سيرتهم وأحاديثهم بالحق فى كثير من الأحيان ، والإسراف والتجنى فى بعض الأحيان .

ومن أجل هذا لم يثبت حول الشيخ من تلاميذه الذين كثروا أول الأمر إلا نفر قليل ، وامتاز منهم هؤلاء الثلاثة خاصة ، فكونوا عصبة صغيرة ولكنها لم تلبث أن بعد صوتها فى الأزهر ، وتسامع بها الطلاب والشيوخ ، وتسامعوا خاصة بنقدها للأزهر وثورتها على

التقاليد ، وبما كانت تنظم من الشعر فى هجاء الشيوخ والطلاب ، وإذا هى بغيضة إلى الأزهريين مهيبة منهم فى وقت واحد .

ولم يكن الشيخ أستاذاً فحسب ، ولكنه كان أديباً أيضاً ، ومعنى ذلك أنه كان يصطنع وقار العلماء إذا لقى الناس أو جلس للتعليم فى الأزهر ، فإذا خلا إلى أصدقائه وخاصتهم عاش معهم عيشة الأديب ، فتحدث فى حرية مطلقة عن كل إنسان وعن كل موضوع ، وروى لخاصته من شعر القدماء ونثرهم وسيرتهم ما يثبت أنهم كانوا أحراراً مثله ، يقولون فى كل شىء وفى كل إنسان لا متنطعين ولا متحفظين ، كما كان يقول .

وكان أيسر شىء وأهونه أن يذهب الطلاب مذهب شيخهم ، ولا سيما إذا أحبوه وأكبروه ، ورأوا فيه المثل الأعلى للصبر على المكروه والرضا بالقليل ، والتعفف عما لا يليق بالعلماء ، والترفع عما كان ينغمس فيه كثير من شيوخ الأزهر من ألوان السعاية والنميمة والكيد والتقرب إلى الرؤساء وأصحاب السلطان .

كان تلاميذ الشيخ يرون منـــه ذلك رأى العين ويلمسونه بأيديهم ، ويعيشون معه ، فى حين كانوا يزورونه فى منزله ذلك المتهدم الخرب القديم فى حارة قذرة من حارات باب البحر يقال لها « حارة الركراكى » . هناك فى أقصى هذه الحارة كان يسكن الشيخ ، يسكن بيتاً قذراً متهدماً ، تدخل فيه من بابه ، فإذا أنت فى ممر ضيق رطب تنبعث فيه روائح كريهة ، قد خلا من كل شىء إلا هذه

الدكة الخشبية الضيقة الطويلة العارية التى قد أسندت إلى حائط يتساقط منه التراب .

وكان الشيخ ينزل لتلاميذه فيجلس معهم على هــذه الدكة ، ولكنه يجلس راضياً مطمئنًّا ، يسمع لهم باسماً ويتحدث إليهم أرق الحديث وأعذبه وأصفاه وأبرأه من التكلف . وربما كان مشغولا حين يقبل تلاميذه لزيارته ، فيدعوهم إلى غرفته ، فيصعدون إليه فى سلّم متهدم ، ويسلكون إليه دهليزاً خالياً من كل شىء قد انتشر فيه ضوء الشمس . حتى إذا بلغوا غرفته دخلوا على شيخ منحن قد جلس على الأرض ، ومن حوله عشرات الكتب يبحث فيها عن مقطوعة يريد أن يتمها ، أو بيت يريد أن يفسره ، أو لفظ يريد أن يحققه ، أو حديث يريد أن يصحح الرأى فيه ، وعن يمينه أدوات القهوة . فإذا دخلوا عليه لم يقم لهم ، وإنما تلقاهم مستبشراً فرحاً ، ثم دعاهم إلى الجلوس حيث يستطيعون ، ودعا أحدهم إلى صنع القوة وإدارتها عليه وعليهم . ثم تحدّث إليهم لحظات ، ثم دعاهم إلى أن يشاركوه فيما كان بسبيله من بحث أو تحقيق .

ولم ينس الفتى وأحـــد صديقيه أنهما زارا الشيخ ذات يوم حين صليت العصر . فلما صعدا إليه لقيا شيخاً قد جلس على فراش متواضع ألتى فى هذا الدهليز ، وإلى جانبه امرأة محطمة قد انحنت حتى كاد رأسها يبلغ الأرض والشيخ يطعمها بيده .

فلما رأي تلميذيه هش لهما ، وأمرهما أن ينتظراه فى غرفته شيئاً . ثم أقبـــل عليهما بعد حين وهو يقول ضاحكاً راضى النفس : « كنت أعشى أمى » .

كان هذا الشيخ إذا خرج من داره صورة الوقار والدعـــة ، وأمن النفس وطمأنينة القلب وصفاء الضمير . وكان صورة الغنى واليسار ، لا يحس من يتحدث إليه إلا رجلا قد يُسِّر عليه فى الرزق ، فهو يعيش عيشة أمن وهناءة وهدوء .

ولكن تلاميذه وخاصته كانوا يعلمون حق العلم أنه كان من أشد الناس فقراً وأضيقهم يداً ، وأنه كان ينفق الأسبوع أو الأسابيع لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه فى شيء من الملح . وكان على ذلك يعلِّم ابنه تعليماً ممتازاً ، ويرعى غيره من أبنائه الذين كانوا يطلبون العلم فى الأزهر رعاية حسنة ، ويدلل ابنته تدليلا مؤثراً . يصنع هذا كله براتبه الضئيل الذى لم يكن يتجاوز ثلاثة جنيهات ونصف جنيه . كان من أصحاب الدرجـــة الأولى ، فكان يتقاضى جنيهاً ونصف جنيه لذلك ، وكان الأستاذ الإمام قد كلفه درس الأدب فكان يتقاضى لذلك جنيهين . وكان يستحيي أن يقبض راتبه أول الشهر ، ويكره أن يختلط بالعلماء وهم يتهافتون على « المباشر » ليتقاضوا منه رواتبهم ، فكان يدفع خاتمه إلى تلميـــذ من خاصته ليقبض له هذا الراتب الضئيل فى الضحى ويؤديه إليه بعد الظهر .

كذلك كان يعيش هذا الشيخ ، وكان تلاميذه يرونه ويشاركونه فى حياته تلك البائسة الحرة الممتازة . وكانوا يرون ويسمعون من أمر شيوخ آخرين ما كان يملأ قلوبهم غيظاً وحقداً ، ونفوسهم ازدراء واحتقاراً . فأى غرابة فى أن يُفْتَتَنُوا بشيخهم ويتأثروه فى سيرته وفى مذهبه وفى ازدرائه للأزهريين وثورته بمـــا كان لهم من تقاليد !

لم ينكر تلاميذ الشيخ عليـــه فى ذلك العهد إلا أنه انحرف ذات يوم عن الوفاء للأستاذ الإمام حين تولى الشيخ الشربينى مشيخة الأزهر ، فنظم الشيخ قصيدة يمدح بها الشيخ الجديد ، وكان تلميذاً للشيخ ومحبًّا له . وكان الشيخ الشربينى خليقاً بالحب والإعجاب . وأملى الشيخ المرصفى على تلاميذه قصيدته التى سماها ثامنة المعلقات ، والتى عارض بها قصيدة طرفة . فلما فرغ من إملائها والتف حوله تلاميذه ، مضى فى الثناء على أستاذه ، وعرَّض بالأستاذ الإمام شيئاً ، فرده بعض تلاميذه فى رفق ، فارتد أسفاً خجلا واستغفر الله من خطيئته .

وكذلك اندفع هؤلاء التلاميذ فيما دفعهم إليه حبهم للشيخ وتأثرهم به ، فأسرفوا على أنفسهم وعلى شيخهم أيضاً .

لم يكتفوا بهذا العبث الذى كانوا يعبثونه بالشيوخ والطلاب ، ولكنهم جعلوا يجهرون بقراءة الكتب القديمة وتفضيلها على الكتب الأزهرية . يقرءون كتاب سيبويه أو كتاب المفصل فى النحو ، ويقرءون

كتابى عبد القاهر الجرجانى فى البلاغة ، ويقرءون دواوين الشعراء لا يتحرجون فى اختيار هذه الدواوين ولا فى الجهر بإنشاد ما كان فيهـا من شعر المجون أحياناً فى الأزهر . ويقلدون هذا الشعر ، ويتناشدون ما ينشئون من ذلك إذا التقوا . والطلاب ينظرون إليهم شزراً ، ويتربصون بهم الدوائر ، وينتهزون بهم الفرص . وربما أقبل عليهم بعض الطلاب الناشئين يسمعون منهم ويتحدثون إليهم ، ويريدون أن يتعلموا منهم الشعر والأدب ، فيغيظ ذلك نظراءهم من الطلاب الكبار ويزيدهم موجـدة عليهم وائتماراً بهم .

وفى ذات يوم كان صاحبنا يعد مع أحد صديقيه درس الكامل ، فعرضت لهم هذه الجملة من كلام المبرد : « ومما كفَّرت الفقهاء به الحجاج قوله والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره : إنما يطوفون برمة وأعواد » . فأنكر صاحبنا أن يكون فى كلام الحجاج ما يكفى لتكفيره ، وقال لقد أساء الحجاج أدبه وتعبيره ، ولكنه لم يكفر . وسمع بعض الطلاب ذلك فأنكروه ، ثم تناقلوه .

وإن فتياننا الثلاثة لفى مجلسهم حول الشيخ عبد الحكم عطا وإذا هم يدعون إلى حجرة شيخ الجامع ، فيذهبون واجمين لا يفهمون شيئاً . فإذا دخلوا على الشيخ « حسونة » لم يجدوه وحده وإنما وجدوا من حوله أعضاء مجلس إدارة الأزهر وهم من كبار العلماء ؛ فيهم الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ راضى

وآخرون . ويلقاهم الشيخ متجهماً ، ثم يأمر رضوان رئيس المشدين أن يدعو من عنده من الطلاب . فيقبل جماعة من الطلاب فيسألهم الشيخ عما عندهم . ويتقدم أحدهم فيتهم هؤلاء الفتية بالكفر لمقالتهم فى الحجاج ، ثم يقص من أمرهم الأعاجيب .

وكان هذا الطالب ماهراً حقًّا ؛ فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيراً جدًّا مما كانوا يعيبون به الشيوخ ، ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت والشيخ محمد حسنين والشيخ راضى والشيخ الرفاعى ، وكانوا جميعاً حاضرين ، فسمعوا بآذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم . وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما قال . وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئاً . ولكن الشيخ لم يحاورهم ولم يداورهم ، وإنما دعا إليه رضوان فأمره فى شدة بمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر ؛ لأنه لا يريد مثل هذا الكلام القارغ ، ثم صرفهم عنه فى عنف . فخرجوا وجلين قد سُقط فى أيديهم لا يعرفون ماذا يصنعون ، ولا كيف يصورون هذه القصة لأهلهم .

ولم يقف أمرهم عند هذا الحد ولا عند نظر الطلاب إليهم فى ضحك منهم وشماتة بهم ، ولكنهم أقبلوا بعد صلاة العشاء ليلقوا شيخهم المرصفى وليسمعوا منه درس الكامل . وأقبل الشيخ ، فلقيه رضوان وأنبأه فى أدب ولطف بأن شيخ الجامع قد ألغى درس الكامل ، وبأنه ينتظره فى مكتبه إذا كان الغد .

فانصرف الشيخ محزوناً ، ومضى معه تلاميذه الثلاثة خجلين

وجلين ، والشيخ يسرى عنهم مع ذلك . حتى إذا كانوا فى بعض الطريق خطر لهم أن يذهبوا إلى الشيخ بخيت ليستعطفوه ويوسطوه عند شيخ الجامع . وقال لهم شيخهم : لا تفعلوا ، فلن تبلغوا من سعيكم هذا شيئاً . ولكنهم مضوا مع ذلك إلى دار الشيخ بخيت . فلما أدخلوا عليـــه عرفهم فتلقاهم ضاحكاً ، ثم سألهم عن جلية أمرهم فى فتور . فلما أخذوا يدافعون عن أنفسهم قال لهم فى فتور أيضاً : ولكنكم تدرسون الكامل للمبرد ، وقد كان المبرد من المعتزلة ، فدرس كتابه إثم .

وهنالك نسى الفتية أنهم جاءوا مستعطفين ، وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحفظوه . وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب وملأهم اليأس . ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته ، وتفرقوا وقد تعاهدوا على أن يخفوا الأمر على أهلهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولقوا شيخهم من الغد ، فأنبأهم بأن شيخ الجامع قد حظر عليه قراءة الكامل ، وكلفه قراءة المغنى لابن هشام ، ونقله من الرواق العباسى إلى عمود فى داخل الأزهر .

ثم جعل الأستاذ يعبث بشيخ الجامع ، ويزعم لتلاميذه أنه لم يخلق للعلم ولا للمشيخة ، وإنما خلق ليبيع العسل الأسود فى سرياقوس ، وكان قد فقد أسنانه فكان ينطق السين ثاء ، وكان يتكلم لغة القاهرة فكان يجعل القاف همزة ، ويمد الواو بينها وبين

السين ، وكان يتكلم هامساً ، فلم ينس تلاميذه قط هذه الجملة التى طبعوا بها الشيخ حسونة رحمه الله ، فسموه « بائع العثل فى ثرياؤوث ».

ولكن بائع سرياقوس هـــذا كان شديداً حازماً وكان مهيباً صارماً ، يخافه الشيوخ جميعاً ومنهم الشيخ المرصفى ؛ فقد أخذ يقرأ كتاب المغنى ، وذهب إليه تلاميذه مطمئنين . وما يعنيهم أن يقرأ الشيخ هذا الكتاب أو ذاك . حسبهم أن يقرأ الشيخ وأن يسمعوا منه ويقولوا له وقد سمعوا منه . فلما همّ الفتى أن يقول له بعض الشيء أسكته فى رفق وهو يقول : « لأ ، لأ ، عاوزين ناكل عيش » . ولم يعرف الفتى أنه حزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه . فانصرف عنه ومعه صديقاه وإن قلوبهم يملؤها حزن عميق .

على أنهم لم يرضوا بهذه العقوبة التى فرضها عليهم شيخ الجامع ، وإنما فكروا فى الطريق التى يجب أن يسلكوها ليرفعــوا عن أنفسهم هذا الظلم . فأما أحدهم فقد آثر العافية وفارق صاحبيه واتخذ لنفسه مجلساً فى جامع المؤيد بمعزل من العـــدو والصديق حتى تهدأ العاصفة . وأما الآخر فقص الأمر على أبيه ، وجعل أبوه يسعى فى إصلاح شأن ابنه سعياً رفيقاً . ولكن الفتى لم يفارق صاحبه ولم يعتزل عدوًّا ولا صديقاً . وإنما كان يلقى صاحبه كل يوم فيتخذان مجلسهما بين الرواق العباسى والإدارة ، ويمضيان فيما تعوّدا أن يمضيا فيه من العبث بالطلاب والشيوخ .

وأما صاحبنا فلم يحتج إلى أن يقص الأمر على أخيه ، فقد انتهى الأمر إلى أخيه من طريق لا يعرفها . ولكن أخاه لم يلمه ولم يعنف عليه ، وإنما قال له : « أنت وما تشاء فستجنى ثمرة هـــذا العبث وستجدها شديدة المرارة » . ولكن الفتى لم يكن يعرف رفقاً ولا ليناً ؛ فلم يسع إلى أحد ولم يتوسل إلى الشيخ بأحد ، وإنما كتب مقالا عنيفاً يهاجم فيه الأزهر كله وشيخ الأزهر خاصة ويطالب بحرية الرأى . وماذا يمنعه من ذلك وكانت الجريدة قد ظهرت وكان مديرها يدعو كل يوم إلى حرية الرأى .

وذهب صاحبنا بمقاله إلى مدير الجريدة فتلقاه لقاء حسناً فيه كثير من العطف والإشفاق . وقرأ المقال ثم دفعه ضاحكاً إلى صديق له كان فى مجلسه يومئذ ، فألقى الصديق نظرة على هذا المقال ثم قال غاضباً : لو لم تكن قد عوقبت على ما جنيت من ذنب لكانت هذه المقالة وحدها كافية لعقابك . وهمّ الفتى أن يرد على هذا الصديق ، ولكن مدير الجريدة قال له مترفقاً : إن الذى يحدثك هو حسن بك صبرى مفتش العلوم الحديثة فى الأزهر . ثم قال له : أتريد أن تشتم الشيخ وتعيب الأزهر ، أم تريد أن يرفع عنك هذا العقاب ؟ قال الفتى : بل أريد أن يرفع عنى هذا العقاب ، وأن أستمتع بحقى من الحرية . قال مدير الجريدة : فدع لى إذاً هذه القصة وانصرف راشداً .

وقد انصرف الفتى ، ثم لم يلبث أن تبين وتبين معه صاحباه ،

أن شيخ الجامع لم يعاقبهم ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر ، وإنما أراد تخويفهم ليس غير .

ومنذ ذلك الوقت اتصل الفتى بمدير الجريدة وجعل يتردد عليه ، حتى جاء وقت كان يلقاه فيه كل يوم .

وفى مكتب مدير الجريدة ظفر الفتى بشىء طالما تمناه ، وهو أن يتصل ببيئة الطرابيش بعد أن سئم بيئة العمائم ، ولكنه اتصل من بيئة الطرابيش بأرقاها منزلة وأثراها ثراء ، وكان وهو فقير متوسط الحال فى أسرته ، سيئ الحال جدًّا إذا قام فى القاهرة . فأتاح له ذلك أن يفكر فيما يكون من هذه الفروق الحائلة بين الأغنياء المترفين والفقراء البائسين .

٢٠

واشتد ضيق الفتى بالأزهر وأهله وبحياته فى القاهرة ، غارقاً فيما لا يحب ، مُقصى عما تشتهيه نفسه ويتحرق إليه قلبه . حتى لقد كان يصل إلى القاهرة فى أول العام الدراسى ، فلا يكاد يستقر فيها حتى يدعو آخره متشدداً فى الدعاء أو ملحًّا فيه . والله وحده يعلم كم كان يسعد ويبتهج حين كانت بشائر الصيف تقبل ، وحين كانت أرجاء الحى الذى كان يقيم فيـــه تمتلئ بهذه الروائح الكريهة التى كانت تبعثها حرارة الشمس فتملأ الهواء وتجعل التنفس ثقيلا بغيضاً ، وحين كان لا يجلس إلى شيخ من شيوخه فى درس من دروس الظهر أو درس من دروس المساء إلا أسرع النوم إلى رأسه فخفق به خفقاً عنيفاً يلفت إليه الطلاب من حوله فيوقظونه جادين أو هازلين .

كان مقدم الصيف يملأ صدره حبوراً وبشراً ؛ لأنه كان يؤذن بقرب الإجازة والعودة إلى الريف والراحة من الأزهر والأزهريين . ولم يكن يحب الإجازة لهذا وحده ، ولم يكن يحبها لأنه سيلقى فيها أهله ، ولأنه سينعم فيها بما كان يمتنع عليه فى القاهرة من طيبات الحياة ، وإنما كان يحب الإجازة لهذا كله ولشىء آخر كان أعظم فى نفسه خطراً وأبعد أثراً من هذا كله ؛ فقد كانت

الإجازة أنفع لعقله وقلبه من العام الدراسى كله .

كانت الإجازة تمكنه من أن يفرغ لنفسه فيفكر — وما أكثر ما كان يفكر ! — ومن أن يخلو إلى إخوته فيقرأ — وما أكثر ما كان يقرأ ، وما أشد تنوعه وأعظم فائدته ! .

كان شباب الأسرة يعودون من معاهدهم ومدارسهم وقد ملئوا حقائبهم بتلك الكتب التى لا تتصل بدراستهم المنظمة ، ولا يتاح لهم أن يقرءوها فى أثناء العام . وكانت هذه الكتب ألواناً ، منها الجد ومنها الهزل ، منهـــا ما ألف ومنها ما ترجم ، منها القديم ومنها الجديد .

فكان هؤلاء الشباب لا ينفقون أياماً فى الأسرة حتى يسأموا البطالة ويعافوا الكسل ويقبلوا على كتبهم هذه ، فيعكفون عليها نهارهم وأطرافاً من ليلهم . وكان أبوهم الشيخ يحب منهم ذلك ويحمده لهم . وربما ضاق منهم بذلك ولامهم فيـــه حين كانوا يقبلون على القصص الشعبي فيغرقون فى ألف ليلة وليلة ، أو فى قصص عنترة وسيف بن ذى يزن .

ولكنهم كانوا يقبلون على كتبهم هـــذه رضيت الأسرة أو سخطت . وكانوا يجدون فى هـــذه الكتب من المتاع واللذة أضعاف ما كانوا يجدون فى كتبهم الدراسية . وكانوا يقرءون ما ترجم فتحى زغلول عن الفرنسية ، وما كان السباعى يترجم عن الإنجليزية ، وما كان جورجى زيدان يكتب فى الهلال من مقالات ، وما كان

ينشر من قصص ، وما كان يؤلف من كتب فى تاريخ الأدب والحضارة ، وما كان يعقوب صروف يكتب فى المقتطف ، وما كان الشيخ رشيد يكتب فى المنار .

وفى الإجازات قرءوا كتب قاسم أمين ، وكثيراً من آثار الأستاذ الإمام . وكانوا يقرءون هذه القصص الكثيرة التى كانت تترجم لتلهية القراء والتى كانوا يفتنون بما كانوا يجدون فيهـــا من صور للحياة تخالف ما عرفوا فى ريفهم ومدنهم . وكان هذا كله يغريهم بالمضى فى القراءة حتى يسرفوا على أنفسهم ، وربمـــا أسرفوا على أسرتهم أيضاً ؛ فقد كانوا لا يجدون فى الصحف والمجلات إشارة إلى كتاب جديد أو كتاب قديم لم يعرفوه إلا كتبوا إلى الناشر يطلبون إليه إرساله إليهم . وما هى إلا أيام حتى يأتى الكتاب أو تأتى الكتب محولة على البريد ، وحتى تضطر الأسرة إلى أن تدفع ثمنها سواء أرضيت عن ذلك أم ضاقت به .

وكان صاحبنا يحب الإجازة لأنه كان يفرغ للتفكير فى أصدقائه من بعيد ، فيكتب إليهم ويتلقى منهم الكتب ، ويجد فى نفسه لذلك نشاطاً وبه لذة لم يكن يجدها حين يلقى أصدقاءه فى القاهرة ويتحدث إليهم من قريب .

ثم كان يحب الإجازة لأنه كان يلقى فيها شباباً آخرين غير شباب أسرته ، شباباً من بيئة الطرابيش ، منهم من كان فى المدارس الثانوية ، ومنهم من كان فى المدارس العالية ، قد أقبلوا مثله

يلتمسون الراحة بين أهلهم فى الريف . وهم يجـــدون فى لقائه والتحدث إليه اللذة والمتاع مثل ما يجد هو فى لقائهم والتحدث إليهم ، فكان يسألهم عما يتعلمون ويسألونه عما يتعلم . وربما قرءوا عليه بعض كتبهم ، وربما قرأ معهم شيئاً من الأدب القديم .

ولكنه أنكر بعض إجازاته أول الأمر ؛ فقد حدث حدث فى أسرته، فتحولت عن مدينتها التى نشأ فيها الصبى إلى أعلى الإقليم أول الأمر ، فأقامت فيه عاماً أو عامين ثم تحولت بعد ذلك إلى أقصى الصعيد ، فأقامت فيـــه أعواماً طوالا . وكان صاحبنا شديد الحزن على مدينته القديمة ، شديد الضيق بهذه الأماكن الجديدة التى لا عهد له بها ، والتى لم يكن يستطيع أن يذهب فيها عن يمين أو شمال . ولكنه اطمأن أخـــيراً إلى مدينته تلك فى أقصى الصعيد حتى ألفها أشد الإلف وكلف بها أعظم الكلف ، وأصبحت له وطناً ثانياً ، مع أن زياراته الأولى لهذه المدينة قد آذته وشقت عليه .

ذهب إليها مع الأسرة كلها لزيارة أبيه الشيخ ، وكان قد بدأ عمله فيها وحيداً . فلما دبر أمره واستقر به المقام دعا الأسرة إلى أن تنتقل إليه . وصادف ذلك إجازة الصيف ، فانتقلت الأسرة ومعها الفتى . ركبت القطار منتصف الليل ، وبلغت تلك المدينة فى الساعة الرابعة من غد . وكانت المدينة جديدة ، وكان القطار لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة . وكانت الأسرة ضخمة يقودها

أكبر أبنائها ، وفيها النساء والأطفال ، ومعها متاع ضخم عظيم . فلما دنا القطار من المحطة أقبل كبار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع يقربون ذلك كله من باب العربة ، حتى إذا وقف القطار دفعوا ذلك كله دفعاً إلى الأرض ، ثم تواثبوا من ورائه ، ومضى القطار ولم ينسوا فيه إلا أخاهم هذا الضرير .

وقد ذعر الفتى حين رأى نفسه وحيداً عاجزاً عن أن يقضى فى أمره بشيء . ولكن جماعة من السَّفْر رأوا عجزه وحيرته ، فرفقوا به وجعلوا يهدئونه . حتى إذا وقف القطار فى أول محطة أنزلوه وأسلموه إلى صاحب التلغراف وعادوا إلى قطارهم .

وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها فى مدينتها الجديدة ، فجعلت تزور الدار وتتفقد حجراتها وغرفاتها ، وتقر كل شيء فى مكانه . ثم أقبل الشيخ عليها فجلس يتحدث إلى هذا وذاك من أبنائه و إلى هذه وتلك من بناته .

ثم جرى عرضاً ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قصير . فلما سمع الشيخ اسم الفتى ارتاع وارتاعت أمه وارتاع إخوته ، وهرول الشباب منهم إلى مكتب التلغراف ، ولكنهم لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أخاهم فى المحطة المجاورة ينتظر من يأتى ليرده إليهم . فأرسلوا إليه من جاء به ردفاً على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مهملجة به مرة أخرى ، فتضيف فى قلبه فرقاً إلى فرق وذعراً إلى ذعر .

ولم ينس الفتى قط مجلسه عنـــد صاحب التلغراف ، وكان شابـًّا نشيطاً كثير الضحك كثير المزاح ، وقد اجتمع إليه جماعة من موظفى المحطة ، فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ثم عرفوا أمره ، فأظهروا العطف عليه والرقة له . وقد رأوا شيخاً ضريراً ، فما شكوا فى أنه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء . وهم يطلبون إليه أن يغنى لهم شيئاً . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئاً من القرآن . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عليه وأبوا إلا أن يسمعوه . واضطر الفتى إلى أن يقرأ القرآن خجلا وجلا مستحيياً ضيقاً بالحياة لاعناً للأيام ، وإذا صوته يحتبس فى حلقه ، وإذا الدموع تنهمر على خديه وإذا القوم يرفقون به وينصرفون عنـــه ، ويتركونه وحيداً أو كالوحيد حتى يأتى من يرده إلى أسرته .

آذت هذه القصة الفتى فى نفسه ، ولكنها على ذلك لم تبغِّض إليه المدينة الجديدة ، ولم تزهده فى زيارتها ، وإنما أحبها وجعلت نفسه تشتاق إليها أشد الشوق كلما دنا الصيف ، وإن كان الحر فيها شديداً لا يطاق .

وتغيرت أمور أهل الربع تغيراً شديداً . فأما كبار الطلاب فقد ظفر اثنان منهم بدرجة العالمية ، والتحق سائرهم ، ومنهم أخو الفتى ؛ بمدرسة القضاء الشرعى لأول إنشائها . وأما الفتى فقد فارقه ابن خالته ذاك الذى كان يعينه على وحدته فى الأزهر والربع معاً والتحق بدار العلوم .

ونظر الفتى فإذا هو يعود إلى عزلته القاسية المنكرة التى طالما حمّلته ألوان العذاب فى أول عهده بطلب العلم ، وإذا أمره يزداد شدة وقسوة ، فلن يفرغ له أحد إذا عاد إلى القاهرة بعد انقضاء الصيف . سيذهب أخوه إلى مدرسة القضاء . وسيذهب ابن خالته إلى دار العلوم . وماذا عسى أن يصنع هو وحيداً فى الربع ؟ وأى نفع له أو لغيره فى أن يذهب إلى القاهرة ؟ لقد أخذ من العلم حظّاً لا بأس به . وما عسى أن يفيد من درجة العالمية إن ظفر بها ! وأكبر الظن أنه لن يظفر بها ؛ فإن نيلها يحتاج إلى جهد عظيم لا يستطيع هو أن يبذله وحده . كذلك قال أخوه للأسرة فى يوم من أيام الصيف حين أوشكت الإجازة أن تبلغ أجلها . وقد همّ الشيخ الوالد أن يقول شيئاً فقطع ابنه عليه الكلام بهذه الحجج المفحمة . ولم تجد أم الفتى ما تقول فأرسلت دموعاً صامتة غزاراً . ونهض الفتى فمشى متعثراً حتى خلا إلى نفسه فى إحدى الحجرات جامداً واجماً لا يفكر فى شىء .

وكانت ليلة ثقيلة طويلة لقى الفتى فيها من نفسه عذاباً شديداً . ثم أصبح لا يقول شيئاً ولا يقول له أحد شيئاً ، فقضى نهاراً ثقيلا طويلا . ثم أقبل عليه أبوه الشيخ مع المساء فمسح رأسه وقبله وقال له : ستذهب إلى القاهرة ، وسيكون لك خادم خاص . هنالك أجهش الفتى بالبكاء وأجهشت أمه بالبكاء أيضاً .

وجاء يوم السفر وخرج شباب الأسرة إلى القطار وفيهم الفتى .

وكان أهل الخادم قد ضربوا للأسرة موعداً فى المحطة . فهؤلاء الشباب يبلغون المحطة ، وهذا القطار يصل ولم يأت الخادم . وهؤلاء شباب الأسرة يركبون القطار وهو يمضى بهم وقد تركوا الفتى فعاد به أبوه إلى الدار وكلاهما واجم حزين .

ويأتى الخادم مع الليل فيعود إلى الفتى استبشاره وابتهاجه . ويسافر مع خادمه الأسود الصغير إلى القاهرة بعد يومين وقد حمل إلى أخيه طعاماً وزاداً .

وقد بلغ القاهرة وأقام فيها مع خادمه هذا الأسود ، يختلف معه إلى دروس الأزهر ، ويهيئ له طعام الإفطار ، ويقرأ له قراءة محطمة متعثرة أثناء فراغه .

ولكن الجامعة قد أنشئت ، وإذا صاحبنا يُقبل عليها وينتسب إليها . وإذا هو يختلف مع غلامه الأسود إلى دروس الأزهر مصبحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . وإذا هو يجد للحياة طعماً جديداً ، وإذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم وبين أساتذته فى الأزهر .

وقد بعدت الجامعة عن الربع ، وبعدت عنه مدرسة القضاء ، وبعدت عنه دار العلوم ، فلم يبق للجماعة فيه مقام ، وإذا هى تتحول عنه إلى بيت جديد أيضاً فى درب الجماميز .

وإذا الفتى يستأنف حياة لا صلة بينها وبين حياته القديمة إلا أنه كان ربما ألمّ بالأزهر مرة فى الأسبوع أو فى الأسبوعين ،

وإلا أنه كان ربما لقى أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين ، وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصفى من وقت إلى وقت .

وفى الحق أن الفتى قد قطع الصلة بينه وبين الأزهر فى دخيلة نفسه وأعماق ضميره ، ولكنه ظل مقيداً فى السجلات . ولم يظهر أباه على ما تم عليه عزمه مخافة أن يحزن الشيخ أو ييأس ، فما كان يعرف من أمر الجامعة شيئاً ، وما كان يعنى من أمر الجامعة بقليل أو كثير .

ولكن الفتى عاد مع إخوته إلى مدينتهم تلك فى إجازة الصيف . وإنهم لفى قراءتهم ذات يوم وإذا البريد يحمل إلى أخيه كتاباً من أحد أصحابه ، وإذا هو يقرأ هذا الكتاب ثم يعيد قراءته على أخيه الفتى فيسمع منه عجباً من العجب .

كان الفتى قد أنفق فى طلب العلم فى الأزهر ثمانى سنين . وكان الأزهر قد تعرض لألوان مختلفة من النظام . فلما كان ذلك الصيف أبيح للطلاب المنتسبين أن يزيدوا مدة انتسابهم النظاميـــة إذا استطاعوا أن يثبتوا أنهم درسوا فى الأزهر أو فى المعاهد الدينية الأخرى قبل أن يبلغوا السن التى كانت تبيح لهم الانتساب النظامى وهو اثنتا عشرة سنة ، ليتعجلوا تقدمهم للامتحان وظفرهم بالدرجات .

وأعلن هذا الترخيص فى أثناء الإجازة ، فيسرع هذا الصديق فيكتب إلى المشيخة طلباً باسم الفتى ، يزعم فيه أنه قد درس فى

الأزهر سنتين قبل أن يبلغ السن القانونية . ويعرض هذا الطلب على اثنين من كبار الشيوخ لم يرهما الفتى ولم يرياه قط ، لم يسمع لهما الفتى درساً ولم يسمعا منه شيئاً ، ولكنهما يقرآن ثم يشهدان بأن الفتى لم يقل إلا حقًّا . وأى بأس لذلك وما أكثر من اختلف إليهما من الطلاب ! وكيف السبيل إلى أن يعرفا تلاميذهما الذين لا يحصون !

وكذلك عرف الفتى من حيث لا يدرى أنه قد أنفق فى الأزهر عشرة أعوام وإن لم ينفق فيه إلا ثمانية ، وأنه لم يبق بينه وبين التقدم لنيل الدرجة إلا سنتان اثنتان .

فليصل إذاً من حبل الأزهر ما انقطع أو ما هم أن ينقطع ، وليظل إذاً طالباً بالجامعتين : بالجامعة الأزهرية كما كان الأزهر يسمى فى ذلك الوقت ، وبالجامعة المصرية . وليحى إذاً هـذه الحياة المشتركة التى يتجاذبه فيها قديم الأزهر فى ذلك الحى العتيق بين الباطنية وكفر الطماعين ، وجديد الجامعة فى ذلك الحى الأنيق من شارع قصر العينى .

فلندعه كما كان موضوعاً للصراع بين القديم والجديد . ومن يدرى ! لعلنا نعود إليه مرة أخرى .

* * *

وها أنت ذا يا بنى تهجر وطنك ومدينتك ودارك وتفارق أهلك وأصدقاءك ، وتعبر البحر فى سنك هـذه الصغيرة لتطلب العلم وحيداً فى باريس .

فدعنى أهدى إليك هذا الحديث لعلك ترتاح إليه بين حين وحين إذا أجهدك درسك ووجدت فى اللاتينية واليونانية مشقة أو عناء . هنالك ترى لوناً لم تعرفه من ألوان الحياة فى مصر ، وتذكر شخصاً طالما ارتاح إلى قربك منه ، وطالما وجد فى جدك وهزلك لذة ، لا تعدلها لذة ، ومتاعاً لا يعدله متاع .

فيك سور سير

يوليو — أغسطس سنة ١٩٣٩

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٨